مجلة كلية الآداب

المجلد الرابع والثلاثون
١٩٨٦

مجلة سنوية محكمة تصدر ... أول أكتوبر ١٩٨٦ .

مجلة
كلية الآداب

مجلة علمية محكمة تصدر في أكتوبر

هيئة التحرير

رئيس مجلس الإدارة :

رئيس التحرير :

الأستاذ الدكتور عبد الراضي

هيئة التحرير

الأستاذ الدكتور أحمد عبد الخالق

الأستاذ الدكتور [illegible] عبد الله

[illegible] محمد يوسف

الدكتور محمد [illegible]

الدكتور لويزا سعيد

توجه المراسلات الخاصة بالأبحاث إلى
الأستاذ الدكتور وكيل الكلية للدراسات
العليا والبحوث كلية الآداب
جامعة الإسكندرية ٢١٥ ع

تليفون : ٤٩٣٥٧٣٧ ٤٩٣٥٧٣٥

تلكس : 54467 UNIVY UN

المحتويات

في الممنوع من الصرف ... حده وإعرابه ٧
د. محمد عبد الله صبر سلومة

عروض الخليل ... ماله وما عليه ١٦
د. أحمد سليمان ياقوت

الحجازيون وحياتهم الاقتصادية والاجتماعية في مدينة إسكندرية في العصر العثماني ٦٥
د. صلاح أحمد هريدي

[illegible] الناصر يوسف والخول ٩٧
د. سعد بن محمد حليته القحطاني

الإمام [illegible] عبد الله بن حمزة وكتابه زيد الأزهار ١٤٧
د. عبد الفتاح أحمد فؤاد

حالة القلق وسمة القلق لدى عينات سعودية ذهانية وعصابية ١٧٩
د. أحمد محمد عبد الخالق
د. أحمد حيوي حافظ

فى الممنوع من الصرف

حـده ، وإعرابـه

د . محمد عبد الله جبر سلومة

تناول النحويون العرب موضوع « مالا ينصرف من الأسماء » منذ تنبّهوا إلى ما يميز هذا النوع من الكلمات من خصائص صرفية فى الصيغ وخصائص إعرابيه فى التراكيب .

نجد فى « كتاب » سيبويه حواراً بينه وبين أستاذه الخليل حول صيغة « أفْعل » إذا كانت علماً أو وصفاً وتعليل منع صرفهما ، وما يلحقهما من التصغير فتصرفان لأجله[1].

ويثبت ليونس البصرى قولاً فى صرف « لَهْثَل » و « ثَوْلَب »[2].

وينقل رواية للأخفش الأكبر أبى الخطاب فى تذكير كلمة مختومة بألف التأنيث المقصورة[3].

ويذكر توضيحاً للخليل لمعنى « مَثْنَى » و « ثُلاث » وإعرابهما مأخوذاً من قول لأبى عمرو بن العلاء[4].

ويروى عن يونس قول ابن أبى اسحاق وأبى عمرو فى منع صرف العلم المؤنث المنقول من مذكر[5].

---

(١) سيبويه : الكتاب جـ ٢ ص ٢ ط بولاق ١٣١٧هـ . وانظر سائر الباب

(٢) السابق : جـ ٢ ص ٣ وانظر ص ١١ ، ١٣

(٣) السابق : جـ ٢ ص ٣ وانظر ص ١٧ .

(٤) السابق . جـ ٢ ص ٣ وانظر ص ١١ ، ٢٨

(٥) السابق : جـ ٢ ص ٢٣

وينقل رأى عيسى بن عمر فى صرفه أيضاً[٦].

ولابد أن ذلك كان امتداداً لبحث اللغويين من الأجيال السابقة وملاحظاتهم ، وأنه كان مرتبطاً ارتباطاً وثيقاً بالنص القرآنى الذى كان هو الباعث على النشاط اللغوى ، فقد اهتمّ سيبويه كذلك بأن يسجّل قول بعض المفسّرين إنّ قوله عزّ وجلّ : ﴿ اهبطوا مصر ﴾ (البقرة ٦١) بغير تنوين إنما أراد « مصر » بعينها[٦].

ويبدو أن اصطلاح « لا ينصرف » كان قد استقرّ قبل أن يدوّن سيبويه كتابه ، حتى إنّه يستعمله بما يدلّ على ذلك ولم يثبت له حدّاً ولم يصنع ما صنعه فى الأبواب المتقدّمة من الكتاب حيث كان العنوان - أو الترجمة - يستغرق عدداً غير قليل من الأسطر يتضمّن محاولة للتعريف ولا يتضمّن الاصطلاح الذى استقرّ فيما بعد[٧].

بل إننا نجد اصطلاح « صرف مالا ينصرف » فى الأبواب الأولى من الكتاب ففى « باب ما يحتمل الشعر »[٨] نجده يقول : « اعلم أنه يجوز فى الشّعر مالا يجوز فى الكلام من صرف مالا ينصرف ، يشبّهونه بما ينصرف من الأسماء لأنها أسماء كما أنها أسماء » ولم يستشهد لذلك ، فهذا دليل على أنه يستخدم مصطلحاً مستقرّا متداولاً يغنى ذكره عن التمثيل .

وجدير بنا أن ننظر فى معنى « الصرف » فى هذا الموضع من الدرس النّحوىّ . وأول ما يصادفنا فى كتاب سيبويه مما يعين على فهم معنى « الصرف » قوله : « واعلم أن بعض الكلام أثقل من بعض ، فالأفعال أثقل

---

(٦) السابق : جـ ٢ ص ٢٣

(٧) انظر - باب الفاعل الذى لم يتعدّه فعله إلى مفعول ، والمفعول الذى لم يتعدّ إليه فعل فاعل جـ ١ ص ١٣ - ١٤ وهو بوجه عام يتناول الفعل اللازم والفعل المتعدى ، والمبنى للمجهول و « كان » وأخواتها .

(٨) جـ ١ ص ٨ . وانظر قوله : « أكل وأكلب ينصرفان فى النكرة » جـ ١ ص ٦ . وقوله : « أكثر الكلام ينصرف فى النكرة » جـ ١ ص ٧ . وقوله : « وجميع مالا ينصرف ... مما يدخل فى المنصرف » جـ ١ ص ٧ .

من الأسماء ، لأنّ الأسماء هى الأول وهى أشدّ تمكّناً ، فمن ثَمّ لم يلحقها تنوين ولحقها الجزم والسكون ... واعلم أن ما ضارع الفعل المضارع من الأسماء فى الكلام ووافقه فى البناء أُجرى لفظه مُجرى ما يستثقلون ومنعوه ما يكون لما يستخفّون وذلك نحو : أبيض وأسود وأحمر ، فهذا بناء أَذْهَبُ وأَعْلَمُ ، فيكون فى موضع الجرّ مفتوحاً ، استثقلوه حين قارب فى الكلام ووافق فى البناء »(٩).

ثم قوله : « واعلم أن النكرة أخفّ عليهم من المعرفة وهى أشدّ تمكناً ... فمن ثَمّ أكثر الكلام ينصرف فى النكرة »(١٠).

ثم قوله : « واعلم أن الواحد أشدّ تمكناً من الجمع ... ومن ثَمّ لم يصرفوا ما جاء من الجميع على مثال ليس يكون للواحد نحو : مساجد ومفاتيح »(١٠)

ثم قوله : « واعلم أن المذكر أخفّ عليهم من المؤنث ... فالتنوين علامة للأمكن عندهم والأخفّ عليهم ، وتركه لما يستثقلون ، وسوف نبيّن ما ينصرف وما لا ينصرف إن شاء الله »(١٠).

ثم قوله : « وجميع مالا ينصرف إذا أدخلت عليه الألف واللام أو أضيف اجرّ ، لأنّها أسماء أدخل عليها ما يدخل على المنصرف ، وأدخل فيها الجر كما يدخل فى المنصرف ، ولا يكون ذلك فى الأفعال ، وأبنوا التنوين »(١٠).

ثم قوله : « فجميع ما يُترك صرفه مضارع به الفعل ، لأنه إنما فُعِلَ ذلك به لأنه ليس له تمكُّن غيره ، كما أن الفعل ليس له تمكُّن الاسم »(١٠).

من هذه النصوص يمكن أن نفرّق بين أمرين : أحدهما يتصل بصيغة الكلمة ، والآخر يتّصل بحكمها الإعرابى فى بعض التراكيب .

أما ما يتصل بالصيغة فهو أمر التنوين ، وهذا — فى ظنى — هو « الصرف » الذى يعنيه سيبويه : فكل مقارناته التى يرمى من ورائها إلى تعيين « المنصرف » و « غير المنصرف » هى بين صيغ : النكرة فى مقابل

---

(٩) جـ ١ ص ٦ ، وانظر فى الموضوع نفسه : جـ ٢ ص ٢ ، ٤ ، ٦ .

(١٠) جـ ١ ص ٢٧ ، وانظر : جـ ٢ ص ٩ ، ١١ ، ١٣ ، ١٥ .

المعرفة ، والمفرد فى مقابل الجمع ، والمذكّر فى مقابل المؤنّث ، والاسم من حيث هو فى مقابل الفعل من حيث هو ، وصيغة الاسم فى مقابل صيغة الفعل .

فالأطراف الأولى فى هذه المقابلات هى الأمكن والأخفّ وهى التى تستحقّ التنوين ، والأطراف الأخر ليست الأمكن ولا الأخفّ فمُنِعَت التنوين

وأما ما يتّصل بالحكم الإعرابى فهو أنّ مالا ينصرف « يكون فى موضع الجرّ مفتوحاً » « وإذا أُدخلت عليه الألف واللام أو أُضيف انجرّ » يعنى بالكسرة .

أستطيع أن أخلص من هذا إلى أن « الصرف » عند سيبويه يعنى التنوين لا الجرّ بالكسرة . وقد أوضح ذلك فى استشهاده ببيت جرير حيث قال : « وقد قال الشاعر فصرف ذلك ولم يصرفه :
(يعنى العلم المؤنث الثلاثى الساكن الوسط)

لم تتلفّع بفضل مئزرهـــا دعدٌ ولم تُغذ دغـذ فى العُلَـب

فصرف ولم يصرف »[11].

وهذا ما أثبته السيوطى فى « الهمع » فى تقسيمه للتنوين فقد قال فى تنوين التمكين وهو القسم الأول :

« فالصرف هو تنوين التمكين الذى إذا حُرِمه الاسم لمشابهته الفعل قيل : مُنِع الصرف »[12].

وإنْ يكن سبق أن أثبت للممنوع من الصرف تعريفين ، أحدهما : أنه ما سُلِب منه التنوين ، والآخر : انه ما سُلِب منه التنوين والجر معاً[13]. بناء على

---

(١١) ـ ٢ ص ٢٢

(١٢) الهمع ٢/٧٩ طبع السعادة ١٣٢٧هـ . يمكن قراءة « حُرِمه » : جُرِّد منه .

(١٣) السابق : ١/٢٤ .

الاختلاف فى تعريف الصرف » هل هو التنوين ؟ ، أو هو التصرف فى جميع المجارى ؟

وابن مالك فى أول باب « مالا ينصرف » يقول : « الصرف تنوين » ... ويعقب عليه الأشمونى فى شرحه على الألفية بأن : « ما ذكره الناظم من أن الصرف هو التنوين هو مذهب المحققين ، وقيل : « الصرف هو الجر والتنوين معاً » ويبسط الصبان هذا القول ناقلاً عن يس أنه مذهب المحققين لوجوه : منها أنه مطابق للاشتقاق من الصريف الذى بمعنى الصوت إذ لا صوت فى آخر الاسم إلا التنوين ، ومنها أنه متى اضطرّ شاعر إلى صرف المرفوع أو المنصوب نوّنه وقيل صرفه للضرورة مع أنه لا جرّ فيه فأطلقوا على مجرّد تنوينه « صرفاً » .

وقد أوضحتُ رأى سيبويه أن الصرف هو التنوين ، وفصلت ما بين فقْد التنوين ، وهو راجع فى الأساس إلى خصائص صرفية متعلقة بالصيغة ، والجرّ بالفتحة وهو مظهر من مظاهر التغيّر الإعرابى .

ولنا أن نسأل - رغبةً فى المعرفة - عن العلاقة بين هاتين الظاهرتين فقْد التنوين ، والجرّ بالفتحة .

أشير أولاً إلى أن ظاهرة التنوين فى العربية لها نظائر فى عدد من اللغات السامية .

وتقدّم لنا المقارنات اللغوية نماذج من هذه الظاهرة التى يجوز لنا أن نظنّ أنها كانت موجودة فيما يعرف باسم اللغة السامية الأم أى الأصل الافتراضى للّغات الساميّة المعروفة ، وإن تكن قد اتخذت مسارات مختلفة وصوراً غير متطابقة .

وقد اهتمّ دارسو اللغات السامية بعقد المقارنات بينها فيما يتعلق بالظواهر الصرفية والنحوية ، وكان من بين ما نبّهوا عليه وجود ظاهرة التنوين فى العربية وظاهرة مقابلة لها هى ظاهرة التميم - أى وجود الميم بدل النون - فى اللغة العربية الجنوبية القديمة ، وفى اللغة البابلية الأشورية وتعرف بالأكادية - وقد عدّهما بروكلمان علامتين للتنكير ، ورأى أن الميم أصل وأن النون فى العربية

متحوّلة عنه[١٤] ويشير أيضاً إلى وجود تميم في العبرية والحبشية والآرامية في بعض الظروف[١٥].

وقد قدّم رابين خلاصة للاحظات علماء الساميات في دراستهم لهذه الظاهرة ، نعرضها فيما يلي :

● في العربية الجنوبية :

الأسماء المعرّفة بعلامة التعريف وهي النون في آخرها أو التنوين لا يحفها التميم ، وأما الأسماء التي تخلو من علامة التعريف فقد يلحق بعضها التميم[١٥].

ووضّح بيستون[١٦] أن الحالات التي لا يُثبت فيها التميم في اللغة السبئية هي بدائل للصيغ المعرّفة بعلامة التعريف : وقد وقع هذا في الأسماء الآتية :

١ - أسماء الجهات الأصلية الأربع .
٢ أسماء فصول العام .
٣ أسماء الأجناس .

وأضاف جِلْب Gilb - فيما ينقل رابين[١٦] مجموعة أخرى عم ذات التميم في السبئية هي :

٤ الأعلام التي على وزن أفعل .
٥ - الأسماء التي على صيغة صرفية مختومة بالنون (= أي الزائدة) .
٦ بعض صيغ جموع التكسير .
٧ بعض تراكيب العطف بين اسمين .

---

(١٤) [illegible] سنة ١٩٧٠ ، ترجمة د. رمضان عبد التواب ، مطبوعات جامعة الرياض ١٩٧٠ .

(١٥) C. Rabin The Dipiotic Declension, Arabic & Islamic studies In Honour of [illegible] Makdisi, Brill, 1965, p. 553.

(١٦) A.F.L. Beeston A descriptive Grammer of Epigraphic South Arabian, London, 1961, p. 31

٨ الأعلام المركّبة تركيب المزج .
٩ الأعلام التي على وزن يَفْعل .
ثم أضاف مولر إلى كل أولئك :
١٠ الألقاب الإلهية والبشرية .

• في الأكاديّة القديمة :

الأسماء التي لا يلحقها تمييم لها مواقع نحوية واضحة ، منها أربعة تشبه أربع حالات في العربية بدون تنوين (ولكنها ليست ممنوعة من الصرف) وهي : الإضافة الظرفية نفي الجنس النداء[١٧].

وهناك أيضاً بعض الأنواع لا يلحقها التميم ولها خصائص معنوية هي :
١ أسماء الأعلام ، وخاصة المركبة والأجنبية .
٢ أسماء الشهور .
٣ ألفاظ الأعداد والمقاييس .
٤ بعض المركّبات الظرفية .
٥ بعض المركّبات المزدوجة[١٨].

ولكن لا شيء من هذه الأنواع يثبت على حالة الخلو من التميم .

وبالإضافة إلى ذلك نجد في الأكادية صيغاً مُوغلة في القدم تخلو من التميم وتنتهي بفتحة لا علاقة لها بحالة النصب ، وبعض هذه الصيغ تمثل الأعجاز من أسماء مركّبة ، وبعضها أعلام[١٩].

---

(١٧) المقصود هنا : الظروف المبنية ، واسم « لا » النافية للجنس في بعض أحواله ، والمنادى في بعض أحواله .

(١٨) يلاحظ في هذه الأنواع أن بعضها يوافق بعض ما في المجموعة من الممنوع من الصرف وهو : الأعلام المركّبة تركيب المزج ، والأعلام الأعجمية ، وبعضها يوافق بعض ما في المجموعة من المبنيات وهو : الأعداد المركبة ، وبعض الظروف وبعض المركبات مثل : صباح مساء

(١٩) C. Rabin : Ibid. p. 555.

وهنا أذكر أنّ الأكادية كانت تستخدم ثلاث علامات إعرابية كالتى تستخدمها العربية :

الضم للرفع – والفتح للنصب والكسر للجر . ويفترض علماء الساميّات أنّ اللغة السامية الأمّ كان فيها هذا النظام الإعرابى ، وقد بقيت آثار منه فى العبرية والحبشية والآرامية[٢٠].

● فى اللغة العمورية :

ليس فى نقوش اللغة العمورية أسماء غير الأعلام ، ولها ثلاث حالات إعرابية ، ولكن بعض الأسماء بالإضافة إلى كونها معربة لها حالتان أخريان ، إحداهما بدون حركة إعرابية ، وفى الأخرى تنتهى بالفتحة[٢١].

● فى اللغة الأوغاريتية :

يتضح من نقوش اللغة الأوغاريتية أنه قد كان فى تلك اللغة ثلاث حالات إعرابية كلّها بغير تميم . وقد وُجد فيها أربعة أنواع من أسماء الأعلام وقعت مجرورة منتهية بالفتحة ، ثلاث منها تناظر بعض الممنوع من الصرف فى العربية ، وهذه الأنواع الأربعة هى :

١ – الأعلام المختومة بعلامة التأنيث .

٢ – الأعلام المختومة بألف ونون زائدتين .

٣ – الأعلام التى على وزن فَعَل .

٤ – الأعلام والألقاب الخاصة بالمعبودات[٢١].

---

(٢٠) بروكلمان : فقه اللغات السامية ص ١٠٠ – ١٠٦ .

(٢١) C. Rabin : Ibid, p. 556.

• في اللغة الحبشية :

أما اللغة الحبشية فقد ضاعت منها الضمة علامة الرفع ، والكسرة علامة الجر ، ولم يبق سوى الفتحة علامة النصب[٢١].

• في العبرية والآرامية :

ليس في العبرية ولا الآرامية تغيّر إعرابي .

وقد قدّم رابين قائمة بالحالات التي يكون فيها الاسم غير مختوم بالتنوين أو التميم ، أو يكون فيها مفتوح الآخر . ويشمل هذا : الممنوع من الصرف والمبنيّ على الفتح في العربية ، ومن تلك القائمة يتبين وجود الحالتين بشكل غير مركّز في الحبشية ، والأوغاريتية ، والعربية الجنوبية . ويتركّز فقد التميم بصورة واضحة في الأكادية ، وفقد التنوين مع الفتح في العربية[٢٢].

وأشدّ النتائج وضوحاً أنّ في اللغات السامية - سوى العربية - حالات متفرّقة لا يربطها نظام ، يفقد فيها بعض الأسماء التميم لخصائص متعلّقة بالدلالة ، أو الصيغة الصرفية ، أو التركيب النحويّ والصيغة الصرفيّة معاً ، ولكنّ اللغة العربية قد وضعت الخصائص اللغوية الساميّة العامة في نظام متّسق ، واهتمت بالخصائص المتعلّقة بالصيغة الصرفية اهتماماً قوياً في هذا المجال ، وقلّلت من الخصائص المتعلقة بالدلالة[٢٣]. وهذا على النقيض ممّا نلاحظه إذا أوغلنا في التاريخ فإنّ الخصيصة المتميزة لمنع الصرف في البدايات الأولى للّغات السامية بل قد تكون الخاصيّة الوحيدة هي الخاصيّة المتعلقة بالدلالة ، والقسم الرئيسي من الأسماء الممنوعة من الصرف لهذه الخاصية هو أسماء الأعلام[٢٤].

---

(٢٢) C. Rabin : Ibid, p. 559.

(٢٣) C. Rabin : Ibid. p. 559.

وهذا ما أشار إليه الأشموني في شرحه على الألفية بعد أن ذكر العلل التسع لمنع الصرف فقال : « العلمية مع ... العلمية والوصفية ، ومع العدل ... فالعدل والتأنيث والعجمة والتركيب والجمع المتناهي ووزن الفعل وزيادة الألف والنون خصائص لفظية .

(٢٤) C. Rabin : Ibid. p. 560.

وقد استتبعت نظرة هؤلاء العلماء إلى ظاهره فقد التميم والتنوين أن يضموا إلى الممنوع من الصرف بمفهومه فى النحو العربى كلمات أخرى سبقت الإشارة إليها هى فى تصنيف النحو العربى من المبنيات لا من الممنوع من الصرف .

وواقع الأمر أنهم فى ذلك مسبوقون ؛ فقد تناول بعض كتب النحو العربى المتقدمة فى التأليف ظاهرة الممنوع من الصرف وألحقت بها جانباً من المبنيات : من ذلك ما نجده عند سيبويه : فإنه تحت عنوان : « هذا باب ما ينصرف ومالا ينصرف »[٢٥] تناول ما يدخل فى الممنوع من الصرف ثم ألحق به « ما جاء معدولاً عن حدّه من المؤنث »[٢٦] وهو صيغة « فعال » إذا كانت اسم فعل ، أو سباً لمؤنث ، أو وصفاً لمؤنث أو مصدراً ، أو علما لمؤنث ، وهذا كله من المبنيات ، وإنما دعاه إلى ذلك أنّ بنى تميم يعربون « فعال » علماً لمؤنث إعراب مالا ينصرف[٢٧].

ثم تناول الظروف المبهمة غير المتمكنة[٢٨]، وهى من المبنيات ، ثم تناول المركبات المزجية من الأعلام غير المنصرفة . وألحق بها المركبات المزجية كالعدد المركب[٢٩]، وبعض أسماء الأفعال مثل حَيْهَل[٣٠] وبعض الظروف المركبة مثل : يوم يوم ، وصباح مساء ، وبين بين[٣١]. ثم عاد مرة أخرى إلى « مالا ينصرف من الأسماء المعتلة الآخر »[٣٢]، ثم انتقل إلى الحكاية[٣٣].

---

(٢٥) سيبويه : ٢ : ٢

(٢٦) سيبويه : ٢ : ٣٦

(٢٧) سيبويه : ٢ : ٤٠

(٢٨) سيبويه : ٢ : ٤٤

(٢٩) سيبويه : ٢ : ٥٠

(٣٠) سيبويه : ٢ : ٥٢

(٣١) سيبويه : ٢ : ٥٣

(٣٢) سيبويه : ٢ : ٥٦

(٣٣) سيبويه : ٢ : ٦٤

وقد فعل أبو اسحاق الزجاج مثل ما فعل سيبويه ، فقد خصّص كتاباً بعنوان « ما ينصرف ومالا ينصرف »[٣٤] تناول فيه خصائص الممنوع من الصرف ، وإعرابه ، ثم تطرّق إلى المعدول على وزن فَعَال[٣٥] كما فعل سيبويه ، ثم تناول الأسماء المبهمة وهي أسماء الإشارة ومعظمها من المبنيّات[٣٦] ثم تناول الظروف المبهمة وبعض أسماء الأفعال وهي من المبنيّات[٣٧]، ثم المركّبات التي لا تنصرف والمركّبات المبنيّة[٣٨]، وإعراب المنقوص[٣٩] وختم الكتاب بالحكاية[٤٠].

وقد أورد ابن جنى[٤١] مناقشة لقول يرى أصحابه أن البناء خطوة تلي منع الصرف ، لعل صنيع سيبويه والزجاج وابن جنى يشير إلى ما لاحظه علماء العربية من أن منع الصرف والبناء بينهما ارتباط وتماثل فى كونهما مخالفين لحالة الإعراب التي تمثل فى تعاقب العلامات الثلاث

ويمكن[٤٢] أن يُفسَّر جرّ مالا ينصرف بالفتحة إذا تجرّد من الإضافة والتعريف بالحرف بأنّه فى مرحلة من مراحل حياة اللغات السامية كانت هناك أقسام ثلاثة للأسماء :

قسم ينتهي بالتميم أو التنوين ، وآخر بغير تميم أو تنوين ينتهي بفتحة فى جميع الأحوال ، وثالث مفتوح دائما ولكن للفتح فيه وظائف معنوية كالتأكيد فى العربية ، أو وظائف نحوية كالتعريف فى الآرامية والإضافة فى الحبشية ، ثم تلاشى التميم ، ونشأ نظام إعرابى فيه الضم والفتح والكسر بغير تنوين ويقابله

---

(٣٤) بتحقيق هادى محمود قراعه طبع مجمع الأمل للشئون الإسلامية القاهرة ١٩٧١

(٣٥) ما ينصرف ٧٢

(٣٦) ما ينصرف ٧٩

(٣٧) ما ينصرف ٨٧

(٣٨) ما ينصرف ١٠٢

(٣٩) ما ينصرف ١١١

(٤٠) ما ينصرف ١٢٣

(٤١) ابن جنى خصائص ١٧٩/١ ١٨ تحقيق محمد على النجار الهيئة المصرية للكتاب ١٩٥٢

(٤٢) C. Rabin : Ibid, p. 561

ما آخره مفتوح دائماً ، ولكن العربية احتفظت بالتنوين للمعرب وجعلت لبعض ما آخره فتحة علامة الرفع بالضمة فكان ما يُعرف بالممنوع من الصرف .

وبهذا التفسير الذى رجّحه رابين يكون المنع من الصرف ظاهرة عربية محضة يعود تفرُّدها بها إلى أنها تجمع عناصر متعددة لم تجتمع فى اللغات السامية الأخرى ، وإنما هى متوزعة بينها[٤٢] .

وهذا الرأى الذى يجعل المنع من الصرف خطوة فى طريق إعراب ما كان غير معرب بإعطائه علامة الرفع ، ثم بإعطائه علامة الجر فى حالتى التعريف بالحرف والإضافة يصطدم بالتصوّر الذى يُستشفّ من الرأى القائل بأنّ المنع من الصرف خطوة فى طريق سلب التصرّف الإعرابى بحذف التنوين ، ثم بمنع الكسرة فى حالة التجرد من الإضافة والتعريف ، وأنّ البناء هو الخطوة التالية ، وقد سبق أن أشرتُ إلى هذا القول الذى ناقشه ابن جنى .

ويصطدم هذا الرأى أيضاً بما انتهى إليه الاستعمال اللغوى لدى عامّة المتحدّثين والكتّاب بالفصحى من عدم إجراء أسماء الأعلام أيًّا كانت : عربية وأعجمية ، مذكرة ومؤنثة ، ما حقّه التنوين منها وما لا حقَّ له فيه . فكأنما انتهت إلى حالة من البناء على السكون لا هدف منها سوى التخلّص من علامات الإعراب .

فهل اتّجه الاستعمال اللغوى فى خط واحد من الإعراب إلى منع الصرف ثم إلى البناء ؟

أو أنه انعكس بدلاً من أن يتّجه إلى إعراب غير كامل ثم إلى إعراب كامل كما نجده فى صرف مالا ينصرف فى الضرورات فى الشعر ، أو لأسباب بلاغية فى القرآن ؟

د . محمد عبد الله جبر سلومة

عروض الخليـــل
ما لهـــا وما عليهـــا

د. أحمد سليمان ياقوت

العروض لغة الناحية ، وهى مؤنثة[1]، قال الشاعر :

فإن يعرض أبو العباس عنى
ويرجب فى عروضاً عن عروضى[2]

ولهذه سميت الناقة التى تعترض فى سيرها عروضاً ، لأنها تأخذ فى ناحية دون الناحيه التى تسلكها ، وقيل هى مكة والمدينة شرفهما الله تعالى وما حولهما واصطلاحاً : ميزان الشعر ، وسمى كذلك لأن الشعر يعرض عليه ، فيعرف به الموزون من المنكسر ، أو لأنه من ناحية من نواحى العلوم ، أو لأن الخليل ألهم معرفتها بمكة وهو أيضاً اسم للجزء الأخير من النصف الأول (من البيت) سالماً أو معيراً[3].

ولقد اعتمد الخليل بن أحمد فى وضعه عروض الشعر على عنصرين أساسيين العنصر الأول : الحرف المتحرك ، والعنصر الثانى : الحرف الساكن ، ومن هذين العنصرين كون الأسباب والأوتاد ، ومن الأسباب والأوتاد تكونت التفعيلة ، ومن التفعيلات تكون البيت من الشعر ومن الأبيات تكونت القصيدة .

وهذه التسميات مستمدة من البيئة العربية ، يقول أبو بكر الشترينى « وأعلم أن العرب شبهت البيت من الشعر بالبيت من الشعر ، لأن بيت الشعر يحتوى على مافيه كاحتواء بيت الشعر على معانيه ، فسموا آخر جزء فى الشطر الأول من البيت عروضاً تشبيهاً بمعارضة الخباء ، وهى الخشبة المعترضة فى وسطه ، وسمى آخر جزء فى البيت ضرباً لكونه مثل العروض مأخوذاً من

(١) القاموس المحيط جـ ٢ ص ٣٤٦ ماده عرض .
(٢) الأغانى جـ ١٣ ص ١٦٢ ط دار الكتب .
(٣) القاموس المحيط جـ ٢ ص ٣٤٦ ماده عرض وتاج العروس للزبيدى جـ ٥ ص ٤٠

ضرب الذى هو المثل ، وشبهوا الأسباب والأوتاد التى تركب منها بأسباب الخباء وأوتاده لثبات الأوتاد واضطراب الأسباب فى أكثر الأصول بما يعرض فيها من الزحاف والاختلال »[٤].

إذن فالتفعيلة هى الوحدة الأساسية فى نغم الشعر العربى فى عروض الخليل وهى مكونة من عنصرين : المتحرك والساكن فما المتحرك وما الساكن؟

إن هناك اضطراباً كبيراً فى تعريف الساكن والمتحرك ، وهى ترجمة المصطلحين Consonant و Vowel بالإنجليزية Conson و Voyelle بالفرنسية ، وقد فصل الدكتور محمود السعران هذا الاضطراب تفصيلاً لا يحتاج معه إلى إعادة[٥] .

وربما كان هذا الاضطراب فى التعريف ومن ثمّ فى الترجمة راجعاً إلى أن تقسيم الحرف فى كل من الإنجليزية والفرنسية يختلف عنه فى العربية ، فالحرف فى العربية :

(أ) إما أن يكون متحركاً بإحدى الحركات الثلاث : الفتح والضم والكسر مثل الفاء فى كلمة فحم وفرن وينبع .

(ب) وإما أن يكون ساكناً : فلا يأخذ واحدة من هذه الحركات ، بل يمس به خالياً منها كالصاد فى مصطفى ، والسين والخاء فى استخراج .

(جـ) وإما أن يكون من حروف المد وهو ما اصطلح على تسميتها بحروف اللين ، وهى الألف فى مثل ماء ، والواو فى مثل نور ، والياء فى مثل سير .

ولكن التقسيم يختلف فى الإنجليزية فالحرف عندهم :

(أ) إما أن يكون Vowel ، أى حرف مد وحروف المد هى :

U , O , I , E , A

(ب) وإما أن يكون Consonant ، أى لا يمد ، بل يكون له نقطة نطق محددة

(٤) معيار فى أوزان الأشعار لأبى بكر الشنوبى ص ١٢ تحقيق الدكتور محمد رضوان الداية ، بيروت عام ١٩٧٠

(٥) علم اللغة لمحمود السعران ص ٢٦ ـ ٣٢ دار المعارف ١٩٦٢

لا يتعداها ، وعند النطق به يحدث لتيار النفس نوع من الإعاقة أو الإغلاق ثم الإنطلاق[٦].

ومثال ذلك الحرف s والحرف r فى كلمة street والحرف b من الكلمة Subject وعلى ذلك فمن السهل أن نقول إنَّ أصوات اللين عندنا إنما هى vowels ومن السهل أيضاً أن نقول إن المتحرك عندنا هو Consonant مضافاً إليه حركة غير ممدودة أى أن يكون متبوعاً أو قل – مصحوباً بحركة قصيرة (فتحة أو ضمة أو كسرة) مثل كَ ، كِ ، كُ ، ومثل أى جزءين مصطحبين فى الفعل كتب : الكاف مع الفتحة التى تصاحبها أو التاء مع الفتحة التى تصاحبها ، أو الباء مع الفتحة التى تصاحبها .

والسؤال الآن : هل نضع الحرف الساكن عندنا ؟ أى الذى له نقطة نطق محددة (Consonant) كالصاد فى (مصباح) - هل نضعه بإزاء حرف المد vowel أى أنه مساوٍ له ؟ الإجابة المستندة على تعريف هذين المصطلحين تنفى هذه المساواة ، فلقد عرفنا مصطلح الساكن consonant بأنّ له نقطةَ نطقٍ محددة ويحدث لتيار النفس عند النطق به نوع من الإعاقة أو الإغلاق ثم الانطلاق ، فى حين أن الـ vowel بعكسه فهو ممتد مجهور يصدر دون إعاقة لتيار النفس فكيف نساوى بين الصاد وألف المد فى (مصباح) ؟

ولكنا فى هذا المجال مرتبطون بالعروض (Meters) وارتباطنا هذا يجعلنا نجيب عن السؤال السابق بنعم ، ونساوى بين الصاد والألف فى مصباح ، وذلك لأننا فى العروض نساوى بين الساكن والمد من حيث القيمة الصوتية وقد انضبطت جميع تفاعيل العروض على أساس هذه المساواة بحيث إننا لو وضعنا الساكن فى غير موضع الـ vowel لانهدمت التفاعيل كلها من أساسها ، والتفاعيل العروضية مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بانتظام الإيقاع ، واستقامة الموسيقى ، الأمر الذى يؤكد أن الساكن إنما هو فى عداد الـ vowel عروضياً ،

---

(٦) Adictionary Theoretical Linguistics By Elkholi p. 54. Librairie du Liban 1982.

بمعنى أننا إذا رمزنا للمتحرك بشرطة (–) والساكن بدائرة صغيرة كان رمز مصباح[7] (○ ○ –) فتتساوى الصاد مع الألف .

والذى يدل على ذلك أنه من الممكن أن يحل محل كل حرف من حروف المد حرف ساكن ، فمن ذلك قول الشاعر : (من بحر الرمل) :

أضحت الدار قفارا موحشات عافيات دارسات خاليات[8]

إذ نجد أن الضاد الساكنة فى (أضحت الدار) هى ألف فاعلاتن الأولى ونجد أن الواو فى (موحشات) هى ألف فاعلاتن الأولى ، ونجد أن الألف فى (عافيات) وفى (دارسات) وفى (خاليات) هى ألف (فاعلاتن) الأولى والثانية .

وفى قول شوقى :

رقد الثائر إلا ثورة فى سبيل الحق لم تخمد جذاهـا[9]

نجد أن الياء فى (فى سبيل الـ) هى الألف فى فاعلاتن الأولى والثانية ونقول إن ذلك فى العروض ليس غير ، حتى لا يظن أننا نطلق القول بأن الساكن إنما هو من الحروف الصائتة vowel على وجه العموم .

وقد وقع القدماء وبعض المحدثين فى هذا الخطأ ، ألا وهو المساواة بين الساكن وحرف المد ، وكنت أظن أنى أول من تنبه إلى ذلك حتى قرأت كتاب « دراسات فى علم اللغة » للدكتور كمال بشر ، فوجدته قد فصل هذا الموضوع تفصيلاً ، على أنى كنت قد قرأت هذا الكتاب منذ سنوات ويبدو أن أثره العلمى بقى فى ذاكرتى دون أن يبقى المرجع .

---

(٧) الحاء مضمومة دون تنوين .

(٨) من شواهد الكتاب فى العروض والقوافى للتبريزى ص ٨٤ تحقيق الحساني حسن عبد الله . مكتبة الخانجى بالقاهرة ، دون تاريخ

(٩) من الشوقيات جـ ٢ ص ١٧٨ التجارية الكبرى ١٩٢٧ .

لقد عدد الدكتور بشر المواضع التى ساوى القدماء فيها بين الساكن وحرف المد[10] منها :

١ قول الخضرى « إنّ (إذا) مبنية على سكون مقدر منعه السكون الأصلى الذى فى الألف »[11]، فهذا قول صريح بأن الألف فى (إذا) سكون .

٢ قول ابن جنى عن حروف المد فى نحو : دعا وأدعو وأرمى « لا يكنّ إلّا سواكن ، لأنهن مدات ، والمدات لا يتحركن أبداً »[12] مع أن ابن جنى نفسه هو القائل : « اعلم أن الحركات أبعاض حروف المد واللين وهى الألف والياء والواو . فكما أن هذه الحروف ثلاثة ، فكذلك الحركات ثلاث ، وهى الفتحة والكسرة والضمة . فالفتحة بعض الألف والكسرة بعض الياء والضمة بعض الواو . وكان متقدمو النحويين يسمون الفتحة الألف الصغيرة والكسرة الياء الصغيرة والضمة الواو الصغيرة . وقد كانوا فى ذلك على طريق مستقيمة »[13] .

٣ – قاعدتهم المشهورة فى عدم توالى ساكنين فإذا حدث ذلك فلابد من تحريك الأول ، كما فى قوله تعالى : ﴿ إن الكافرون إلّا فى غرور ﴾[14] بكسر نون (إن) ، وأيضاً فى (لم يقل) و (لم يستطع) و (لم يختر) ، فما قبل الحرف الساكن الأخير فى كل هذه الكلمات كان حرف مدٍّ (الواو ، والياء والألف) وهو بمثابة الساكن عندهم فلذلك حذف « أما حقيقة الأمر – كما يراها الدكتور بشر – فهى أن الواو هنا يقصد فى (يقول) – رمز للضمة الطويلة (uu) وليست صوتاً ساكناً ، وفى هذا السياق ، قصرت هذه الضمة فصارت (u) أفقط ... »[15].

(١٠) دراسات فى علم اللغة (القسم الأول) من ص ١٩١ إلى ص ٢٠٤ دار المعارف ١٩٦٩ .

(١١) حاشية الخضرى على ابن عقيل جـ ١ ص ٣٣ الطبعة الميمنة ١٣٠٥هـ .

(١٢) سر صناعة الإعراب جـ ١ ص ٣١ تحقيق السقا وآخرين ط الحلبى ١٩٥٥ .

(١٣) السابق جـ ١ ص ١٩ .

(١٤) الملك : ٢٠

(١٥) دراسات فى علم اللغة ص ١٩٧ .

٤ قولهم فى مثل (لتكتبُنَّ) ان الأصل فيها لتكتبوا نْ نَ (بعد حذف نون الرفع وفك النون المشددة . فتقابل ساكنان : واو المد والنون الأولى الساكنة من النون المشددة فحذفت الواو لكى لا يلتقى ساكنان) .

٥ – قول حفنى ناصف إن من صفات الأصوات المد ، ويختص – أى المد – بالأحرف (و أ ى) الساكنة المسبوقة بحركة بجانسة)[١٦] وقد علق الدكتور بشر على ذلك قائلاً : « ... فكونها مدات يعنى بداهة كونها حركات طويلة ، وذلك يبطل كونها ساكنة ... إما أن هذه المدات مسبوقة بحركات تجانسها فهو وهم آخر لا أساس له من الصحة ، إذ ليست هناك حركات سابقة أو لاحقة (وإنما المدات نفسها هى الحركات) وهى حركات طويلة[١٧].

ويعلل الدكتور بشر لمساواة القدماء بين السكون والمد فى هذه المواضع وفى غيرها مما لم تذكره اكتفاء بما ذكرناه ، يعلل ذلك بقوله : وما سميت هذه المدات سواكن ، على ما نفهم من كلامهم ، إلا لخلوها من علامات الحركات الثلاث (الفتحة والضمة والكسرة القصيرات) وإلا فمن المستحيل تسميتها سواكن على أى وجه فسرت السكون ومعناه[١٨].

... فالواو مثلاً بوصفها رمزاً فى نحو (أدعو) يمكن تسميتها (ساكنة) بمعنى أنها خالية من علامات الحركة القصيرة ، ولكنها بوصفها صوتاً حركة طويلة ويبدو أن علماء العربية قد اعتمدوا على الاعتبار الأول دون الثانى ، ومن ثم كان حكمهم عليها بالسكون ، وأنها مسبوقة بحركة تجانسها هى الضمة مخدوعين فى ذلك بالرسم الكتابى . وقد زاد فى هذا الخداع ما عمد إليه بعضهم من وضع علامة لما ظنوه حركة قصيرة تسبق حروف المد فوضعوا فتحة قبل الألف فى (قال) وكسرة قبل الياء فى (أرمى) وضمة قبل الواو فى (أدعو)[١٩].

(١٦) ... فى الأصوات اللغوية ص ٢١ ، ٢٢ جامعة القاهرة ١٩٥٨

(١٧) ... السابق ص ٢٠٠

(١٨) السابق ص ١٩٥

(١٩) السابق ص ٢٠٢ .

ثم يستخلص الدكتور بشر من ذلك نتيجة مؤداها « أنّ فى هذا النهج اعتماداً على الرموز لا على الأصوات الفعلية فى تقعيد اللغة ، وهو مالم يأخذ به أحد ، لأن الرموز فى عمومها وسائل كتابية ناقصة لا تفى بحاجة النطق فى كثير من الأحيان وأن الاعتماد على الرموز دون الأصوات الحقيقية كثيراً ما يؤدى إلى الخلط والاضطراب ، كما رأينا فى تلك الأمثلة التى أوردناها سابقاً »[٢٠].

إن النفس لتطمئن إلى أنّ هناك فرقاً كبيراً بين الساكن وحرف المد بعد قراءة هذا البحث القيم الذى كتبه د. بشر فى السكون ، ولكن النفس تطمئن أيضاً إلى علاقة المساواة بينهما فى حالة التقسيم العروضى فقط ، وقد بينا ذلك بالدليل المادى عندما قطعنا البيتين اللذين من بحر الرمل منذ قليل ، فالمسألة إذاً – فى حالة العروض – بعيدة عن أن تكون متعلقة بالرموز الكتابيّة ليس غير ، بل هى تجاوزت ذلك إلى جوهر الإيقاع نفسه فى تفعيلات الخليل ، بحيث إننا نهدم تلك التفعيلات هدماً إذا لم نقرّ تلك المساواة .

وربما نستطيع أن نلمح هذه العلاقة - أقصد علاقة المساواة بين الساكن وحرف المد - فى مسألة أخرى ، ألا وهى تعريف المقطع . فهل تصور الخليل المقطع ؟ وهل كان فى ذهنه القصير منه والطويل عندما وضع الساكن مساوياً للمد وعندما قال بالسبب الخفيف ؟ مسائل لا ترقى إلى مرتبة اليقين ، ولكنها تظل مع ذلك احتمالات ربما تثبت صحتها فيما بعد .

فلننظر الآن فى أمر المقطع syllable ، إنه ما كان حرفاً صامتاً Consonant وبعده ضم أو فتح أو كسر خفيف مثل : كُ كَ كِ وهذا هو المقطع القصير .

وأما ما كان حرفاً صامتاً Consonant وبعده حرف من حروف اللين vowel ، أى مد طويل مثل : كا كى كو فهو المقطع الطويل :

Consonant	+	vowel
ك	+	ألف أو واو أو ياء

(٢٠) السابق ص ٢٠٤

ويسمي الدكتور إبراهيم أنيس هذا المقطع بالمقطع المتوسط وليس بالطويل[٢١]. ويضيف صورة أخرى إلى المقطع المتوسط وهي :

حرف صامت	+	صوت ساكن	
ك	+	م	= كمْ

ومثلها كُمْ ، وكِمْ ، فساوى د. أنيس بين كا و كى و كو من ناحية وبين كم و كم و كُم من ناحية أخرى[٢٢]، أى أنّ حرف المد تساوى مع الساكن . ويسمى الخليل كليهما بالسبب الخفيف .

ولابد أن نذكر هنا أن المصطلحين (صائت وصامت) ليسا محدثين فإن أبا نصر الفارابى المتوفى سنة ٣٣٩هـ قد ذكر مصطلح (المصوت) فقال : « والحروف منها مصوت ، ومنها غير مصوت ، والمصوتات منها قصيرة ، ومنها طويلة والمصوتات القصيرة هى التى تسميها العرب (الحركات) . وقد جاء بالهامش : الحركات : المقاطع القصيرة وهى الحرف[٢٣].

ثم يقول : « والمصوتات القصيرة (يعنى المقاطع القصيرة) فإنها لا تمتد مع النغم مادامت على قصرها ، فإذا ساوقت النغمة امتدت حتى لا يفرق بينها وبين الطويلة[٢٤].

ويقول عن المصوتات الطويلة : « والمصوتات الطويلة منها أطراف ومنها ممتزجة عن الأطراف »[٢٤] وجاء بالهامش « أطراف أى ذات اتجاهات

(٢١) إذ أن الطويل عنده ما كان حرفاً صامتاً + مصوت ساكن مثل مَنْ وطول وبيّ . أما (مار) عند أنيس فهو الحرف الصامت والألف حرف المد ، والراء الصوت الساكن فهو (مارْ) ويلاحظ د. أنيس أن هذا المقطع غير مستعمل إلا فى بعض العراق القديمة مثل قول نواس

أحسن بعشتك مصر بالحسن ... وحوته من بعد الروح الأمين
فحبت طهراً بطابك كما ... فضت يطيب أم المؤمنين

موسيقى الشعر ص ١٤٦ والبيتان من اختيارى ، الشوقيات جـ ٣ ص ١٦٣

(٢٢) موسيقى الشعر ص ١٤٥ و ١٤٦

(٢٣) موسيقى الكلم لأبى نصر الفارابى ص ١٠٧٢ دار الكتاب العربى ١٩٦٧ .

(٢٤) السابق ص ١٠٧٤ ، ١٠٧٥

مستقيمة لامتداد المصوتات ، وهي تحريك الألف بالفتح والواو بالضم والياء بالكسر ، وممتزجة عن الأطراف : يعني يمتد الصوت فيها وسطاً بين اثنين من الأطراف الثلاثة ، أو يمتد أكثر إلى أحد الطرفين دون الآخر »[٢٥].

ثم يقول : « وكل حرف غير مصوت قُرن به مصوت طويل فإنا نسميه المقطع الطويل[٢٦] وجاء بالهامش وهو[٢٦] الحرف الممتد مع أحد الأطراف الثلاثة والأمالات الممتزجة فيها » .

وبعد هذا نود أن نقول إن عنصرى التفعيلة عند الخليل هما المتحرك وهو الحرف ذو الحركة الخفيفة غير الممدودة ، وحرف المد vowel وهو صوت اللين (ويتساوى معه فى العروض الحرف الساكن كما بينا) .

وهذه العناصر هي نفسها التى يتكون منها المقطع القصير والطويل كلاهما . وعلى ذلك فإن تقسيم البيت عند الخليل إلى تفعلات كأنه تقسيم إلى مقاطع ولا فرق بين التقسيمين إلا ما سنورده بعد قليل . فالتفعيلة مستفعلن مثلاً تقسم مقطعياً وكذلك حسب عروض الخليل على النحو الآتى :

مستفعلن = مس + تف + ع + لن

ـ ـ ـ ـ ـ ـ ـ ـ

مقطع طويل + مقطع طويل + مقطع قصير + مقطع طويل

والتفعيلة :

مفاعيلن = م + فا + عي + لن

ـ ـ ـ ـ ـ ـ ـ ـ

مقطع قصير + مقطع طويل + مقطع طويل + مقطع طويل

---

(٢٥) السابق ص ١٠٧٣ .

(٢٦) السابق ص ١٠٧٣ .

والتفعيلة :

فاعلاتن = فا + عِ + لا + تن

٥ – + ٥ – + ٠ + ٥ ٠ ٥ – ٥ – – ٥ –

مقطع طويل + مقطع قصير + مقطع طويل + مقطع طويل

وهكذا إلى آخر التفعيلات ، ومن ثمَّ فإن قول د. أنيس : « حين يبحث الأوربيون أوزان الشعر يتخذون عادة ما يسمى بنظام المقاطع في البيت أساساً لهذا البحث ، ونظام المقاطع قد يفضل ما جرى عليه أهل العروض من تحليل البيت إلى تفاعيل ، وذلك لأن المقطع - كوحدة صوتية - يشترك في جميع اللغات ، وله أساس علمي يعرض له علم الأصوات Phonetics فيحلل كل كلام سواء كان نثراً أم[٢٧] شعر إلى مقاطع صوتية يختلف نظام توالبها وأنواعها باختلاف اللغات في العالم »[٢٨] .

هذا القول فيه نظر ، فليس هناك مفاضلة بين تفعيلات العروض وبين المقاطع ، فمن الممكن أن تقسم التفعيلات إلى مقاطع كما بينا .

وإذا كانت هناك مفاضلة ، فإن تفاعيل العروض تفضل عندي نظام المقاطع ، وذلك في تقسيم الشعر ليس غير ذلك أن نظام المقاطع يقسم البيت إلى تقاطيع ليس غير ، دون إعطائه نغماً موسيقياً معيناً يعرف به (وهو ما يسمى بالبحر) بعكس التفاعيل ، فإن كل تفعيلة تجمع عدداً معيناً من المقاطع لكي تُكوّن نغماً أو لحناً متميزاً عن غيره ، وذلك باختلاف عدد المقاطع التي تجمعها كل تفعيلة . ولنقارن بين تقطيع بيت عروضياً وبين تقطيعه مقطعياً لنرى أيهما أوقع في الأذن وأحلى نغماً وأضبط إيقاعاً ، ولنأخذ بيت المتنبي :

ملومكما يجل عن الملام ووقع فعاله فوق الكلام

فتقطيع الخليل : ملومكما يجل عن ل ملام

مفاعلتن مفاعلتن فعولن

(٢٧) في الأصل (أو)

(٢٨) موسيقى الشعر ص ١٤٤

ووقع فما له فوق لـ كلام
مفاعلتن مفاعلتن فعولن

وتجزئة إلى مقاطع (وليكن الشطر الأول فقط) :

م + لو + م + ك + ما + بـ + جل + ن + ع + بل + م + لا + مى
م ق + م ط + م ق + م ط + م ق + م ط + م ق + م ق + م ط + م ق + م ط + م ط

(م ق مقطع قصير ، م ط = مقطع طويل)

من الواضح أن التقطيع الأول أحلى نغماً وأيسر حفظاً ، ويدل على عبقرية الخليل فى جمعه عدداً معيناً من المقاطع لكى تنتج منها تفاعيل متساوية فى البيت ، هى التى تؤثر فى الأذن وتثير النغم والإيقاع فيها (والايقاع هنا بمعنى الانتظام المتكرر للنغم أو اللحن (Rythm) . ثم إنه ليس ببعيد عنا أن الخليل قد أطلق مصطلح السبب الخفيف على ما يسمى بالمقطع الطويل .

ومما يدل أيضاً على أن تفاعيل العروض تفضل المقاطع أن التفاعيل هذه قد ارتبطت بالموسيقى عند كثير من أعلام العرب ، بعكس المقاطع فهى تستعمل فى الشعر والنثر على السواء ، أو قل هى تصلح أن تكون المكونات الأساسية للشعر والنثر كليهما .

ومن هؤلاء الأعلام الذين قرنوا الموسيقى بعروض الخليل أبو نصر الفارابى فى كتابة الموسيقى الكبير[٢٨] ، ويذاكر الدكتور شوقى ضيف[٢٩] - من هؤلاء الاعلام - أبا الفرج الأصفهانى وأبا العلاء المعرى والمسعودى .

فأما الأول فقد ذكر فى مقدمة كتابه الأغانى أنه جمع من الأغانى قديمها وحديثها ونسبها إلى قائلها وبين تفسير المشكل وعلل الإعراب وذكر أعاريضها

(٢٩) فصول فى الشعر ونقده ص ٢٩ وقد ذكر د. شوقى ضيف هؤلاء الأعلام وكتبهم ولكنه لم يذكر الصفحات المقتبسة عنها ولا أرقام الصفحات بطبعة الخانجى

التى توصل إلى معرفة تجزئته (أى الشعر) وقسمة ألحانه[٣٠] .

وأما الثانى فقد ذكر فى كتابه الفصول والغايات الطرائق الثانى لألحان المزهر (العود) وقربها بتفاعيل العروض فمن هذه الطرائق الثقيل الأول وايقاعه ثلاث فقرات متساويات الأقدار على مثال مفعولن :

(مف) فقرة ، (عو) فقرة ، (لن) فقرة ، والثقيل الثانى : ثلاث فقرات اثنتان متساويتان والثالثة ثقيلة وزن مفعولان مف + عو + لان[٣١] .

وأما الثالث فقد أورد فى كتابه (مروج الذهب) محاورة بين المعتمد وابن خرداذابة يقول فيها ابن خرداذابة : « إن منزلة الإيقاع من الغناء بمنزلة العروض من الشعر[٣٢] ثم يمضى بعد ذلك شارحاً العلاقة بين الإيقاع أو الطرائق فى الغناء وبين بحور الشعر العربى .

هذا بالإضافة إلى ما لاحظة أستاذنا الدكتور رمضان عبد التواب فى كتب اللغة والأدب جميعاً عندما تورد بيتاً أو بيتين من الشعر أو قصيدة كاملة ، فقد لاحظ أنّ هذه الأبيات تكون مسبوقة بجملة (أنشد فلان) ولم يُستعمل فعلٌ آخر مثل (ألقى) أو (قال) أو (ذكر) . فهل لاستعمال الفعل (أنشد) دون غيره قصد معين ؟

نعم لأن الإنشاد هنا ليس مجرد إلقاء ، بل هو إلقاء منغّم بطريقة معينة . وهذه الطريقة لم تزل مجهولة حتى الآن وربما يكشف عنها البحث العلمى مستقبلاً .

ولابد من القول بأن النبر stress لا يصلح أن يكون قاعدة أو أساساً لتنغيم الشعر ، بل إن المقطع أو وحدة التفعيلة هى الأساس فى ذلك ؛ ذلك لأن

(٣٠) الأغانى جـ ١ ص ٥ دار الكتب ١٩٢٧ بتصرف .

(٣١) الفصول والغايات فى تمجيد الله والمواعظ ص ٨٨ ، ٨٩ تصحيح وتخريج حضرة محمود رياض مطبعة حجازى بالقاهرة ١٩٣٨

(٣٢) مروج الذهب للمسعودى الجزء الثانى ص ٥٩١ دار الكتاب اللبنانى بيروت ١٩٨٢

تعريف المقطع أو وضع حد للتفعيلة شيء مضبوط مقنن لا يختلف فيه اثنان ، في حين أن النبر مجهود صوتي يرجع إلى القارىء أو المنشد ، وله حرية اختيار وضعه في أكثر من جزء من أجزاء الكلمة ، الأمر الذي يتيح لكل شاعر أن يتصور تنغيم بيته كما يشاء ، وأن يخلق إيقاعه الخاص والفردي بدلاً من أن يرتدي زياً موحداً[٣٣].

ولقد نادى الشعراء الفرنسيون الرمزيون باتخاذ النبر أساساً للتنغيم ، ولكن سرعان ما فشلت هذه التجربة ، لأن الفرنسيين يحبون اتخاذ القواعد ويهتمون بالبناء المنظم بالإضافة إلى أنّ اللغة الفرنسية لا تكاد تنطوي على وجوب رفع النبرة عند أجزاء معينة من بعض الألفاظ في سياق العبارة مما لا يكفي لإرساء قواعد عروضية على هذا الأساس[٣٤].

وأهم من هذا أن النبر في الفرنسية يكون في أغلب الأحيان على المقطع الأخير من الكلمة أي على عناصر تكوينية (لواحق) ويبقى الجزء الأصل من الكلمة غير منبور[٣٥] فالنبر في الكلمات الآتية على ما تحته خط منها :

Monsieur Dormez Approchez

فإذا ما وصلت كل كلمة من هذه الكلمات بكلمة أخرى انتقل النبر ليكون في الكلمة الأخيرة :

Monsieur Jean Dormez bien Approchez- vous[٣٦]

هذا التحديد لمواضع النبر مما يضيق الشاعر أو الناطق للشعر في اختياره للمواضع التي يريدها هو .

(٣٣) مجلة الشعر ص ٣٧ العدد العشرون أغسطس ١٩٦٥ . مقال للدكتور جان كوهين ترجمة الدكتور أنور لوقا .

(٣٤) السابق ، وفصول في الشعر ونقده للدكتور شوقي ضيف ص ٣٠ دار المعارف ١٩٧١ .

(٣٥) اللغة لفندريس ترجمة الأستاذين الدواخلي والقصاص ص ٨٨ الانجلو ١٩٥٠ .

(٣٦) Prononciation Francaise, Monique Leon, p. 2,3 Librairies Hachette et Larousse 1964.
ولابد من القول بأن هناك تلميحات في اللغة الفرنسية يتحدد فيها النطق بالنبر تحديداً لا مجال فيه لاختيار المتكلم وله ثلاث أنواع accent aigu نبر حاد ، accent grève نبر غليظ أو خشن fête, prève, société lese نبر خفيف مثل circonf

على أن استعمال النبر أو قل استغلاله ، لإقامة الوزن العروضى لم يكن بعيداً عن ذهن الشاعر العربى ، وقد فطن إليه النقاد العرب حينما قالوا بالمد أو بالمط فى الحركات أو التقصير فيها ، وقد يكون النبر غير متعلق بالمد أو التقصير فى الحركات ، وقد يكون متعلقاً بهما[٣٧] ولكن يجمع بينهما فى هذا المجال أنهما تنغيم اصطنعه الشاعر لكى يقيم الوزن العروضى دون ارتباط بمقطع ، أو وحدة تفعيلة ، وهذا يدل عندهم على ضعف الشاعر يقول الجاحظ : « العرب تقطع الألحان الموزونة على الأشعار الموزونة ، والعجم تمط الألفاظ فتقبض وتبسط حتى تدخل فى وزن اللحن فتضع موروناً على غير موزون »[٣٨]. غير أنى لاحظت أن بعض شعراء العرب قد تسلك هذا المسلك أيضاً فمن ذلك قول الشاعر

أنى إذا ما على الكلكال ... باقا ... [٣٩]

فقد مد فى حركة الكاف الثانيه فى العروض حتى يستقيم التفعيله الثالثه من السريع على (مفعولن)

وأوضح من ذلك قول الشاعر

... بإنه مثل الفنيق المكدم[٤٠]

فلقد أطال حركة الباء فى (يباع) حتى يستقيم التفعيله الأولى من الكامل (يباع من) على (متفاعلن) تسكين التاء

(٣٧) ... علاقة المد أو التقصير فى الحركات ... ى ... من ...) ... (يعطى انحراف الصائت Vowel ... فى مقطع من مقاطع الكلمة ... فى ... الصائت ... على الصوت ... أخرى ... Adictionary of Theoretical. P 268 ... (مقطع أو فى كلمة يسمه طول الصوت ...) ... (مفتاح العين) عليه اللغة ص ٢٠٦ ... ١٩٦٣

(٣٨) ... ٢ ص : ٣

(٣٩) الإنصاف لأبى الأنبارى ص ... تحقيق محمد محيى الدين ... ١٩٥٣

(٤٠) الإنصاف ص ١٦ وصدر البيت ... القيروانى ص ١٢٨ تحقيق ... سلام ... محمد ... ١٩٧٣

وكذلك قول الشاعر :

ألا هل أتى فتيان قومي جماعة بما لطمت كف الفتاة هجينها[٤١]

فإن (ما) استفهامية ومع ذلك مدَّها الشاعر حتى تستقيم تفعيلة الطويل (بمال) على فعول

وعندما قال الشاعر :

حتى إذا ما لم أجد غير السرى كنت أمرءا من مالك بن جعفر[٤٢]

نجده قد خفف السرىّ (بتشديد الياء) وجعلها (السرى) أو بتعبير آخر حذف النبر أى الشدة فى التلفظ فى حرف الياء ، وذلك حتى يستقيم عروض البيت (غير السرى) على مستفعلن .

ونلاحظ أيضاً أن هذا التغيم المصطنع يؤتى به فى بعض البحور التى يصيب حشوها بعض الزحافات . من ذلك مثلاً بيت البحترى .

صنت نفسى / عما يدنـ / ـس نفسى /
فاعلاتن مستفعلن فعلاتن
وترفعـ / ـت عن جدا / كل جبس
فعلاتن متفعلن فاعلاتن

إذ نجد أنفسنا عند تقطيع البيت على (فاعلاتن مستفعلن فاعلاتن) مضطرين إلى أن نمُدَّ أو نمط أول التفعيلة الثالثة من الشطر الأول (العروض) وهى (نفسى) بجعلها (فى) حتى تستقيم على (فا) من فاعلاتن . كذلك الحال فى التفعيلة الأولى من الشطر الثانى (وترفعـ) نجد أنفسنا مضطرين إلى أن نمد الواو (وا ترفعـ) حتى تستقيم على (فا) من فاعلاتن . إلا أن هذا المد أو المط محدد فى كل البحور بمواضع معينة بينهما الخليل ، ولم

(٤١) ديوان الشنفرى ص ١٨

(٤٢) صرائر الشعر للقزاز القيروانى ص ١٢٢ والموشح فى مآخذ العلماء على الشعراء للمرزبانى ص ٤١٤ ط السلفية ١٣٤٣هـ .

يتركها مائعة لكل من يريد أن ينظم شعراً دون أن يقدر على ذلك فيضطر إلى التنغيم الخاص به وحده .

وهذا التحديد لم يكن من صنع الخليل ، بل كان من اكتشافه ، وفرق كبير بين الحالتين واكتشاف الخليل له كان مبنياً على استقراء أشعار كثيرة للعرب من قبله ولمن عاصره . وهذا يظهر عبقرية هذا الرجل ورفاهة حسه الموسيقى ، إذ إنه فرّق بين ما يجوز أن يدخل البحور من هذه (الهنات) الموسيقية الخفيفة التى لا تكاد تؤثر فى سياق البيت الموسيقى ، وبين (الكسرات) التى تحدثنا عنها فى الأبيات :

أقول إذ خرَّ على الكلكال .....
و ينباع من ذفرى غضوب جسرة .....
و حتى إذا ما لم أجد غير السرى .....

ومما يظهر عبقرية الخليل أيضاً أنه عندما قام بعملية الاستقراء الواسعة لشعر سابقيه ومعاصريه نتج له من الصور المختلفة للأوزان ما يزيد على الثمانين ، فبحر الطويل مثلاً له ثلاث صور والبسيط له سبع صور ، والكامل له تسع صور ..... الخ وذكر هذه الحقائق فيه تجاوز فى التعبير ، لأن الخليل عندما بدأ عملية الاستقراء لم يكن فى ذهنه أسماء هذه البحور ، ولم يكن فى ذهنه – أو لم يكن معروفاً على وجه العموم – أن هذه الصور إنما هى مجموعات ، وكل مجموعة تعزى إلى بحر واحد .

ولنا أن نتصور بعد ذلك أن الخليل بن أحمد قد جمع حوالى ثمانين صورة ، وحصر فيها الشعر الذى قيل ، وفى هذا جهد ما بعده جهد ثم إنه – وهذا هو الأهم والأكثر مشقة – بثاقب نظره ورفاهة حسه الموسيقى – هذه الصور استطاع أن يرجع إلى خمس عشرة صورة (خمسة عشر بحراً) ليس غير ، بأن وضع أصلاً للبحر، ثم ضم إليه كل الصور التى تنتج بعد حذف ساكن أو تسكين متحرك أو حذف متحرك أو حذف ساكن السبب الخفيف ثم إسكان متحركه أو ..... إلى آخر ما أطلق عليه الخليل الزحافات والعلل ، وأعطى كل

تغيير اسماً معيناً وهذا يدل على صبره وجلده ورجاحة عقله وحسه الموسيقى المرهف .

ومن ثم فإن الزحافات والعلل كانت تخفيفاً ولم تك تعقيداً ولا تشويشاً كما يقول بعض منتقدى الخليل[٤٣] لأنها يسرت للمتعلمين – وللناس على وجه العموم حفظ خمسة عشر لحناً ليس غير ، وعدت كل ما خرج عن هذه الألحان فرعاً لواحد منها ، ولولاها لكان كل فرع من هذه الفروع أصلاً بذاته ، على أنه ينبغى لنا أن نكرر القول بأن هذا الخروج لا تعدى تسكين متحرك أو حذف ساكن أو حذف متحرك مِمَّا يعد من (الهنات) الموسيقية الخفيفة التى لا تؤثر فى انتظام الإيقاع .

الإيقاع إذن أو الانتظام اللحنى الموسيقى هو الذى جعل الخليل يرجع صورة من صور التقسيم العروضى إلى بحر معين (لحن معين) من البحور ولا يرجعها إلى بحر آخر .

ولنأخذ مثالاً على ذلك هذا البيت :

ألم تسأل القوم عن حمزة وعن ضربة السيف والغمزة[٤٤]

إنّ هذا البيتَ يقطع على :

ألم تســـ	ـأل لقـــو	م عن حمـــ	زة
فعولـــن	فعولـــن	فعولـــن	فعل
وعن ضـــر	بة ســـيـ	ـف والغمـــ	زة
فعولـــن	فعولـــن	فعولـــن	فعل

ويقطع أيضـاً على :

ألم تســـ	ـأ لقوم عن	حمـــزة
مفاعيـــل	مستفعلـــن	فاعلـــن

(٤٣) د. بروين خانلرى فى كتابه « أوزان الشعر الفارسى » ص ٨٨ ترجمة الدكتورين محمد نور الدين وعبد النعيم حسنين . الأنجلو ١٩٧٨ .

(٤٤) الكافى فى العروض والقوافى للتبريزى ص ١٣٢ تحقيق الحساني حسن عبد الله الخانجى ١٩٧٧ .

وعن ضربـ ـة سيف ولـ غمـزة
مفاعيـل مستفعلن فاعلن

ويقطع أيضاً على :

ألم تـ أل لقوم عن حمزة
فعولن مفاعيل مستفعلن
وعن ضر بة سيف ولغمزة
فعولن مفاعيل مستفعلن

ولكن من الواضح لكل ذى أذن موسيقية أن الصورة الأولى هى صاحبة الإيقاع المنتظم الذى يتولد فيه اللحن السوى الذى لا (نشاز) فيه . ومن المؤكد أن الخليل قد تعرض لهذه الصور جميعاً واختار الأولى وأرجعها إلى المتقارب ، وعلل ذلك فقس الأبيات كلها فى الشعر كله الذى استقراه الخليل ، وتخيل معى عدد الصور الناتجة عن هذا الاستقراء وكيف أن الخليل بحسه الموسيقى قد أرجع كل صورة إلى ما يناسبها - لا أقول من الأصول إذ إن الأصول لم تكن قد وضعت بعد بل إلى غيرها من الصور المتناسبة معها فى الإيقاع حتى كون خمس عشرة مجموعة كل مجموعة فيها عدد من الصور ، فالمجموعات هى البحور ، والصور هى ما دخل على هذه البحور من هنات موسيقية[٤٥] خفيفة لا تؤثر فى الأذن ، وهى الزحافات والعلل . إن البحث العلمى يقتضى ألا نقدح فى الذم ولا نبالغ فى المدح ولكنى أرانى مضطراً إلى القول بأن هذا يعد عبقرية من الخليل قل أن توجد فى غيره .

ويضع المرحوم الدكتور إبراهيم أنيس نظاماً للتقسيم العروضى للبيت ويسميه (مولد مشروع)[٤٦] ولا نستطيع أن نقول أنه نظام مغاير لما وضعه الخليل إذ إنه يقوم أيضاً على نظام التفعيلات ، فهى مبنى على ما بناه الخليل ولكن

(٤٥) ومن ثم فإن هذا يعد رداً على من قال بأمثلة أخرى أو تفاعيل أخرى غير تلك التى وضعها الخليل وذلك كما فعل أبو العباس عبد الله بن محمد الناشئ الأصغر المعروف بابن شرشير الشاعر المتوفى ٢٩٣هـ (وفيات الأعيان لابن خلكان جـ ٣ ص ٩١ تحقيق إحسان عباس بيروت ١٩٦٨ وانظر أيضاً أوزان الشعر الفارسى أوزن ص ٩٢ للدكتور پرويز خانلرى الأنجلو ١٩٧٨ .

(٤٦) موسيقى الشعر ص ١٣٧ وما بعدها الأنجلو ١٩٥٢ .

الدكتور أنيس غير من نظام هذه التفعيلات ، وألغى بعضها ، ولنعرض ، لما فانه معلقين عليه .

يرى الدكتور أنيس الاكتفاء بثلاث تفاعيل ليس غير ، هذه التفاعيل هى : فعولن فاعلن ، مستفعلن . ويرى - رحمه الله - أن هذه ميزة تعين الطالب على حفظ هذه التفعيلات الثلاث بدلاً من التفعيلات التى وضعها الخليل وعددها عشر . ولكن الدكتور أنيس يرجع فيزيد هذه التفعيلات ثلاثا أخريات بعد أن يضيف سبباً خفيفاً (مفطعاً طويلاً) إلى كل من التفعيلات الثلاث السابقات فيصبح عددها ستا وهى :

فعولن	فاعلن	مستفعلن
فعولاتن	فاعلاتن	مستفعلاتن

ثم يبدأ فى تقسيم البحور حسب هذه التفعيلات على النحو الآتى :

(١) الطويل : فعولن + فعولاتن + فعولن + فعولاتن
(٢) المتقارب : فعولن (أربع مرات)
(٣) البسيط : مستفعلن + فاعلن + مستفعلن + فاعلن
(٤) الرجز : مستفعلن (ثلاث مرات)
(٥) السريع : مستفعلن + مستفعلن + فاعلن
(٦) المنسرح : مستفعلاتن + مستفعلن + فاعلن
(٧) الخفيف : فاعلاتن + مستفعلن + فاعلاتن
(٨) المجتث : مستفعلن + فاعلاتن
(٩) الرمل : فاعلاتن + فاعلاتن + فاعلن
(١٠) المديد : فاعلاتن + فاعلن + فاعلن

وواضح أن هناك ستة بحور لم يذكرها د. أنيس ، وهو يعلل لذلك بأنه أهمل المتدارك ، لأن الخليل لم يتناوله ، وأهمل أيضاً المقتضب والمجتث ، لأن العرب لم تقل شعراً على مثالهما ، يبقى بعد ذلك ثلاثة بحور وهى الوافر والكامل والهزج ، ويبرر لتركه إياها بعبارة غامضة وهى :

« والذى يجمع بين هذه البحور الثلاثة تلك الظاهرة القليلة الشيوع فى البحور الأخرى ، وهى أنها تشتمل فى توالى مقاطعها على مقطعين قصيرين متواليين ، الأمر الذى يندر أن نراه فى الأوزان الأخرى »[٤٧].

ولقد وضحنا المقصود بالمقطع القصير والمقطع الطويل ، ومن ثم فإن القول بتوالى مقطعين قصيرين فى الكامل والوافر صحيح :

متفاعلن : م (مقطع قصير) + ت (مقطع قصير) ' فا (مقطع طويل)
ع (مقطع قصير) ' لن (مقطع طويل)

مفاعلتن : م (مقطع قصير) + فا (مقطع طويل) ' ع (مقطع قصير)
ل (مقطع قصير) + تن (مقطع طويل)

ولكن الهزج لا تتحقق فيه هذه الظاهرة .

مفاعيلن : م (مقطع قصير) + فا (مقطع طويل) + عيه (مقطع طويل)
لن (مقطع طويل)

فليس فيه مقطعان قصيران متواليان . ثم نسأل بعد ذلك ما علاقة وجود مقطعين قصيرين متواليين فى تفعيلة بعدم انتظام هذه التفعيلة فى قاعدة ما ؟ ثم ماذا نفعل فى هذه البحور الثلاثة وهى من البحور التى قيل على مثالها شعر كثير لا يحصى ؟ يجيب الدكتور أنيس عن هذا السؤال قائلاً :

« فإذا نحن أتينا إلى الأبحر الثلاثة وهى (الكامل والوافر والهزج) وجدنا أنها تنتهى آخر الأمر إلى نفس التفعيلات التى استنبطناها هنا . انظر مثلاً إلى تفعيلة البحر الكامل كما ذكرها أهل العروض تجدها (متفاعلن) وتجد أنها تصير فى غالب الأحيان (مستفعلن) كذلك حين نفكر فى تفعيلة بحر الوافر (مفاعلتن) نجد أنها تصير فى غالب الأحيان (مفاعلتن) (بتسكين اللام) ، وهذه هى نفس التفعيلة (فعولاتن) . أما الهزج فهو شبيه بمجزوء الوافر ، ويمكن أن نذكر له الوزن الآتى :

(٤٧) موسيقى الشعر ص ١٣٨

فعولاتـــن + فعولاتـــن[٤٨]

وواضح أن قوله هذا فيه مآخذ ، فتفعيلة الكامل (متفاعلن) لا تصير فى أغلب الأحيان (مستفعلن) ، بل إنها تصير كذلك فى بعض الأحيان بدخول الإضمار عليها . فماذا نفعل فى باقى الأحيان ؟

وكذلك القول فى مفاعلتن ؛ تسكن اللام (أى يدخل عليها العصب) فتصير مفاعلتن وتقلب إلى مفاعيلن ، وهذا يجىء فى بعض الأحيان وليس فى غالبها .

أما الهزج « فكلام الدكتور أنيس عنه صحيح ، ولا أدرى لِمَ لَمْ يدخلْه فى عداد التفعيلات التى وضعها ؟

على أننا نقول بعد ذلك إن د. أنيس لم يخترع نظاماً مغايراً لنظام الخليل ، بل هو سار على دربه ، ولم يفعل شيئاً غير أنه حذف تفعيلات وغيَّر أخرى ، وحذف أسماء العلل والزحافات ، وتمسك بجوهرها فلقد كتب ما يزيد على ثلاث صفحات فيما يصيب كل تفعيلة من التغير إنْ نقصاً وإن زيادة ، ومع ذلك لم يسلم مشروعه من المآخذ – والذى يبرر ذلك كله عند صاحبه « أنه مولد مشروع لم تكمل كل نواحيه »[٤٩] .

ويتهم عروضى محدث (وهو د. كمال أبو ديبة) الخليل بن أحمد بأنه جانب المنهج العلمى السليم ، وأنه فرض مفاهيم مسبقة التصور على التراث ، وأنه يجب علينا لكى نعيد اكتشاف التراث أن تتحقق هذه العودة فى إطار مفاهيم ذهنية جديدة نحاول جاهدة أن تكون انعكاساً أميناً للوجود الفعلى للحقيقة التاريخية ذاتها[٥٠] .

وهو اتهام باطل للخليل ، وهو برىء منه البراءة كلها ، فالخليل – كما نعلم – قد قام بعملية استقراء واسعة لما قيل فى عصره ، ولما قيل قبل عصره من

(٤٨) السابق ص ١٤٣ .

(٤٩) موسيقى الشعر ص ١٣٨ .

(٥٠) فى البنية الإيقاعية للشعر العربى د.كتور كمال أبى ديبة . أسفل ص ٣١ وأعلى ص ٣٢ « بتصرف وبحذف ألفاظه » دار العلم للملايين . بيروت ١٩٧٤ .

شعر حتى استطاع أن يضع القواعد العروضية التى ندرسها الآن .

ومبعث هذا الاتهام عند قائله أن هناك قصيدة أو اثنين أو ثلاث قصائد لا تخضع لقواعد الخليل ، وكان يجب عليه عند وضع قواعده انطباق هذه القواعد عليها ، بحيث لا تكون خارجة عنها .

وعندى أن الحق يقضى بأن نشكر الخليل على ذلك ، فمن جملة الأشعار الهائلة التى استقراها استطاع أن يضع قواعده واستطاع أيضاً أن ينحى جانباً هذه القصائد (الشاذة) ، وعددها لا يتعدى عدد أصابع اليد الواحدة فربما قالها أصحابها عابثين هازلين « فإن نفس هؤلاء الشعراء الذين رويت عنهم تلك القصائد المضطربة فى وزنها روى عنهم قصائد كاملة مستقيمة فى وزنها وقوافيها »[٥١].

وليس من المنهج العلمى السوى أن نهمل كل الشعر الذى قيل ونأخذ بعين الاهتمام قصيدة أو قصيدتين أو ثلاث قصائد، طالما أن الشعر كله عدا هذه القصائد ينضوى تحت قاعدة واحدة ، بل إن الخليل كان دا فضل عندما استبعد هذه القصائد حيث إنها تُعد كسراً للنغمة الموسيقية .

وقد ذكر د. شوقى ضيف هذه القصائد المضطربة الوزن التى لا تستقيم مع عروض الخليل[٥٢] « فمنها قصيدة عبيد بن الأبرص الأسدى :

أقفر من أهله ملحـــوب فالقطبيـــات فالذنـــوب

فهى من مخلع البسيط ، وقلما يخلو بيت منها من حذف فى بعض تفاعيله أو زيادة »[٥٣].

« وعلى غرارها قصيدة تنسب لأمرىء القيس مطلعها :

(٥١) العصر الجاهلى للدكتور شوقى ضيف . دار المعارف ١٩٦٠ ، وهؤلاء الشعراء هم عبيد بن الأبرص وامرؤ القيس ... وسنذكر مطالع قصائدهم بعد قليل .

(٥٢) العصر الجاهلى ص ١٨٤ و ١٨٥ .

(٥٣) البيت من ١٨٤ والقصيدة فى ديوان عبيد بن الأبرص مع ديوان عامر بن طفيل ص ٥ تحقيق سير تشارلز ليال . بمبئى ١٩١٣ .

عينـــاك دمعهـــا سكـــان كأن شأيبهـــا أوشـــال »[٥٤]

«ومثلها فى هذا الاضطراب قصيدة المرقش الأكبر :

هل بالديـار أن خبب صمـــم لو كان رســـم ناطقاً كلـــم

فهى من وزن السريع ، وخرجت شطور بعض أبياتها على هذا الوزن[٥٥]

« وعلى هذه الشاكلة قصيدة عدى بن زيد العبادى :

تعرف أمس من لميـس الطـــلل مثـل الكتـاب الدارس الأحـــول

فهى من وزن السريع وخرجت بعض شطورها على هذا الوزن[٥٦] .

ويرى الدكتور الصعيدى أن هذه القصائد تمثل المرحلة الأولى للشعر الجاهلى حيث كان مضطرباً فى أوزانه وقوافيه ، ولم يكن يجرى على بحر واحد ، وذلك قبل الصورة التى نراه عليها منتظماً فى أوزانه وقوافيه جارياً على نسق موسيقى واحد . يقول ضارباً المثل بمجمهرة عبيد « فمن آثار ذلك الشعر مجمهرة عبيد بن الأبرص ، وهو شاعر قديم من أوائل الشعراء الجاهليين ، قد أدرك أولية الشعر الجاهلى ، وتشبث ببعض آثارها ، وبقى محافظاً عليها فى شعره ، وقد كان معاصراً للمهلهل وامرىء القيس ، ولكنهما لم يتشبثا مثله بما أدركا من أولية الشعر الجاهلى، بل تخلصا من آثارها ، وابتدآ فى الشعر عهداً جديداً آثره من عاصرهما ومن أتى بعدهما من الشعراء فكان من آثارهما ذلك الشعر الجاهلى الذى لا اضطراب فى أوزانه ولا شذوذ فى قوافيه »[٥٧] .

(٥٤) العصر الجاهلى ص ١٨٤ والقصيدة فى « شرح ديوان امرىء القيس » ص ١٨٢ تحقيق حسن السندوبى ط لجنة التجارية الكبرى بمصر ١٩٥٣ .

(٥٥) العصر الجاهلى ص ١٨٤ والقصيدة فى المفضليات ص ٢٣١ تحقيق الأستاذين أحمد شاكر وعبد السلام هارون ط ٤ دار المعارف ١٩٦٤ .

(٥٦) العصر الجاهلى ص ١٨٥ ، والقصيدة فى الأغانى جـ ٢ ص ١٥٣ طبعة دار الكتب .

(٥٧) مع رعيم الأدب العربى ص ١٢٤ و ١٢٥ مكتبة الخندى بالقاهرة دون تاريخ .

فهؤلاء الشعراء عندما قالوا هذه الأبيات المعدودة إنما كانوا متأثرين بما كان عليه الشعر قبلهم حيث كان مضطرباً لا يسير على وتيرة واحدة يؤيد ذلك ما يقوله د. إبراهيم أنيس : « غير أنا الآن نستطيع ونحن مطمئنون كل الاطمئنان أن نؤكد حقيقة ثابتة ، أصبح الباحثون في الأدب العربي يجمعون عليها ، وهي أن الشعر الجاهلي في صورته المعروفة لنا ليس إلّا نتيجة تطور أجيال سبقتها ، ومراحل مرت بها ، حتى صارت إلى تلك الأوزان المتعددة الدقيقة النسج التي لا يعقل نسبتها إلى شعب فطري بدائي ، كما كان الناس يظنون فيما مضى ، بل هي نتيجة ثقافة أدبية مرت عليها قرون كثيرة »[٥٩].

ومهما يكن من أمر فإنّ المعيار الوحيد في ذلك هو استقامة الموسيقى وإحساس الأذن بأن الشعر يجري على وتيرة واحدة . فما كان كذلك فهو يساير عروض الخليل ، حيث إنها – أي العروض – متوافقة مع انتظام الإيقاع واستقامة الموسيقى ورتابة النغم ، وما شذ عن ذلك فلا يؤخذ به .

فنحن من قبل إن الدكتور كمال أبا ديبة اتهم الخليل بن أحمد بأنه جانب المنهج العلمي لأنه فرض قواعد عروضية لا تغطي الشعر كله ، ومن ثم فهي ليست انعكاساً أميناً للوجود الفعلي للحقيقة التاريخية ذاتها[٦٠].

فما القواعد العروضية التي وضعها أبو ديبة ويطبق عليها الشعر كله وتكون انعكاساً أميناً للوجود الفعلي للحقيقة التاريخية ذاتها ؟

إنه يعقد فصلاً في كتابه « في البنية الإيقاعية في الشعر العربي » عنوانه « في إيقاع الشعر العربي : نحو بديل جذري لعروض الخليل »[٦١].

ونلخص هذا البديل الجذري الذي وضعه أبو ديبة تلخيصاً أميناً[٦٢].

فنقول إنه يمكن رد تفاعيل الخليل كلها إلى تفعيلتين :

(٥٩) مقدمة لشعر ١٨٤ ط ٥ مكتبة الأنجلو ١٩٧٣ .

(٦٠) انظر ص ٢٩ من هذا البحث . ثم ما بعدها من صفحات دفعت فيها هذا الاتهام الباطل .

(٦١) هذا الفصل الأول وبدأ من ص ٤٣ .

(٦٢) في كتاب كمال أبو ديبة من ص ٤٧ إلى ص ٥٥

١ فعولن ٢ – فاعلن ، ولما كانت التفعيلة الأولى هي الشبيه نفسها بعد قلبها :

فعو لن = لن فعو = فاعلن

o– o– o–– o–– o–– o––

فإنّ هناك نواتين إيقاعيتين أساسيتين في العروض العربي هما : (فا) و (علن) ومنهما تتكون كل تفاعيل الخليل على النحو التالي :

(أ) ما يبدأ من التفاعيل بالنواة علن :

١ المتقارب : الخليل : فعو لن فعو لن فعو لن فعو لن

أبو دية : علن فا علن فا علن فا علن فا

٢ الطويل : الخليل : فعو لن مفاعي لن فعو لن مفاعي لن

أبو دية : علن فا علن فا فا علن فا علن فا فا

٣ المزج : الخليل : مفا عي لن مفا عي لن مفا عي لن

أبو دية : علن فا فا علن فا فا علن فا فا

٤ – المضارع : الخليل : مفا عي لن فا عو لا تن مفا عي لن

أبو دية : علن فا فا فا عين فا علن فا فا

٥ – الوافر : الخليل : مفا عي لتن مفا عي لتن مفا عي لتن

أبو دية : علن ؟ علن علن ؟ علن علن ؟ علن[٦٣]

(٦٣) يلاحظ أن تفعيلة الوافر (مفاعلتن) لا تساوي أبداً مع علن ، ومهما تكررت ، ذلك لأن في (مفاعلتن) ثلاثة حروف متحركة متوالية ، ولا يوجد ذلك في (علن ، فا) ، لذلك فقد وضعنا علامة استفهام تحت العين من (مفاعلتن) وسوف نتكلم عن نغمها في آخر التلخيص وسنكرر هذا الأمر مرة أخرى في تفعيلة الكامل (متفاعلن) ، وفي تفعيلة السريع (مفعولات) .

(ب) ما يبدأ من التفاعيل بالنواة (فـا) :

١ المتدارك : ولا فرق بين الخليل وأبي دبية

فاعلن فاعلن فاعلن فاعلن

٢ البسيط الخليل : مستفعلن فاعلن مستفعلن فاعلن

أبو دبية : فاعلن فاعلن فاعلن فاعلن

٣ - الرجز : الخليل : مستفعلن مستفعلن مستفعلن

أبو دبية : فاعلن فاعلن فاعلن

٤ الرمل : الخليل : فاعلاتن فاعلاتن فاعلاتن

أبو دبية : فاعلن فاعلن فاعلن

٥ المديد : الخليل : فاعلاتن فاعلن فاعلاتن فاعلن

أبو دبية : فاعلن فاعلن فاعلن فاعلن

٦ - الخفيف : الخليل : فاعلاتن مستفعلن فاعلاتن

أبو دبية : فاعلن فاعلن فاعلن

٧ - السريع : الخليل : مستفعلن مستفعلن مفعولات

أبو دبية : فاعلن فاعلن فاعلن!

٨ - المنسرح : الخليل : مستفعلن مفعولات مستفعلن

أبو دبية : فاعلن فاعلن فاعلن

٧ السريع : الخليل : مستفعلن مستفعلن مفعولات

مستفعلن مفعولات مستفعلن

فاعلن فاعلن فاعلن

٩ المقتضب : الخليل : مفعولات مستفعلن مستفعلن

أبو دبية : فاعلن فاعلن فاعلن

١٠ المجتث : الخليل : مستفعلن فاعلاتن

أبو دبية : فاعلن فاعلن فاعلن

١١ الكامل الخليل : متفاعلن متفاعلن

أبو دبية : ؟ علن علن ؟ علن علن ؟

وقد تعمدت أن أكتب تفعيلات الخليل مفرّقة حتى أساوى بينها وبين (فـا) و (علـن) ، وهما النواتان اللتان وضعهما أبو ديب ، وما كانت هذه الطريقة في الكتابة إلّا لسبب واحد وهو تبرير قولي إن أبا ديب لم يصنع شيئاً ، فهو لم يعدُ أن قسم تفعيلات الخليل إلى سبب خفيف (فـا) ووتد مجموع (علـن) وهذا التقسيم إنما هو من صنع الخليل ... ولولا وجود هذه التفعيلات مسبقاً ما كان لأبي ديبة أن يقيس عليها أو يستبدل بها (فـا) و (علـن) أو الإثنين معاً . بل إنّ (فعولن) وقلبها إلى (فاعلن) مأخوذة من فكرة الدائرة الخامسة في دوائر الخليل[٦٤].

ويضاف إلى ذلك أن تفعيلات الخليل بوضعها المتكامل ، أي دون تفتيتها تثير الألحان المميزة لكل بحر ، ممّا يسهل حفظها بعكس تفتيتها إلى عدد غير متناسق من (فـا) و (علـن) فإن ذلك من شأنه هدم اللحن أو تناثره، إن صح هذا التعبير ، ومن ثمّ يصبح حفظها أمراً عسيراً ، وبذلك يكون أبو ديب كالذئب الذي أراد أن ينقذ صاحبه فأرداه قتيلاً . سيقول أبو ديبة إن تقسيمه هذا يستوعب قصائد المرقش وعدي وغيرهما مما لم تستوعبها تفعيلات الخليل . ونقول إن هذا صحيح ، وصحيحٌ أيضاً أنه لا يستوعب هذه القصائد فحسب ، بل يستوعب النثر أيضاً ، وبذلك تتسع دائرة هذا التقسيم ولا يكون وقفاً على الشعر فقط . ولننظر إلى جملة نثرية قد ألّفتُها الآن :

حفتنا إلى البيت عصراً تستريحا

ثم لننظر إلى تقسيمها عند أبي ديبة :

حفتنا إلى البيت عصراً لتستريحا

o. o– – o— o.. o.. – o– o. o– o.

فا فا علن فا علن فا علن علن فا

ثم لنحكم إن كانت نواتاه تكونان بديلاً جذرياً لعروض الخليل أو أنّ هذا وهم وافتراء سيقول من يؤيده إن هذه الجملة تقسم بعروض الخليل أيضاً إلى :

(٦٤) وهي دائرة المتفق ، وذلك على افتراض أن الأخفش قد وضع لها وزن المحدث أو المتدارك . وسيجيء بيان الدوائر كلها بعد قليل .

مستفعلن فاعلن فاعلن فعولن

وهذا صحيح ، ولكن الخليل لم ينص على وجود هذه التفعيلات مجتمعة فى بحر من البحور ولم يقل إن العرب قد أنشدت على مثالها شعراً . ومن ثم فإن تفعيلات الخليل ، مقسمة إلى مجموعات معينة ، لا تصدق إلّا على الشعر فقط ، بعكس (فـا) و (علـن) التى أتى بها أبو ديبة .

ثم ماذا نصنع فيما أشرنا إليه فى الحاشية منذ قليل ؟ إن الوافر والكامل تتوالى فى كل منهما ثلاثة متحركات ، وهذا لا يتأتى فى النواتين (فـ) و (علـن) . وكذلك الحال فى مفعولات التى تنتهى بالتاء المتحركة . يَرُدُّ الدكتور أبو ديبة على ذلك قائلاً «لكن من السهل التغلب على هذه المشكلة بوصف الجزء الإيقاعى بـ (فـ) فاقدةً ساكنها» أى أن (متفاعلن) عند الخليل تقسم عند أبى ديبة إلى فـ علـن علـن . ثم إنه يرجع ويقترح إيجاد نواة ثالثة تضاف إلى النواتين السابقتين وهى علتن ، وبذلك « يكون التركيب النووى للكامل : علتن علن علتن علن علتن علن ومن المؤكد أن أبا ديبة سيقول هذا الكلام نفسه رداً عليك إذا سألته : ماذا تصنع بتفعيلة الرمل (فعلاتـن) إذا أصابها الخبن فتصبح (فعلاتـن) ؟

ويبقى بعد ذلك أن الدكتور أبا ديبة قد اجتهد ، ولعله فى مؤلفات قادمة - يقدم لنا بديلاً حقيقياً عن تفعيلات الخليل رحمة الله عليه .

ولابد أن نذكر تواضع الدكتور إبراهيم أنيس عندما قال (مولد مشروع) مع غزارة علمه وتمكنه ، ونقارن بينه وبين (عدم تواضع) الدكتور أبى ديبة وتعظيمه لعمله وتسفيهه عمل الخليل .

والقول بأن الخليل بن أحمد قد أخذ علم العروض واصطلاحاته ورموز هذه الاصطلاحات من عروض الهنود قول مشكوك فيه إن لم يكن مرفوضاً . يقول البيرونى صاحب هذا الرأى « وهم يصورون فى تعديد الحروف شبه ما صوره الخليل بن أحمد والعروضيون منا للساكن والمتحرك ، وهما هاتان الصورتان : ≻ ١ ، فالأول وهو الذى عن اليسار من أجل أن كتاباتهم كذلك يسمى

« لكِ » وهو الخفيف ، والثانى الذى عن اليمين « كُـرْ » وهو الثقيل ، ووزانه أنه ضعف الأول لا يسد مكانه إلا اثنان من الخفيف[٦٥].

وهذا القول فيه كثير من الغموض ، ذلك أن هاتين العلامتين اللتين أوردهما البيرونى ١ ليستا للساكن والمتحرك بل هما للسبب الخفيف ثم للمتحرك فقط ، أى أن كلا منهما نرق إلى مقطع : الأولى مقطع طويل ، والثانية مقطع قصير ، وذلك بدليل قوله عندما قارن بين تقطيع العروضيين العرب وبين العروضيين الهنود : « إنا نعبر عن قوالب الخفيف السالم التام بأبنية الأفاعيل فى كل واحد من عروضه ويقول :

فاعلاتـــن	مـستفعلـــن	فاعلاتـــن
١٥١٥٥١٥	١٥٥١٥١٥	١٥١٥٥١٥

وعلاماته بأرقام الهند ١ ٧٧ ٠ ٧٧ ١ ٧٧ ١ (٦٦)

فواضح كل الوضوح أن علامة ٧ تعبر عن متحرك فساكن أو متحرك ثم مد (ـــ) ، وهذا هو المقطع الطويل ، وعلامة ١ تعبر عن متحرك ليس غير وهذا هو المقطع القصير . هذا بالإضافة إلى أن البيرونى قد عكس الصورة فى العروض العربى فرمز إلى الساكن بالعلامة ١ والمتحرك بالعلامة ٥[٦٧] وأشد من هذا خطأ أن البيرونى يقول « ووزانه أنه ضعف الأول لا يسد مكانه إلا اثنان من الخفيف » أى أن الصوت الكمى لما ترمز له العلامة ٧ ضعف الصوت الكمى لما ترمز له العلامة ١ » وهذا خطأ لأن العلامة ٧ ترمز إلى متحرك ثم ساكن أو متحرك ثم مد فى حين أن العلامة ١ ترمز إلى متحرك فقط . والمتحرك والساكن أوالمتحرك والمد بعده ليسا ضعف المتحرك .

(٦٥) تحقيق ماللهند من مقولة مقبولة فى العقل أو مرذولة ص ١٠٦ و ١٠٧ لأبى الريحان البيرونى طبعة لجنة ١٩٥٧ .

(٦٦) السابق ص ١١٢ .

(٦٧) يلاحظ أن ابن عبد ربه فى العقد الفريد قد اتبع ما اصطلح البيرونى فرمز للساكن ١ والمتحرك ٥ انظر العقد الفريد جـ ٥ ص ٤٣٩ لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٦٥ .

هذا إلى أن الخليل لم يتخذ المقطع ، طويلاً كان أم قصيراً وحدة البيت . بل اتخذ التفعيلات وكانت وحدة التفعيلات عنده المتحرك والساكن ، وليس المقطع .

ويبدوأن الأمر قد التبس على البيرونى حتى إنه وقع فى كل هذه الأخطاء ، ذلك نتيجة عدم درسه للموضوع جيداً ، وهو يعترف بذلك،يقول .... وإن كنت إلى الآن لم أستيقن حال الخفيف والثقيل بحيث أتمكن من تمثيلهما فى العربية »[٦٨] ويقول فى موضع آخر « وقد قدمت العذر وكررته أنه لم يحصل لى من هذا الفن ما يصلح للتعريف إلا أنى مع ذلك أبذل فيه جهد المقل »[٦٩]. ويقول فى موضع ثالث بعد أن يعدد الكتب الهندية التى تناولت علم العروض « لم أطلع على شيء منها ولا على كثير من المقالة التى فى (براهم سدهانت) فى حسابها بحيث أتحقق قوانين عروضهم ، ولا أستجيز مع ذلك الأعراض عما اتسم رائحة إحالة إلى وقت الإحاطة[٧٠].

إذن فالبيرونى لم يكن متفقهاً فى العروض الهندى - باعترافه - ولم يطلع على كتبهم أو كثير من كتبهم - فى ذلك . فأنّى له أن يبحث فيه ، بل أنّى له أن يقارن بينه وبين العروض العربى ، ويقضى بأن الخليل قد أخذ من الهنود ، ومعروف أن المقارن (اسم فاعل) لابد له من التمكن التام فى المقامين المقارنين بينهما[٧١].

ويجىء البيرونى بعد ذلك بشيء غريب يدل على عدم تمكنه من العروض الهندى فيقول « وكما أن أبيات العربية تنقسم إلى نصفين بعروض وضرب ، فأبيات أولئك تنقسم لقسمين يسمى كل واحد منهما رجلاً ، وهكذا يسميها اليونانيون أرجلا ثم يرجع ويقول « وينقسم البيت (عندهم) لثلاث أرجل ولأربع وهو الأكثر ، وربما زيد فى الوسط رجل خامسة ولا تكون

(٦٨) السابق ص ٩٠٧ .
(٦٩) السابق ص ١١٢ .
(٧٠) السابق ص ١٠٦ .
(٧١) سابق ص ١١٠

مفصلة »[٧٢] فهو يقر أن البيت رجلان ثم يرجع ويقول أنه ثلاث أرجل أو أربع .

ثم يفصل هذه الأرجل وترتيباتها بشيء فيه كثير من الغموض والإبهام .

على أننا لو تغاضينا عن قول البيروني في مسألة أخذ الخليل العروض من الهنود لوجدنا المسألة عامة شائعة لا يجوز القول فيها بالأخذ أو بالسرقة فالحروف ساكنة أو متحركة والسبب الخفيف هو متحرك وبعده ساكن أو حرف مد . والثقيل هو متحركان والمقطع القصير هو متحرك حركة قصيرة والطويل متحرك وساكن أو متحرك ومُدّ ... كلام عام كقولنا ١ + ١ = ٢ أو س × س = س٢ ولا يجوز الحكم فيه بالسرقة أو بالنقل .

إن معظم ما أُخذ على الخليل إنما يرجع إلى فكرة الدوائر ، وأراني مضطراً إلى شرح هذه الفكرة بالتفصيل حتى يكون كلامي عن المآخذ واضحاً .

إن فكرة الدوائر مبنية على نظرية التباديل والتوافيق في الرياضة بمعنى أن ترتيب أجزاء الشيء الواحد يعطيه صورة معينة ، ثم بإعادة هذا الترتيب تولد صورة أخرى وإذا أعدنا الترتيب مرة ثالثة تولدت عندنا صورة ثالثة وهكذا دواليك .

ومثال ذلك أننا لو فرضنا أن شيئاً يتكون من أجزاء هي أ ، ب ، جـ ، د ، فإننا نحصل على أربع وعشرين صورة مختلفة لهذه الأجزاء ، وذلك بإعادة ترتيبها أو بالتبادل في الأوضاع بين أجزائها على النحو التالي :

أ ب جـ د	ب أ جـ د	جـ أ ب د	د أ ب جـ
أ ب د جـ	ب أ د جـ	جـ أ د ب	د أ جـ ب
أ جـ د ب	ب جـ أ د	جـ ب أ د	د ب أ جـ
أ جـ ب د	ب جـ د أ	جـ ب د أ	د ب جـ أ
أ د جـ ب	ب د أ جـ	جـ د أ ب	د جـ أ ب
أ د ب جـ	ب د جـ أ	جـ د ب أ	د جـ ب أ

(٧٢) السابق ص ١١٠ .

وهذا ناتج من ضرب عدد الأجزاء × العدد الذى يليه وهكذا ، أى :

٤ × ٣ × ٢ × ١ = ٢٤

استغل الخليل بن أحمد بثاقب فكره هذه النظرية فى التبديل بين أجزاء التفعيلة حتى يُنْتِج صوراً أخرى لها ، فرأى مثلاً - أن مفاعلتن (وهى وحدة التفعيلة فى الوافر) تتكون من وتد مجموع (مفا) وفاصلة صغرى (علتن) ، فلو عكس (بدل) الوضع لنتج (علتن مفا) وهى تساوى متفاعلن ، وهى وحدة الكامل . مثال آخر : إن وحدة التفعيلة فى الهزج (مفاعيلن) تتكون من ثلاثة أجزاء :

الأول	الثانى	الثالث
مفا	عيـ	لن

فإذا أعدنا الترتيب بحيث يكون الثانى ثم الثالث ثم الأول :

لأصبحت	عيـ	لن	مفا
وهى =	مسـ	تسفـ	علن

(وهى تفعيلة الرجز)

وإذا أعدنا الترتيب مرة ثانية بحيث يكون الثانى ثم الأول ثم الثالث :

لأصبحت	عيـ	مفا	لن
وهى =	فا	علا	تن

(وهى تفعيلة الرمل)

بل إن الخليل لم يستغل هذه النظرية فى التبادل بين أجزاء التفعيلة الواحدة فحسب ، ولكنه استغلها فى التبادل بين تفعيلة بجميع أجزائها وتفعيلة أخرى بجميع أجزائها أيضاً .

فالبحر السريع مثلاً يتكون من :

مستفعلن مستفعلن مفعولات

فلو غيرنا (أو بدلنا) مكان معفولات ووضعناها بين مستفعلن ومستفعلن لنتج :

مستفعلن مفعـــولات مستفعلـــن

وهي تفعيلات (البحر المنسرح)

وهكذا سار الخليل على هذا الدرب فوقع في أخطاء تندرج تحت باب عدم التوفيق بين النظر والتطبيق أو عدم التطابق بين القواعد والشواهد ، إذ نتجت صورٌ من التفعيلات لا شواهد لها من شعر العرب وهي التي سماها الخليل (مهملةً) . كما نتجت صورٌ أخرى لبحر من الشعر ، مستعملة - ما في ذلك من شك ولكن التفعيلات الناتجة مخالفةٌ بعض الشيء للاستعمال ، وما كان الا لأن المنهج الرياضي ليس صالحاً للتطبيق في مسائل اللغة على وجه العموم .

وقبل أن نسترسل في بيان هذه الأخطاء مع دوائرها يجب أن نقول إن الخليل قد اتبع المنهج نفسه في تأليفه معجم (العين) حتى إن من يقرأ هذا المعجم - وكان قد عرف قبل ذلك فكرة الدوائر - ليتقن ان مؤلفهما رجل واحد فهو يأتي بالمادة ثم يبدل بين حروفها على نحو ما فعل في التفعيلات العروضية فـ (ضرب) بالتبادل بين أجزائها ينتج :

ض ب ر ر ض ب ر ب ض ب ض ر ب ر ض

وكما نتج له في العروض تفعيلات لبحور مهملة لم تستعمل نتج له كلمات مهملة لم تستعمل .

ولما كان الشيء بالشيء يذكر فإننا نذكر هنا الاشتقاق الأكبر لابن جني الذي تأثر فيه - بلا شك - بالخليل « وهو أن تأخذ أصلاً من أصول الثلاثية وتعقد عليه وعلى تقاليبه الستة معنى واحداً يجمع التراكيب الستة وما يتصرف من كل واحد منها عليه »[٧٣] ونذكر أيضاً كتاب الثلاثة لابن فارس فتأليفه قائم على الفكرة نفسها .

(٧٣) الخصائص جـ ٢ ص ١٣٤ تحقيق محمد علي النجار . دار الكتب ١٩٥٤ .

تستأنف القول عن الدوائر فهى مبنية كما قلنا – على نظرية التباديل والتوافيق فى الرياضة ، ولكن الخليل بعقليته الفذة لا ينص على التبديل بين أجزاء التفعيلة بل إنه يجعل تفاعيل بحر معين فى دائرة بحيث تبدأ ثم تنتهى ثم تبدأ وهكذا والذى يتغير هو موضع البداية ، فبتغير هذا الموضع تتغير صور التفعيلات ومن ثم نرى صوراً أخرى لبحور جديدة .

الدائـــرة الأولى
وهى دائـــرة المختلـــف

وتحتوى على خمسة أبحر ثلاثة منها مستعملة واثنان مهملان .

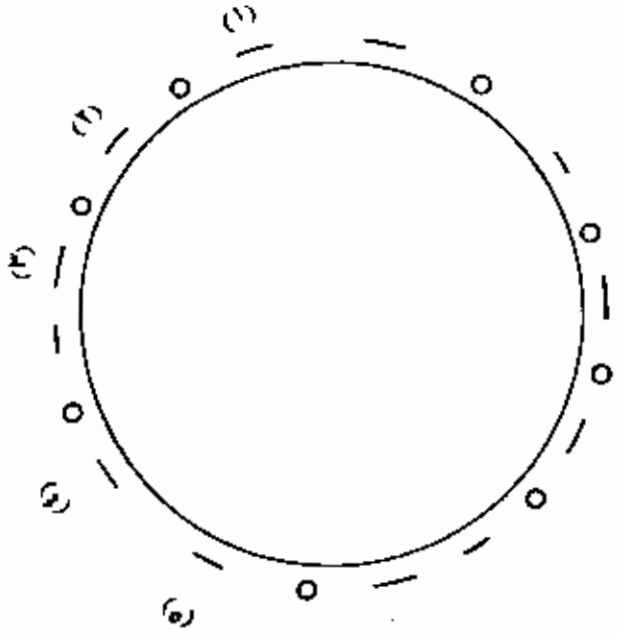

ويتتابع فيها متحركان فساكن فمتحرك فساكن فمتحركان فساكن فمتحرك فساكن فمتحرك فساكن ،

فعـــ و لـــن مفـــا عـــي لـــن

ثم يتكرر هذا كله مرة أخرى :

١ - إذا بدأنا من الوتد المجموع رقم (١) نتج لنا :

فعولن مفاعيلن فعولن مفاعيلن وهذه تفعيلات البحر الطويل

٢ - إذا بدأنا من السبب الخفيف رقم (٢) نتج لنا :

فاعلاتن فاعلن فاعلاتن فاعلن وهي تفعيلات البحر المديد

٣ - إذا بدأنا من الوتد المجموع رقم (٣) نتج لنا :

مفاعيلن فعولن مفاعيلن فعولن وهي تفعيلات مهملة لم يستعملها العرب

٤ - إذا بدأنا من السبب الخفيف رقم (٤) نتج لنا :

مستفعلن فاعلن مستفعلن فاعلن وهي تفعيلات البحر البسيط

٥ - إذا بدأنا من السبب الخفيف رقم (٥) نتج لنا :

فاعلن فاعلاتن فاعلن فاعلاتن وهي تفعيلات مهملة لم يستعملها العرب

الدائـــرة الثانيـــة

دائـــــرة المؤتلـــــف

ويتتابع فيها متحركان فـــاكن فمتحركان فمتحرك فـــاكن .

مفـــــا عفـــــــن

ويتكرر هذا مرتين أخريين وتحتوى على ثلاثة أبحر ، اثنان مستعملان والثالث مهمل .

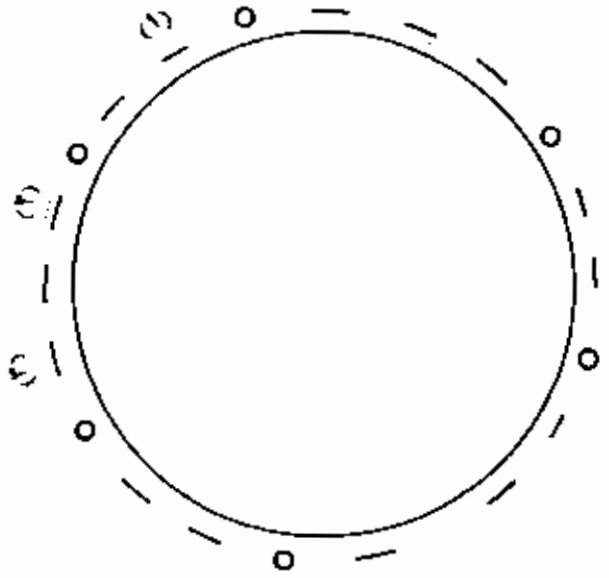

١ – إذا بدأنا من الوتد المجموع رقم (١) نتج لنا :

مفاعلتن مفاعلتن مفاعلتن وهذه تفعيلات البحر الوافر

مع قطف آخر تفعيلة وجوباً فتصبح (مفاعـــل) وتحول إلى فعولـــن

٢ – إذا بدأنا من السبب الثقيل رقم (٢) نتج لنا :

متفاعلن متفاعلن متفاعلن وهى تفعيلات البحر الكامل

٣ – إذا بدأنا من السبب الخفيف رقم (٣) نتج لنا :

فاعلاتك فاعلاتك فاعلاتك وهى تفعيلات مهملـة

الدائـــرة الثالثـــة

دائـــرة المشـــتبه

وتحتوى على ثلاثة أبحر جميعها مستعملة

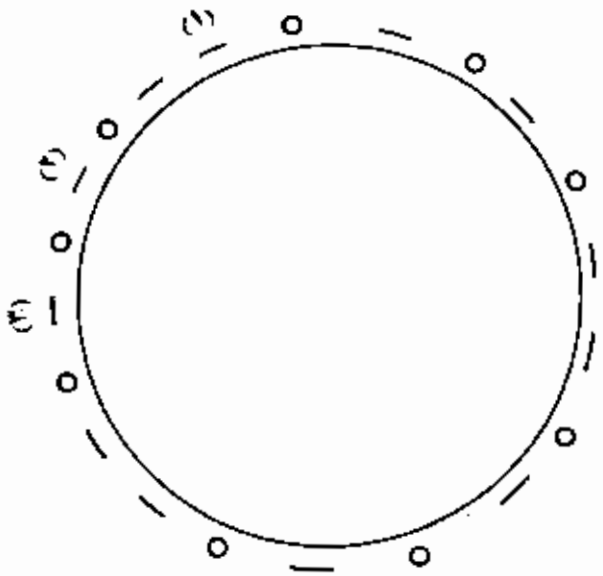

ويتتابع فيها متحركان فساكن فمتحرك فساكن فمتحرك فساكن

مفـــا عيـــ لـــ ن

ويتكرر هذا مرتين أخريين

١ - إذا بدأنا من الوتد المجموع رقم (١) نتج لنا :
مفاعيلن مفاعيلن مفاعيلن وهذه تفعيلات الهزج

٢ - وإذا بدأنا من السبب الخفيف رقم (٢) نتج لنا :
مستفعلن مستفعلن مستفعلن وهى تفعيلات الرجـــز

٣ - وإذا بدأنا من السبب الخفيف رقم (٣) نتج لنا :
فاعلاتن فاعلاتن فاعلاتن وهى تفعيلات الرمل

الدائـــرة الرابعـــة

دائـــرة المجتلـــب

وتحوى على تسعة أبحر ، ستة أبحر مستعملة وثلاثة مهملة .

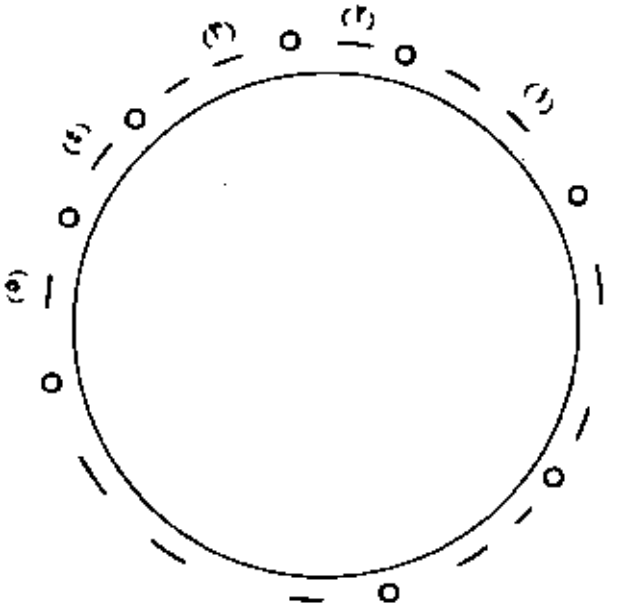

ويتتابع فيها متحرك فساكن ، فمثلهما ، فمتحركان فساكن ويتكرر كل هذا مرة .

مـ ســ تفـ علـ ن

أخرى ، ثم يليه متحرك فساكن فمثلهما فمتحرك فساكن فمتحرك

مستفعلن مفـ عـو ل ا ت

١ - إذا بدأنا من السبب الخفيف رقم (١) نتج لنا :

مستفعلن مستفعلن مفعولات وهى تفعيلات البحر السريع

٢ – إذا بدأنا من السبب الخفيف رقم (٢) نتج لنا :

فاعلاتن فاعلاتن مستفعلن وهي تفعيلات مهملة

٣ – إذا بدأنا من الوتد المجموع رقم (٣) نتج لنا :

مفاعيلن مفاعيلن فاع لاتن وهي تفعيلات مهملة

٤ إذا بدأنا من السبب الخفيف رقم (٤) نتج لنا :

مستفعلن مفعولات مستفعلن وهي تفعيلات البحر المسرح

٥ – إذا بدأنا من السبب الخفيف رقم (٥) نتج لنا :

فاعلاتن مستفع لن فاعلاتن وهي تفعيلات البحر الخفيف

٦ إذا بدأنا من الوتد المجموع رقم (٦) نتج لنا :

مفاعيلن فاع لاتن مفاعيلن وهي تفعيلات البحر المضارع

٧ – إذا بدأنا من السبب الخفيف رقم (٧) نتج لنا :

مفعولات مستفعلن مستفعلن وهي تفعيلات البحر المقتضب

٨ – إذا بدأنا من السبب الخفيف رقم (٨) نتج لنا :

مستفع لن فاعلاتن فاعلاتن وهي تفعيلات البحر المجتث

٩ – إذا بدأنا من الوتد المفروق رقم (٩) نتج لنا :

فاع لا تن مفاعيلن مفاعيلن وهي تفعيلات مهملة

الدائـــرة الخامســـة

دائـــرة المتفـــــق

ويحتوى على بحرين مستعملين .

ويتابع فى هذه الدائرة حركتان فساكن فحركة فساكن

فعـــ و لـ ن

ويتكرر هذا ثلاث مرات أخرى

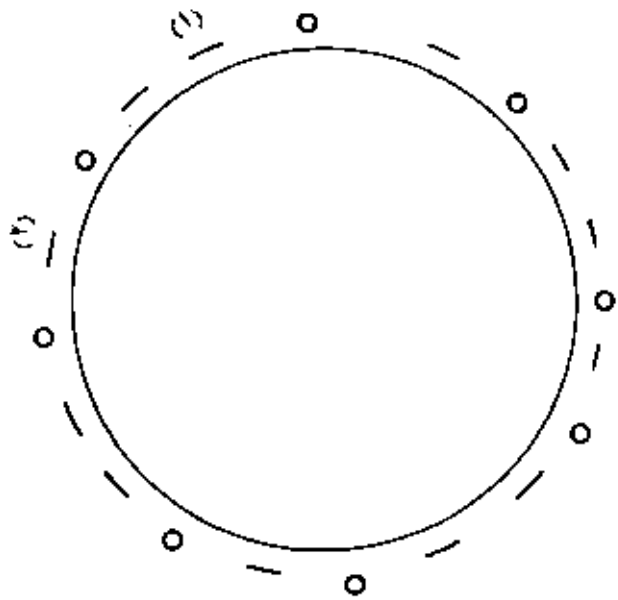

١ - إذا بدأنا من الوتد المجموع رقم (١) نتج لنا :

فعولن فعولن فعولن فعولن وهى تفعيلات المتقارب

٢ - إذا بدأنا من السبب الخفيف رقم (٢) نتج لنا :

فاعلن فاعلن فاعلن فاعلن وهى تفعيلات المتدارك

وبعد هذا العرض تأتى إلى المآخذ وكلها تتلخص فى الفصل بين القواعد والشواهد ، (الدائرة الأولى) .

١ - ان بحر المديد كما أنتجته الدائرة مكون من : فاعلاتن فاعلن فاعلاتن فاعلن فى الشطر الواحد . فى حين أن الواقع الشعرى يشهد بغير ذلك فهو لم يجىء إلا على : فاعلن فاعلاتن فاعلن . ومن ثم فإنه من الخطأ أن نفترض أن أصله أربع تفعيلات ثم جاء مجزوءاً .

٢ - ان عروض البحر الطويل (آخر تفعيلة فى الشطر الأول) لم يجىء إلا على صورة (مفاعلن) ، وقد أنتجتها الدائرة (مفاعيلن) فمن الخطأ وضع قاعدة تقول إن هذا هو أصلها ثم إنها لم تستعمل إلا مقبوضة (حذف الخامس الساكن : مفاعلن) .

٣ أنتجت الدوائر تفعيلات لبحور ثلاثة لم تستعملها العرب .
(الدائرة الثانية)

٤ - العروض والضرب فى الوافر هو (فعولن) بذلك يشهد كل ما جاء من شعر على هذا البحر ، فمن الخطأ أن نقول أن الأصل (مفاعلتن) ثم أصاب هذا الأصل قطف فأصبحت (مفاعل) وحولت إلى فعولن .

٥ - إن هناك بحراً مهملاً أنتجته هذه الدائرة .
(الدائرة الثالثة)

٦ - بحر الهزج كما أنتجته الدائرة - مكون من مفاعيلن ثلاث مرات فى الشطر الواحد فى حين أن شواهد هذا البحر لم تأت إلا على مفاعيلن مرتين فى الشطر الواحد ومن الخطأ أن نقول أن الأصل مجيئه على (مفاعيلن) ثلاث مرات ولكنه لم يستعمل إلا مجزوءاً .
(الدائرة الرابعة)

٧ - إن الدائرة أنتجت البحر السريع وهو مكون من مستفعلن مستفعلن مفعولات ولكنه لا يأتى إطلاقاً على هذه الصورة . بل إن عروضه وضربه يأتيان على فاعلن أو فاعلان أو فعلن ... ...

٨ – أنتجت الدائرة تفعيلات البحر المسرح وهى مستفعلن مفعولات مستفعلن فى الشطر الأول ومثلها فى الثانى ، ولم تجيء هكذا فى واقع الشعر ، بل جاءت على صور أخرى مختلفة أقربها إلى ما جاء بالدائرة هى :

مستفعلن مفعولات مستفعلن مستفعلن مفعولات مفتعلن

٩ – لعل الخطأ الوحيد الذى وقع فيه الخليل دون أن يكون لتباديل الدوائر علاقة بذلك هو أنه فصل التفعيلة مستفعلن فى بحرى الخفيف والمجتث إلى مستفع لن وفصل التفعيلة فاعلاتن إلى فاع لاتن فى بحر المضارع ويرجع السبب فى ذلك إلى القاعدة التى تقول « إن الزحاف يختص بثوانى الأسباب »
و (مستفعلن) تتكون من سبب خفيف + سبب خفيف + وتد مجموع

مس تف علن

ولكن الفاء فى السبب الخفيف الثانى لا تحذف أى لا يدخل الطى (وهو حذف الرابع الساكن) هذه التفعيلة . وهذا كسر للقاعدة من أجل ذلك كتبت مستفعلن على النحو التالى :

سبب خفيف وتد مفروق سبب خفيف

مس تفع لن

وبذلك أصبحت الفاء فى الوتد المفروق ، ولكون عدم حذفها غير متناقض مع القاعدة . وقل مثل ذلك فى المجتث أيضاً .

ونقول بالتعليل نفسه فى فاعلاتن فى بحر المضارع فإن هذه التفعيلة لا يدخلها الخبن فإذا كتبت فاعلاتن كان ذلك كسراً للقاعدة التى تقول بدخول الزحاف على ثوانى الأسباب ، من أجل هذا كتبت على هذا النحو : فاع لا تن وبذلك تقع الألف فى وسط الوتد المفروق بعد أن كانت ثانى سبب . على أن هناك نقطة هامة فى هذه الملاحظة ، ذلك أننا لا نستطيع أن نجزم أن الخليل قد كتب مستفعلن على هذا النحو : مستفع لن ، ولا فاعلاتن على هذا النحو : فاع لاتن ، فربما كانت هذه كتابة من لحق به من العروضيين . يؤيد ذلك أن محقق كتاب الكافى فى العروض والقوافى يقول : « إنه وجد فى جميع النسخ التى استعان بها فى التحقيق التفعيلة (مستفعلن) متصلة ، وهو أى المحقق

الذى عرفها إيضاحاً للوتد المفروق[٧٤] وكذلك يقول عن فاعلاتن إنها وردت هكذا ولم ترد فاع لاتن فى أية نسخة من النسخ التى اتخذها موضوعاً للتحقيق[٧٥]. ويرى الجوهرى[٧٦] الاستغناء عن مفعولات حيث أن (مستفع لن) مفروقة الوتد تماثلها فى الكم الصوتى ، فكل من التفعيلتين تتكون من سببين خفيفين ووتد مفروق ، مع الاختلاف فى الترتيب ، بالإضافة إلى أنه لا يوجد بحر وحدته (مفعولات) . وهو كلام صحيح غير أننا لا نستطيع أن نستغنى بواحدة عن الأخرى فـ (مفعولات) يقع الوتد المفروق فى آخرها ، فى حين أنه فى (مستفع لن) يقع فى وسطها . وإلا فهل تغنى مفاعلتن عن متفاعلن أو العكس حيث إن كلا منهما تتكون من سبب ثقيل وسبب خفيف ووتد مجموع ؟

١٠ إن البحور المضارع والمقتضب والمجتث

مفاعيلن فاعلاتن مفاعيلن (المضارع)
مفعولات مستفعلن مستفعلن (المقتضب)
مستفعلن فاعلاتن فاعلاتن (المجتث) .

فى حين أن الشواهد التى وردت على هذه التفعيلات ، وردت مجزوءة

مفاعيلن فاعلاتن (المضارع)
مفعولات مستفعلن (المقتضب)
مستفع لن فاعلاتن (المجتث)

بل إن هذه البحور مع كونها مجزوءة لم تسلم من الزحاف وهذا غير وارد فى الدائرة . فالمضارع لا تسلم تفاعيله من الكف أو القبض . والمقتضب لا تسلم تفاعيله من الخبن أو الطى ، والمجتث يقع فيه الخبن أو الكف .

(٧٤) الكافى فى العروض والقوافى للتبريزى ص ٩٠ تحقيق الحساني عبد الله ط الخانجى القاهرة

(٧٥) السابق ص ١١٧ .

(٧٦) العمدة جـ ١ ص ١٣٥ بتصرف .

يبقى بعد هذا أن نقول إن هذه البحور الثلاثة قليلة الاستعمال ، بل إن صاحب أهدى سبيل قال عن المضارع « والذى أورد شواهد هذا البحر هو الخليل أما الأخفش فأنكر أن يكون هذا الوزن من كلام العرب[٧٧].
وقال الزجاج : ورد ولكنه قليل حتى إنه لا يوجد منه قصيدة لعربى ، وإنما يروى منه البيت والبيتان »[٧٧].

وقال عنه القرطاجنى : « فأما الوزن الذى سموه المضارع ، فما أرى أن شيئاً من الاختلاف على العرب أحق بالتكذيب والرد منه ، لأن طباع العرب كانت أفضل من أن يكون هذا الوزن من نتاجها . وما أراه أنتحه إلا شعبة بن شام ، خطرت صورته على فكر من وضعه قياساً ، فيالينه لم يضعه ، ولم يدنس أوزان العرب بذكره معها ، فإنه أسخف وزن سمع ، فلا سبيل إلى قبوله والعمل عليه أصلاً[٧٨].

وقال عنه التبريزى ولم يسمع المضارع من العرب ولم يجىء فيه شعر معروف وقد قال الخليل : وأجازوه[٧٩].

وقال عن المقتضب بعد أن أورد بيتين « ولم يعرف غيره شيء من المقتضب على زعم الخليل[٨٠]. بل إن التبريزى أورد أبياتاً ثلاثة على المضارع والمقتضب والمجتث قال عنها محقق الكافى إنها موضوعة[٨١].

وقد ذكر أبو العلاء المعرى أن المضارع والمقتضب والمجتث قلما توجد فى أشعار المتقدمين ، وأن الخليل وضع هذا البيت للمضارع :

(٧٧) هدى سبيل إلى علم الخليل ص ٨٣
(٧٨) منهاج البلغاء وسراج الأدباء لأبى الحسن حازم القرطاجنى ص ٢٤٣ تحقيق محمد الحبيب ابن الخوجه تونس ١٩٦٦
(٧٩) الكافى فى العروض والقوافى ص ١١٧
(٨٠) الكافى فى العروض والقوافى ص ١٢١
(٨١) الكافى فى العروض والقوافى ص ١٢٦

وان تـــدن مـــه شـــبرا يقربـك منـــه باعـــــا

وهو مفقود فى شعر العرب ، كذلك وضع هذا البيت للمقتضب :

أعرضـــــت فـــــلاح لنـــا عارضـــــان مـــن بـــــرد

وهو مفقود فى شعر العرب أيضاً ، وأما المجتث فبيتـــه

البطـــــن منهـــا خميـــص والوجـــه مثـــل الهـــــلال

وهذا الوزن زعم الأخفش أنه قد سمعه فى شعر العرب ، وأنشد

جـــن هبـــن بليـــــــل بيـــد بن ســـيد هنـــــه[٨٢]

فعله من صائب الرأى بعد ذلك أن تقول إن المقتضب والمضارع والمجتث من وضع الخليل حتى تصدق الدائرة بما أتت به .

١١ – إن الدائرة أنتجت ثلاثة بحور مهملة لم يقل عليها العرب شعراً ونكرر القول بأن هذا وضع لقواعد منفصلة عن الاستعمال .

(الدائرة الخامسة)

١٢ – ليس بها من ملاحظات سوى ما أورده بعض العروضيين من أن الخليل لم يتنبه إلى المتدارك ، بل إن الأخفش هو الذى زاده ، وتدارك به على الخليل ، وبعضهم يسميه المحدث .

وبعد ، فلعلنا بعد عرض الدوائر ثم عرض المؤاخذات بالتفصيل ننتهى إلى نتيجة مؤداها ، أن كل ما يؤخذ على الخليل إنما كان مبعثه الدوائر ، بحيث إننا لو افترضنا أن الخليل لم يضع هذه الدوائر واكتفى بأن يعرفنا أن تفعيلات الوافر مفاعلتن مفاعلتن فعولن ، وأن البسيط : مستفعلن فاعلن مستفعلن فاعلن ... الخ أقول لو فعل ذلك لما كانت هناك مؤاخذات توجه إلى الخليل ذلك أن كل هذه المؤاخذات إنما كانت ناتجة لإخضاع الخليل عروض الشعر

(٨٢) مصون والغايات فى تجويد القافية ، مواعظ لأبى العلاء المعرى ص ١٣٢ بتصرف وتلخيص . تحقيق محمود . دار مصعة حجازى ١٩٣٨ .

للمنهج الرياضي الذى يفترض أن كلَّ ما تأتى به دوائر التباديل من حيث الشكل – مستعملٌ موضوعاً ، أو قل إنه يهتم بالشكل فقط دون الموضوع .

وعلى ذلك فإن الدوائر تعد ترفاً فى الفكر إن صح هذا التعبير ، وهى لا تخدم العروض فى شيء ، إلا إذا عَدَّدنا الترف والإمعان فى الفكر فائدة تجنى .

وتتضح لنا هذه المقدرة العقلية إذا ما قارنا بين التباديل فى هذه الدوائر وبين تقسيم الجوهرى لهذه البحور ، أو وضعه إياها فى مجموعات قال ابن رشيق : « وجعل الجوهرى هذه الأجناس اثنى عشر باباً على أن فيها المتدارك : سبعة منها مفردات ، وخمسة مركبات ، قال : فأولها المتقارب ثم الهزج ، والطويل بينهما مركب منهما[٨٣] . ثم بعد الهزج الرمل والمضارع بينهما ، ثم بعد الرمل الرجز والخفيف بينهما ، ثم بعد الرجز المتدارك والبسيط بينهما ، ثم بعد المتدارك المديد مركب منه ومن الرمل[٨٤] . قال ثم الوافر والكامل ، لم يتركب منهما بحر لما فيها من الفاصلة[٨٥] .

وواضح أن عمل الجوهرى لم يتعد المشابهة بين التفعيلات وأنه مع ذلك وقع فى تناقض أشرنا إليه منذ قليل فى الحاشية .

(٨٣) يقصد أن وحدة التفعيلة فى المتقارب (فعولن) وفى الهزج (مفاعيلن) والطويل مركب من الإثنين (فعولن ، مفاعيلن) وعلى ذلك يأتى باقى كلامه .

(٨٤) كنت أتوقع أن يقول « ثم بعد المتدارك الرمل ، والمديد مركب منهما » متصيداً حتى لا يقع فى تناقض .

(٨٥) العمدة جـ ١ ص ١٣٦ و ١٣٧ تحقيق محيى الدين – بيروت ١٩٧٢ .

الحجازيون وحياتهم الاقتصادية والاجتماعية
فى مدينة الإسكندرية فى العصر العثمانى
دراسة وثائقية من سجلات المحكمة
الشرعية بالشهر العقارى
(٩٢٣ - ١٢١٣هـ - ١٥١٧ - ١٧٩٨م)

دكتور
صلاح أحمد هريدى على
جامعى الإسكندرية وانقلك سعود

١٤٠٥ ١٤٠٦هـ / ١٩٨٥ - ١٩٨٦م

لقد ساهم الحجازيون فى الحياة الاقتصادية والاجتماعية فى الاسكندرية فى العصر العثمانى (٩٢٣ – ١٢١٣هـ / ١٥١٧ – ١٧٩٨م) ، وقد اعتمدت فى هذا البحث على وثائق المحكمة الشرعية بالشهر العقارى بالاسكندرية . والتزمت بتسميتهم على حسب مسميات هذه الفترة .

وتمثلت حياتهم الاقتصادية فى اشتغالهم بالتجارة ، واحترافهم بعض الحرف . أما حياتهم الاجتماعية فقد شملت الزواج والطلاق ، والعلاقات الاجتماعية ، مشتملة على علاقاتهم مع بعضهم وعلاقاتهم مع غيرهم ، سواء كانوا من العرب أم من الأجانب .

وقبل التحدث عن حياتهم الاقتصادية والاجتماعية ، لابد من التحدث عن استقرارهم بمصر بصفة عامة ، والاسكندرية بصفة خاصة . فمن المعروف أن اتصال العرب بمصر يرجع إلى عهود سحيقة ، فإن صلات السلالة والدم بين وادى النيل الأدنى وشمال الجزيرة العربية ، هى صلات بعيدة الأصل ، ترجع إلى عصور ما قبل التاريخ ، إذ يرى علماء الجيولوجيا أن الجزيرة عبارة عن تكملة طبيعية لصحارى أفريقيا التى يفصلها عنها الآن منبطح وادى النيل ومنخفض البحر الأحمر العميق ، كما ذهبوا إلى أن الجزء الجنوبى الغربى من بلاد العرب عبارة عن بحيرة . وإذا كان البحر والصحراء قد شكلا فيما قبل التاريخ موانع لا يمكن التغلب عليها بالنسبة إلى قوة حربية كبيرة ، وجعلا من مصر بلداً لا يسهل غزوه ، فقد كان الأمر ميسوراً جداً فى حالة تسلل أفراد أو جماعات متجولة أو قوافل تجارية صغيرة سواء من الشمال عند شبه جزيرة سيناء حيث تلتقى الصحراء الشرقية ببلاد العرب لقاء دائماً ، أو من الجنوب حيث يشتد اقتراب جزيرة العرب من أفريقية ، عند باب المندب فلا يفصل بينهما سوى خمسة عشر ميلاً[1]. وكانت هناك علاقات تجارية بين مصر وجزيرة العرب منذ أقدم العصور ، وظهر ذلك واضحاً فى العلاقات التجارية بين الملكة حتشبسوت وبين جزيرة العرب ، ويظن أن الذهب كان يستورد فى

(١) عبد الله خورشيد البرى ، القبائل العربية فى مصر فى القرون الثلاثة الأولى للهجرة ، ص ٧ .

عهدها من هناك[٢] واحتكر العرب التجارة فى مصر لوقت طويل ، حتى جاء الاسكندر الأكبر الذى فكر فى إنشاء أسطول ضخم يحمل البضائع مباشرة دون الاعتماد على التجار العرب ، وذلك لكى يقضى على سيادة العرب على التجارة البرية والبحرية ، ويحد من الارتفاع الهائل الذى وصلت إليه أسعار البضائع الثمينة والتى كانت تأتى من الشرق إلى أسواق مصر أو بلاد الشام محمولة على سفن عربية أو على ظهور جمال القوافل ، ومن هناك تنتقل إلى أوربا[٣]. وفى عهد البطالمة كان ميناء Leuke Kome[٤] من أهم الموانى التجارية على سواحل الحجاز ، ومنه تتجه السفن إلى الساحل المصرى لتفرغ شحنتها هناك فتنقل إما بواسطة القوافل وإما بالسفن من القناة المحفورة بين البحر الأحمر ونهر النيل لتتابع طريقها إلى موانىء البحر المتوسط ، وجاءت أساطيل البطالمة التجارية ، التى لا يستبعد أنهم استخدموا فيها خبراء من العرب عرفوا البحر وعرفوه قبلهم بعصور إلى البحر الذى يفصل ما بين مصر والجزيرة العربية ، والذى كان يعرف باسم الخليج العربى ، فأدى ذلك إلى ازدهار زراعة الجنوب العربى التجارية[٥]. واستمرت العلاقات بين العرب والمصريين قائمة بعد إنتهاء عهد البطالمة وانتقال مصر إلى قبضة الرومان . الذين جعلوها تابعة لحكم قياصرة روما ، وظهر أغسطس القناة التى تربط بين النيل والبحر الأحمر ، وعنى بالتجارة البحرية ومياه البحر الأحمر التى غصت بقراصنة البحر . وأوعز إلى حاكم مصر ايليوس جالوس ، بغزو جزيرة العرب للاستيلاء عليها وعلى ثروتها التى اشتهرت بها من الاتجار بالمر واللبان والبخور والأفاويه[٦].

(٢) المرجع نفسه ، ص ١٥ .

(٣) المرجع نفسه ، ص ٣٠ .

(٤) يرى بعض الباحثين أن هذه الميناء هى المعروفة قديماً باسم (الحوراء) وموقعها الآن لحمان بلدة أملج بمسافة قصيرة وآثارها لا تزال بارزة . انظر عن الحوراء « المعجم الجغرافى للبلاد العربية السعودية ، قسم شمال المملكة » .

(٥) عبد الله العزى ، المرجع السابق ، ص ٢٣

(٦) المرجع نفسه ، ص ٢٥ .

وعاش المصريون فى الحجاز ، بل فى مدينتيه الكبيرتين مكة ويثرب نفسها ، وقد حدث قبل بعثة الرسول صلى الله عليه وسلم بحوالى خمس سنوات سيل عظيم صدع جدران الكعبة ، فأعادت قريش بناءها مستعينة فى ذلك بنجار قبطى كان يسكن مكة ويدعى باقوم ، كما أن جبر بن عبد الله القبطى كان أحد الصحابة الذين أخذوا عن النبى دينهم . ولذلك يفخر قبط مصر به . وقد كان رسول المقوقس إلى الرسول صلى الله عليه وسلم بمارية والهدية . وفى سنة ٦١٠م كان يعيش فى الاسكندرية كثير من العرب إلى جانب غيرهم من الاغريق والقبط والسوريين واليهود ، الأمر الذى كان يجعل العاصمة المصرية من أشق البلدان حكماً[٧].

وكان عمرو بن العاص الذى قدر له أن يقود الجيش العربى الذى فتح مصر سنة ٢٠هـ تاجراً فى الجاهلية ، وتاجر فى الأدم (الجلد) والعطر ، وشهد أعياد أهل الإسكندرية وألعابهم[٨].

ولما فرغ عمرو من فتح مصر واستقامت له البلاد ، وضع التنظيم الأساسى للرباط ، فخصص ربع قواته للمرابطة فى الاسكندرية وحدها ، وربعاً آخر للمرابطة فى سائر السواحل المصرية ، أما النصف الباقى فاستبقاه معه فى الفسطاط العاصمة[٩]. ويذكر المؤرخون أن قوماً من العرب نزلوا فى الاسكندرية عقب الفتح على أن الاسكندرية لم يكن فيها خطط ، وإنما كانت « أخائذ » أى من أخذ منزلاً نزل فيه ، ويقال أن الزبير بن العوام اختط الاسكندرية[١٠] وقد بلغت حامية الاسكندرية فى عهد معاوية سبعة وعشرين ألف جندى ، منهم عشرة آلاف من أهل الشام وخمسة آلاف من أهل المدينة

(٧) المرجع نفسه ، ص ٣١ .

(٨) جمال الدين الشيال ، تاريخ مدينة الاسكندرية فى العصر الإسلامى ، ص ٣٤ ، سيدة إسماعيل كاشف ، تعريب مجتمع الاسكندرية ، ص ١٨٩ ، والبرى ، المرجع السابق ، ص ٣٢ .

(٩) جمال الشيال ، المرجع السابق ، ص ٣٧ ، وللمزيد من الهجرات العربية إلى مصر ، انظر صلاح هريدى ، دور الصعيد فى مصر العثمانية ، ص ١٥٩ - ١٩٠ .

(١٠) جمال الشيال ، المرجع السابق ، ص ٣٤ .

يرابط فيها دائما لحمايتها[11]. وظهر من العرب بعض رجال الفكر مثل طليب ابن كامل (ت ١٧٣هـ) وهو من أئمة المجتهدين وقد سكن الاسكندرية ، وطلق بن السمع الغافط (ت ٢١١هـ) وكان محدثا ومن رجال الأسطول المصرى أيضاً ابنه إبراهيم[12] وقد سكن الاسكندرية عويمر بن عبد الله أبى الدرداء الصحابى الجليل وهو خزرجى أنصارى ، أى أنه ينتمى إلى إحدى القبيلتين اللتين كانت لهما الزعامة والسيطرة فى المدينة ، وهما قبيلتا الأوس والخزرج كما أنه كان من الأنصار من أهل المدينة الذين رحبوا بالرسول عليه الصلاة والسلام عند هجرته إلى المدينة ، ونصروه على أعدائه ، وشاركوا فى فتح الاسكندرية[13] وأقام بعض الصحابة بالاسكندرية مثل عبد الله بن سعد ابن أبى سرح ، وأبو ذر الغفارى ومعاوية بن حديج[14] وعبد الرحمن بن هرمز (١١٧هـ / ٧٣٥م) وهو قرشى مدنى وارتبط بأسرة بنى هاشم أسرة الرسول صلى الله عليه وسلم – برابطة الولاء فهو مولى ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب ، وفى رأى آخر أنه مولى محمد بن ربيعة[15]، واستقرت أيضاً قبيلة جذام التى اشتركت فى الفتح التى ظلت تضطرم فى الإسكندرية ، منذ عام ١٩٦هـ حتى ثورة أسفل الأرض الكبرى عام ٢١٦هـ[16]. وحين اضطربت أمور الخلافة العباسية فى أثناء النزاع بين الخليفة العباسى الأمين وأخيه المأمون ظهر أثر ذلك النزاع فى مصر ، وأدرك المعاصرون من المصريين أن الذين وفدوا فى مصر إذ ذاك كانوا خارجين على الخلافة ومن بين هؤلاء الخارجين عبد العزيز الجروى الذى استولى على شرق الدلتا ، من شطنوف إلى الفرما ، والسرى بن الحكم الذى استولى على الوجه القبلى من مصر إلى أسوان ، أما غربى الدلتا بما فى ذلك الاسكندرية وأعمالها ومريوط والبحيرة

(١١) سيدة كاشف ، المرجع السابق ، ص ١٩٣ .

(١٢) عبد الله العمرى ، المرجع السابق ، ص ٤٧ .

(١٣) جمال الشيال ، أعلام الاسكندرية فى العصر الإسلامى ، ص ١٦

(١٤) المرجع نفسه ، ص ٢٤ .

(١٥) المرجع نفسه ، ص ٣٤ .

(١٦) عبد الله العمرى ، المرجع السابق ، ص ١٥٧ .

جميعها ، فقد ملكتها قبيلتا لخم وجذام ، وهما من العرب اليمنية أو عرب الجنوب . وكذلك ثورة بنى مدلج فى الاسكندرية ضد والى الخليفة العباسى عام ١٩٨هـ وبنو مدلج هم بطن من كنانة عرب الشمال[١٧].

وارتبطت بلاد الحجاز بسلطنة المماليك وكان يخطب لسلطان المماليك من منابر مكة بألقاب « سلطان البحرين وحامى الحرمين » وحصل سلاطين المماليك على أموال من رسوم تجارة الهند فى ميناءى جدة وينبع[١٨] إلا أن السيادة المملوكية بدأت تضعف فى أواخر سلطنة المماليك وخضعت مصر للعثمانيين وبخضوعها خضعت الحجاز تلقائياً ، لأنها كانت تتبع مصر تبعة تلقائية كذلك . ونجمل فيما يلى العوامل التى أدت إلى سيادة مصر على الحجاز[١٩].

أولاً : كان الحجاز - من الناحية الاستراتيجية - منطقة حيوية بالنسبة لمصر من الناحيتين الدفاعية والهجومية .

ثانياً : كانت مصر مركزاً لقوافل الحج التى تكفلت الحكومة المصرية بحراستها .

ثالثاً : إرسال كسوة الكعبة بالإضافة إلى وجود الأوقاف المحبوسة على فقراء مكة والمدينة وعلى الحرمين الشريفين .

وأثناء وجود سليم الأول فى مصر استقبل أبا نمى بن الشريف بركات الثانى ابن محمد - شريف مكة الذى جاء ليعلن خضوع وطاعة والده مثلما كان يخضع سابقاً للسلطان المملوكى . فأقره سليم فى شرافته وحرضه على قتل حاكم جدة المملوكى . وأبقى سليم على نظام الشرافة كما كان من قبل ، مع إنشاء (صنجقية) عثمانية فى جدة أطلق عليها العثمانيون اسم ولاية الحبش . وعين عليها حاكماً عثمانياً يدعى حسين الرومى وكان مرتبطاً بوالى مصر خاير

(١٧) سيدة كاشف ، المرجع السابق ، ص ٢٠١ .

(١٨) نعيم زكى فهمى ، طرق التجارة الدولية ومحطاتها بين الشرق والغرب ، أواخر العصور الوسطى ، ص ١٧ .

(١٩) عمر عبد العزيز عمر ، دراسات فى تاريخ العرب الحديث ، الشرق العربى من الفتح العثمانى حتى نهاية القرن الثامن عشر ، ص ٩٤ - ٩٥ .

بك[٢٠]. تلك لمحة سريعة عن تطور استقرار الحجازيين بمصر بصفة عامة ، والاسكندرية بصفة خاصة .

الحجازيون وحياتهم الاقتصادية :

وتعطينا وثائق المحكمة الشرعية سجلاً واضحاً لتعامل الحجازيين فى التجارة وأنواع السلع وطرق التعامل فى هذا الميدان .

فلقد تعامل الحجازيون فى مدينة الاسكندرية فى الجبن والعسل ، مع بعض المغاربة ، وكان يحدد قيمة الصفقة ونوع العملة[٢١] والأرز[٢٢] والدقيق[٢٣] والتين مع عرب الهوارة ، ويحدد وزن الكمية[٢٤] والقمح[٢٥] والجمال[٢٦]

(٢٠) عمر عبد العزيز ، المرجع السابق ، ص ٩٥ .

(٢١) سجل رقم ١ ، مادة ١٥٥٠ ، ص ٣٦٥ بتاريخ ٣ جمادى الأولى عام ٩٥٨هـ مايو عام ١٥٥١م وقد لوحظ أن العملة المستخدمة هى نصف فضة ، وهى نقد تركى ترجع أقدم إشارة إليه فى عام ١٥٨٣م . وقد ضرب أولاً من الفضة بقيمة أربع أنجات (اخشا) وسرعان ما اختلف مركز الاخشا باعتبارها الوحدة النقدية التركية الصغرى ، حتى أصبحت الفضة تساوى ١ : ٤٠ من الغرش بوزن قدره ست عشرة قمحة أى ١١و١ جرام ، ثم انخفض وزنها إلى ربع ذلك فى أوائل القرن الثامن عشر ، وقد أطلق الأتراك العثمانيون على الفضة اسم بارة القارسية . (انظر عبد الرحمن فهمى ، النقود المتداولة أيام الجبرتى ، ص ٥٧٣ ؛ وانظر أيضاً Stanford Shaw. Ottoman Egypt in the Age of the French Revolution, p. 167.

(٢٢) سجل رقم ٢٩ ، مادة بدون رقم ، ص ٥٨ بتاريخ ١٣ شعبان عام ٩٩٧هـ / يونيو ١٥٨٨م .

(٢٣) سجل رقم ٢٩ ، مادة ٢٥٣ ، ص ٩٧ بتاريخ ٢٤ جمادى الثانى ١٠٠٠هـ / ١٥٩١م .

ويلاحظ أن قيمة هذه الصفقة ثلاثة دينار ذهب سلطانى* جديد ولا يذكر كمية الدقيق .

(*) الدينار الذهبى الشريفى ، يساوى خمسا وعشرين بارة ولكن عقب انهيار قيمة النقد عام ١٥٨٤م ، أصبح كل خمس وثمانين بارة تساوى دينار شريفى ، (انظر ، عفاف سيد صبره ، دور الجامية العثمانية فى تاريخ مصر (٩٧١ - ١٠١٧هـ / ١٥٦٤ - ١٦٠٩م) رسالة ماجستير غير منشورة .

(٢٤) سجل رقم ٩٣ ، مادة ٩٤ ، ص ٩٤ ، بتاريخ ١٠ جمادى الثانى عام ١١٨٧هـ / أغسطس ١٧٧٣م . وتقدر الكمية بقنطارين*.

(*) القنطار ، وحدة من وحدات الوزن ، وكان حجمه يختلف تبعاً للزمان ، وكذلك المكان الذى كان يستخدم فيه عملية الوزن . وفى أواخر العصر المملوكى كان يتراوح وزن القنطار ما

والبقر[٢٧]، والمنسوجات ، وشمل ذلك قماش القلاع والفوط[٢٨] والنيلة[٢٩] .

أما طرق التعامل فى ميدان التجارة فكانت متعددة ولا شك فى أن بعض التجار كان يعمل لحسابه الخاص ، وسواء على مستوى صغير أو فى حجم تجارة كبيرة وهنا نجد أن أرشيفات المحكمة تسجل لنا ميادين تعاقده وخلافاته مع الغير الذين يتعامل معهم . وكان هناك من يقوم بتكوين شركات للتجارة . وهناك وثائق عن تكوين شركة لتجارة النيلة مع بعض السودانيين[٣٠].

ويشهد قطاع التجارة للحجازيين فى مدينة الاسكندرية الكثير من المنازعات فى هذا الميدان ، تعطينا صورة عن طريقة التعامل البسيطة وطريقة التقاضى والأحكام التى تصدر ، أو الطرق التى كانت تتبع لتسوية الخلافات الودية . وأرشيف المحكمة الشرعية بالاسكندرية ملىء بهذه الصور المعبرة عن أنماط وأساليب هذا العصر العثمانى .

وكانت هناك خلافات تنشأ فى قطاع الشراء بالأجل حول المبلغ المتبقى كما هى حالة أحد الحجازيين ، الذى أنكر تماماً ، ولم يستطع البائع إثبات حقه ، لأنه لم يقدم الدليل[٣١] وعلى هذا نرى أن البائع لم يقدم الدليل على إثبات حقه ،

بين ٤٥ ، ٩٦ كيلو جرام ، وفى سنة ١٦٦٥م وصل وزنه إلى ١٢٠ كيلو جرام (انظر جيوة فهمى إمارة الحج ، ص ١٢٠) .

(٢٥) سجل رقم ٣ ، مادة ٣٨٥ ، ص ١٢٨ ، بتاريخ ٢ ذى الحجة عام ٩٦٤هـ / ١٥٥٦م . انظر الملحق رقم (٢) .

(٢٦) سجل رقم ١١ ، مادة ٦٦٣ ، ص ١٦٧ ، بتاريخ ٢١ ذى الحجة عام ٩٥٧هـ / أكتوبر ١٥٥٠م .

(٢٧) نفسه .

(٢٨) سجل رقم ١ ، مادة ٧٧١ ، ص ١٦٧ ، بتاريخ ٢١ ذى الحجة الحرام ٩٥٧هـ / ١٥٥٠م . انظر الملحق رقم (١) .

(٢٩) سجل رقم ١٢ ، مادة ١٤٤ ، ص ٥٦ بتاريخ ٢٤ ذى الحجة عام ٩٨٥هـ / ١٥٧٧م . انظر الملحق رقم (٥) .

(٣٠) سجل رقم ١٢ ، مادة ١٤٤ ، ص ٥٦ ، بتاريخ ٢٤ ذى الحجة عام ٩٨٥هـ / ١٥٧٧م .

(٣١) سجل رقم ٣ ، مادة ٣٨٥ ، ص ١٢٨ ، بتاريخ ٢ ذى الحجة ختام شهور ٩٦٤هـ / ١٥٥٦م .

(*) الخولى ، وهى من ضمن وظائف الجهاز الإدارى فى ريف مصر العثمانية ، ومهمته أن يكون

والسؤال هنا هل أن هذه الصفقة قد تمت أم لا ؟ هذه أسئلة تحتاج إلى الإجابة عنها . وقد يطالب البائع بمبلغ أكثر من المطلوب ، ويحدث نزاع بين الاثنين ، كما هي في تجارة الجمال ، فقد باع أحد الحجازيين جملاً إلى أحد من يتولى وظيفة الخولي* ، واتفق على تحديد ميعاد للتسديد ، ولكن عند المطالبة أنكر ذلك ، ويحدث النزاع ويتوسط البعض ، وسوى مثل هذا الموقف بأن دفع المشترى مبلغاً يقل عن المطلوب[٣٢] ومن هنا نرى أنه ربما تكون الوساطة هي التي حكمت بذلك ، أو أن يكون الطرفان قد اتفقا على ذلك ، وقد يتفق على البيع بأقساط ، ولكن بعد دفع عدة أقساط ، يمتنع عن دفع الباقي ، وعندما يطالب ، ينكر ، ويذكر أنه قد دفع ثمن الصفقة بالكامل ، ويقسم بيمين الله تعالى ، كما حدث ذلك في تجارة الأقمشة الخاصة بقلاع المراكب[٣٣] كما حدث نزاع من نوع آخر ، فقد تعاقد أحدهم مع أحد عربان هوارة على توريد كمية من التين ، ولكن عند استلامها وجد بها عيباً ، وطالب المشترى برد المبلغ الذي دفعه ، ولكن سوى هذا الموقف ، ببيع الكمية على حالتها ، مع تحمل البائع فرق السعر[٣٤]، وحدث أن توفى البائع دون أن يستلم نقوده ، وطالب الورثة المشترى ، واعترف بالمبلغ ، وطالب بإعطائه فرصة للتسديد ، وقد نوحظ أن المبلغ الذي دفع بعد ذلك يقل عن المطلوب ، كما حدث في تجارة الجبن والعسل[٣٥] قد يكون هذا راجعاً إلى الاتفاق بينهم ، وبالإضافة إلى

مسئولاً عن حدود القرية . ويرى الأراضي المزروعة فعلاً ، ويصيب هذه الأراضي من الماء ويحافظ على صيانة قنوات الري (انظر Stanford Shaw The Financial and Administrative organization and development of Ottoman Egypt. pp. 54– 55

عبد العزيز الشناوي ، الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها ، جـ ١ ، ١٥٩ . عبد الرحيم عبد الرحمن ، الريف المصري في القرن الثامن عشر ، ص ٤٥) كما أنه يقسم المنازعات التي تنشأ في هذا الموضوع وخاصة الأراضي التي تزرع بالسخرة (انظر إبراهيم زكي ، الحالة المالية والتطور الحكومي والاجتماعي في عهد الحملة الفرنساوية وعهد محمد علي ، ص ٣٤) .

(٣٢) سجل رقم ٨ ، مادة ٣٧٦ ، ص ١٣٨ ، بتاريخ ٢٢ جمادى الأولى عام ٩٧٣هـ / عام ١٥٦٥م . سجل رقم ١٤ ، مادة ٢٠ ، ص ٦ بتاريخ ٢٢ جمادى الأولى عام ٩٨٧هـ / ١٥٦٩م .

(٣٣) سجل رقم ١ ، مادة ٧٧١ ، ص ١٦٧ ، بتاريخ ٢١ ذي الحجة الحرام ٩٥٧هـ / ١٥٥٠م .

(٣٤) سجل رقم ٣ ، مادة ١٣٤٠ ، ص ٣٢٠ ، بتاريخ ٢٤ ذي الحجة عام ٩٨٧هـ / ١٥٧٩م .

(٣٥) سجل رقم ١ ، مادة ١٥٥٠ ، ص ٣٦٥ ، بتاريخ ٣ جمادى الأولى عام ٩٥٨هـ / ١٥٥١م

ذلك ، فقد كان الدفع الفورى ونقداً فى الحال ، وفى مثل هذه الحالة يبرىء كلاً منهما الآخر[٣٦] كما فى تجارة البقر ، عندما باع أحد أفراد جماعة الجراكسه بالمدينه من بلوك ١١* بقرة إلى أحد تجار الجمال ودفع ثمنها بالكامل ، وقد برأ كل منهما الآخر[٣٧].

أما بالنسبة لشراء وبيع العقارات بالاسكندرية فقد شملتهم فى هذا المجال ، وتم الشراء عن طريق الوكالة لأحدهم ، وقد يكون هذا الشراء منزلاً كاملا ، وفى هذه الحالة يذكر مواصفات المنزل بالتفصيل ، كما نص عقد البيع ، على استلام البائع الثمن نقداً ، وأن المشترى قد استلم المنزل[٣٨] واشترى أحدهم بصفته وصياً على أخواته البنات منزلاً محدداً مواصفاته أيضاً[٣٩] وأحياناً يشترى أحدهم حصة فى منزل لأحد الأهالى ، ولابد فى هذه الحالة ان يثبت البائع ، أن هذه الحصة قد انتقلت إليه عن طريق الإرث لوفاة أمه ، وعليه أيضاً أن يحدد

كانت قيمة الصفقة تقدر بستة وثلاثون نصف فضة سليمانية ، ولكن اتفق على دفع أربعة وثلاثين نصف فضة .

(٣٦) سجل رقم ١١ ، مادة ٦٣٣ ، ص ١٦٧ ، بتاريخ ١٢ شوال عام ٩٧٨هـ / ١٥٧٠م .

(*) بلوك ، البلوك أو البلك من المصدر التركى بولمك أى أن يقسم . وكلمة بلوك القسم أو الجزء . وكان الأوجاق ينقسم إلى وحدات صغرى باسم البلوكات وكان رئيس كل وحدة يعرف باسم البلوك باشي ، (انظر ، أحمد السعيد سليمان ، تأصيل ما ورد فى تاريخ الجبرتى من الدخيل ، ص ٤٤) وكان كل أوجاق ينقسم إلى عدد من الوحدات تعرف باسم البلوكات ، ويحمل كل بلوك رقماً منسوباً إلى الأوجاق الذى ينتمى إليه مقروناً باسم الأوجاق (انظر ، عفاف سعد العبد ، دور الجامية العثمانية فى تاريخ مصر ، ص ٨٤) .

(٣٧) سجل رقم ١١ ، مادة ٦٣٣ ، ص ١٦٧ ، بتاريخ ١٢ شوال عام ٩٧٨هـ / ١٥٧٠م .

(٣٨) سجل رقم ٣٨ ، مادة ٨٥٨ ، ص ٢٢٣ ، بتاريخ ٢٢ جمادى الثانى عام ١٠٢٩هـ / ١٦١٩م .

ويذكر هنا أن الثمن بالزر محبوب ، والزر المحبوب ، نقد تركى ضرب فى عهد السلطان مصطفى الثانى (١١٠٦ - ١١١٥هـ / ١٦٩٤ - ١٧٠٣م) أورد صورته إسماعيل غالب فى نقوم مسكوكات عثمانية (ص ٤١٥) وهو يزن بين أربعة حبة أى ٢ر٦ جم ، وقد أطلق عليه فى الدولة العثمانية (طغرالى التون) وإذا كانت التون تعنى فى التركية الذهب فإن طغرى نسبة إلى نقش الطغراء أو الطره باسم السلطان على أحد وجهى هذا النقد . (انظر عبد الرحمن فهمى ، المرجع السابق ، ص ٥٧٥) .

(٣٩) سجل رقم ٤١ ، مادة ٧٨ ، ص ٤٥ ، بتاريخ ٢٤ ذى الحجة عام ١٠٦٤هـ / أكتوبر ١٦٦٣م .

مقدار هذه الحصة ، وحدودها[٤٠] كما اشترى أحدهم حصة فى منزل آخر[٤١] واشترت إحدى النساء من زوجها حصة فى منزل وقد قام بعض الأشراف* من سلالة سيدنا محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة والذين يعملون بقلعة

(٤٠) سجل رقم ٥١ ، مادة ١٨٧ ، ص ٧٨ ، بتاريخ ٢ ربيع الأول عام ١٠٧٤هـ / أكتوبر ١٦٦٣م .

(٤١) نفسه ولم يحدد القسم المدفوع .

سجل رقم ٦٥ ، مادة ٩٦ ، ص ٩٦ ، بتاريخ ٢٥ ربيع الثانى ١١٣٠هـ / ١٧١٧م .

(*) الأشراف ، كلمة أشراف تعنى أولئك الأفراد الذين هم من نسل سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، سواء أكانوا عن طريق الحدارهم من الأم أو الأب ، ولم يكن هؤلاء بالضرورة رجال الدين ، وإنما كان منهم التاجر والصانع والفلاح ، وقد تمتع الأشراف باحترام خاص بين جموع الناس وشكلوا جماعة منفصلة ومتميزة وكان يطلق على رئيس هذه الجماعة اسم نقيب الأشراف أو النقيب ، وتختاره الدولة من أبرز هؤلاء الأشراف ، وكانت وظيفته محترمة ، وكان لنقيب الأشراف فى استانبول سلطة على نقباء الأشراف فى الولايات وهو الذين يعينهم ، وكانت له سلطة قضائية عليهم ، وكان نقيب الأشراف فى مصر يرسل من استانبول فى بداية العهد العثمانى ، واستمر ذلك حتى القرن الثامن عشر ، ثم أصبح يتولاها فى مصر شيخ السجادة البكرية من آل البكرى فى مصر . وكان نقيب الأشراف يحضر الاجتماعات الإدارية الهامة التى كانت تعقدها الإدارة فى مصر فى شكل جمعيات لحل الأزمات العامة ، وذلك باعتباره شخصية هامة لها وزنها فى المجتمع ، ولها تأثير كبير على أتباعها ، وكان النقيب يتولى منصبه لمدى الحياة . (انظر إبراهيم بوناس سلطح ، تاريخ مصر العثمانية ، من خلال تحقيق مخطوط تحفة الأحباب فى نوابى مصر من الملوك والنواب ، ١٧٨) .

(*) قلعة الركن ، تذكر عفاف السيد (المرجع السابق ، ص ٧٩) بأنه يبدو أن هذه القلعة تقع على منارة الاسكندرية القديمة ، حيث أقام المسلمون على هذه المنارة قلعة صغيرة بها برج كان يستخدم لحماية السفن القادمة إلى الإسكندرية ويعرف هذا المكان الآن بطابية قايتباى ويقع فى الجهة الشرقية من شبه جزيرة رأس التين .

(*) برج مصطفى باشا ، يقع على شاطىء البحر المتوسط شرق رشيد ويعرف رجاله باسم طائفة حصار مصطفى باشا (انظر عفاف السيد ، المرجع السابق ، ص ٨٠) .

(*) أورده باشى ، من التركية أورده أى الفرقة ويطلقها الانكشارية على العسكر وباشى أى الرئيس والياء علامة الإضافة . وهى تعنى رئيس الفرقة . وقد رأينا كيف كان الأوجاق ينقسم إلى عدد من البلوكات . وكان البلوك ينقسم إلى عدة وحدات صغرى ، كان يطلق على كل منها اسم أورده وعرف رئيسها بالأورده باشى (انظر أحمد السعيد سليمان المرجع السابق ، ص ٦٨) .

(*) مستحفظان ، وهى كلمة مستحفظ فى اللغة الفارسية والمستحفظ من يقوم بالمحافظة على حدود الدولة ، أى من يقوم بالدفاع عن القلاع والحدود من الانكشارية وكانت تخصص لهم العلوفات (Stanford Shaw, op. cit, p 189) .

الركن* ببرج مصطفى باشا* من بعض المتولين وظيفة أوده باشى* بباب مستحفظان* لحساب بيت المال* قطعه أرض خلاء[٤٢] كما لوحظ أيضاً قيامهم بالمشاركة فى شراء قطعة من الأرض ومنزل[٤٣].

أما خصوص البيع فى هذا المجال ، فقد باع أحد الأشراف فى المدينة إلى أحد الإسكافيين كل نصيبه فى المنزل[٤٤]، كما باع أحد نصيبه فى الإرث الشرعى لأخيه[٤٥]، وباعت إحدى النساء حصتها فى منزل لزوجها بعد موافقة شريكها فى المنزل خصمه شراء حصتها بحق الشفعة[٤٦] ووضح من الوثيقة أنه لم يذكر ثمن البيع ربما يكون هذا البيع صورياً . وأحياناً يتم البيع بالوكالة عن زوجته كحصة فى منزل[٤٧].

(*) بيت المال ، هو التزام ما يعود للخزينة من رسوم وحقوق وموارث من لا وارث له من عامة الناس ، أو من رحال الدولة وجندها وموظفيها . (انظر ، ليلى عبد اللطيف ، الإدارة فى مصر فى العصر العثمانى ، ص ٤٤٣) .

(٤٢) سجل رقم ٧١ ، مادة ١٠٤ ، ص ٩٢ بتاريخ أواخر المحرم عام ١١٤٣هـ / ١٧٣٠م .
وقد لوحظ أن العملة المستخدمة هنا هى نصف الفضه والقرش* والمزيد من التفصيلات انظر سجلات أرقام ٩١ ، ٩٢ ، ٩٥ ، ١٠٤ ، مواد ٥٦٥ ، ٢٠ ، ١٦٠ ، ٦٩ ، ٢٨٢ ، ١٠٣ ، صفحات ٤١٢ ، ١٣ ، ١١٩ ، ٤٦٠ ، ٤٧ ، ٢٦٨ ، ٦٦ ، بتواريخ ٥ رجب ١١٨٦هـ / ١٧٧٣م ، ١٠ جمادى الثانى ، ١١٨٧هـ / ١٧٧٣م ، غرة رمضان المعظم ١١٨٨هـ / نوفمبر ١٧٧٤م ، ٢٠ ذى القعدة عام ١١٨٥هـ / ١٧٧٢م .
(*) القرش ، فى الأصل تعريب Groshen الألمانية وهى تعنى البياستر Piaster أى النقد الأسبانى ، الفضة الذى بدأ ضربه وتداوله فى مطلع القرن السادس عشر الميلادى ، ثم استقر التعامل التجارى مع بلدان الشرق العربى ، فأطلق على البياستر الفضة اسم غرش وقرش أو ارش كما يسميه العامة فى مصر وقد ضرب هذا النقد فى تركيا لأول مرة فى عهد سليمان الثانى (١٦٨٦ - ١٦٩٠) وفى مصر ضربت القروش فى عهد على بك الكبير لأول مرة عام ١١٨٣هـ / ١٧٦٩م (انظر عبد الرحمن فهمى ، المرجع السابق ، ص ٥٧٤) .

(٤٣) سجل رقم ٥١ ، مادة ٦٩٨ ، ص ٣٢٥ ، بتاريخ ٢٩ رجب عام ١٠٧٥هـ / ١٦٦٥م .

(٤٤) سجل رقم ٥٤ ، مادة ٩ ، ص ٧ بتاريخ ٢٩ رجب عام ١٠٧٥هـ / ١٦٦٥م .

(٤٥) سجل رقم ٦٦ ، مادة ١٩٤ ، ص ١٣٢ ، بتاريخ ٢٨ رجب عام ١١٣٢هـ / ١٧١٩م .

(٤٦) نفسه .

(٤٧) سجل رقم ٥٧ ، مادة ٣٧٣ ، ص ١٦٤ ، بدون تاريخ .
وتقدر الحصة بثلاثة قراريط .

وأخيرا علينا أن نذكر أن سجلات المحكمة الشرعية بالاسكندرية ، تشتمل على نوع جديد من النشاط المالى ، والخلافات التى كانت تحدث فيه ، وهو ميدان الاقتراض ، ثم ما قد يترتب عليه من خلافات فى تسديد مثل هذه الديون ، ولقد شارك الحجازيون فى الاسكندرية فى نشاط هذا الميدان ، فكانوا يقترضون من بعضهم ، كما كانوا يقترضون ويقرضون بعض أبناء مدينة الاسكندرية والمغاربة[٤٨] وبعض نساء الخاسكيات[٤٩].

وكان الكثير من عمليات الاقتراض تنتهى بخلافات وبسداد المقترض ما قام باقتراضه ، ولكن سجلات المحكمة الشرعية لا تحتفظ إلا بالأمور الذى حدث فيها خلاف وفى أشكال متعددة .

وكان صاحب المال يطالب أحياناً المقترض بضرورة رهن بعض البضائع حتى يتم تسديد القرض[٥٠] واقتراض البعض ، وسدد جزء منه ، وقسط الباقى[٥١] أو سدد القرض على أقساط شهرية[٥٢] أو حدد الدائن ميعاد التسديد على حسب رغبته[٥٣]، وإذا نظرنا إلى ذلك نجد أنه من الممكن أن يطالب الدائن المدين فى أى وقت يرغبه ، ومن المحتمل ألا يكون مستعداً للتسديد ، وتحدث نتيجة ذلك بعض المشاكل ، كما هو متبع فى مثل هذه الحالة . وقد يكون القرض فى ثمن بضاعة مثل علف الجمال ، ويتضح من هذه الوثيقة أن المدين قد دفع ما عليه فى الميعاد المحدد[٥٤] أولاً لإصلاح مركبه ، ولكن تمر سنوات دون أن يدفع ، وعند المطالبة بالتسديد ، أنكر المقترض ، قيمة القرض

(٤٨) سجل رقم ١١ ، مادة ٦٣٦ ، ص ١٩٧ ، بتاريخ ١٢ شوال عام ٩٧٨هـ / ١٥٧١م .
(٤٩) سجل رقم ١٤ ، مادة ٨٩٥ ، ص ٢٥٦ ، بتاريخ ١٧ ذى القعدة عام ٩٨٧هـ / ١٥٧٩م .
(٥٠) سجل رقم ٢٦ ، مادة بدون رقم ، ص ٥٨ بتاريخ ١٢ شعبان عام ٩٩٧هـ / ١٥٨٨م .
(٥١) سجل رقم ٢٦ ، مادة ٣٠٦ ، ص ١٠٢ ، بتاريخ ١٥ رمضان عام ٩٩٧هـ / ١٥٨٨م .
(٥٢) سجل رقم ٣ ، مادة ١١٥ ، ص ٣٩ ، بتاريخ ١٤ شوال عام ٩٦٤هـ / ١٥٥٦م .
(٥٣) سجل رقم ١١ ، مادة ٥٧٦ ، ص ١٥٦ ، بتاريخ ١٧ ذى القعدة عام ٩٧٨هـ / ١٥٧١م .
(٥٤) سجل رقم ١١ ، مادة ٦٢٦ ، ص ١٦٧ ، بتاريخ ١٢ شوال عام ٩٧٨هـ / ١٥٧١م .

نفسه ، واستشهد بالبعض الذين شهدوا بسماع الحديث عن قيمة القرض ولم يشاهدوا إتمام القرض[٥٥].

وكثيراً ما كان أفراد الحرف الواحدة يقترضون من بعضهم البعض ، أو من بعض أفراد الحرف الأخرى ، مثال ذلك اقتراض بعض الصرافين من بعض الطحانين[٥٦].

أما بالنسبة للأمانات والرهونات ، فقد أودع أحد الأشخاص الذين يتولون وظيفة المحتسب[٥٧] لدى أحدهم مثل بعض الأدوات لحفظها فى محلة بعض الوقت ، وعند مطالبته بردها ، أخبره بأنها قد فقدت منه ، وحدث نزاع بين الطرفين وتدخل البعض ، وانتهى الأمر بدفع ثمنها على قسطين ، وقد ضمن البعض هذا الاتفاق[٥٨].

أما احترافهم لبعض الحرف ، فلابد من الإشارة السريعة إلى تكوين نظام الحرف فى تلك الفترة ، الذى كان قائماً على التكوين الدينى والعرق للطوائف فمع استثناءات قليلة ، كان أعضاء الطائفة ينتمون إلى نفس المجتمع المحلى الدينى أو العرق ، وإذا مارس أعضاء نفس الديانة نفس الحرفة فإنهم يشكلون طائفة من التجار كذلك يشكلون طوائف على حسب بلادهم ، ونوع تجارتهم ، وعبادتهم الدينية[٥٩] وقد وجدت حرف أخرى شارك المسلمون بغيرهم من الذميين مثل حرفة صناعة الأحذية ، وحرف العطارة[٦٠].

(٥٥) سجل رقم ٨٤ ، مادة ٨٠ ، ص ٣٢ ، بتاريخ أوائل شعبان عام ١١٧١هـ / ١٧٥٧م .

(٥٦) سجل رقم ٣٩ ، مادة ٤١٥ ، ص ١٢٨ ، بتاريخ ١٧ جمادى الأولى عام ١٠١١هـ / ١٦٠٢م .

(٥٧) المحتسب ، ويعرف بأمين الحسبة الشريفة ، وقد اشترط فى شغل هذا المنصب فى العصر الإسلامى التفقه فى الدين . وكان هذا المنصب قاصراً طوال العصر العثمانى على أفراد الجاويشية . وكان المحتسب يقوم بالإشراف على الأسواق وضبط الموازين والمكاييل وتسعير المواد التجارية وضبط الأمن (انظر ، عفاف السعد ، المرجع السابق ، ص ٧٥) .

(٥٨) سجل رقم ١٦ ، مادة ١٠٧٤ ، ص ٣٩٠ ، بتاريخ ١٧ جمادى الثانية ٩٩٥هـ / ١٥٨٦م .

(٥٩) Baer Gabrial Guild in Egypt in Modern times, p. 21.

(٦٠) ليلى عبد اللطيف ، دراسات فى تاريخ ومؤرخى مصر والشام إبان الحكم العثمانى ٨٣ .

وقد اشترك الحجازيون في مدينة الاسكندرية في قطاع الحرف والصناعات ، جديرا أن نذكر أنهم كانت صناعات صغيرة ، وتعتمد على ورش صغيرة ، وكانوا يستخدمون الحرير الخام ، ثم يقومون بصناعته حسب المطلوب[٦١] وشارك بعضهم في حرفة الصياغة ، وأحيانا قام بعضهم بهذه الحرفة لحساب غيره ، فاستلزمه كمية من الفضة من إحدى السيدات ليصوغها لها ، ولكن اتضح بعد ذلك أنه لم يقم بتسليم المطلوب ، بالإضافة إلى نقص المبلغ ، ولكن ثم عاد واعترف بأن إحدى صديقاتها قد استلمتها[٦٢]. ولكن لا يعرف على أساس تصرف مثل هذا التصرف . واحترف بعضهم حرفة التجارة على المراكب[٦٣] وقد نوحظ أن بعضهم كان يعمل على مراكب الغير ، وفي مثل هذه عقد اتفاق بين صاحب المركب والتجارة ، ويحدد أجورهم ، حيث كانوا يعادلون في أجورهم مع التجارة الآخرين من الجنسيات الأخرى[٦٤] ولكن في حالات أخرى حدثت بعض المشاكل على تحديد الأجر المتفق عليه[٦٥] وعمل بعضهم بالصيارفة[٦٦] والتجارة[٦٧]، والطبالين[٦٨].

وهكذا نجد أن الحجازيين قد ساهموا في جميع ميادين النشاط الاقتصادي مع غيرهم من سكان مدينة الاسكندرية ، سواء في التجارة أو الأموال أو الحرف والصناعات ، وعلى قدم المساواة مع غيرهم من رعايا الدولة العثمانية .

(٦١) سجل رقم ١١ ، مادة ١١٧ ، ص ٣٥ بتاريخ ١٦ رجب عام ٩٧٨هـ / ١٥٧٠م .
(٦٢) سجل رقم ١ ، مادة ١٦٢ ، ص ٣٥ بتاريخ ١٧ رمضان عام ٩٥٧هـ / ١٥٥٠م .
(٦٣) سجل رقم ٣٧ ، مادة ١٠٢ ، ص ٢٦ ، بتاريخ ١٧ ربيع الأول عام ١٠٢٠هـ / ١٦١١م
(٦٤) سجل رقم ٢٣ ، مادة ٥١٨ ، ص ١٤٥ ، بتاريخ مستهل شعبان عام ٩٩٥هـ / ١٥٨٦م .
(٦٥) سجل رقم ٤٩ ، مادة ٤٦٩ ، ص ١٧٦ ، بتاريخ ١٤ محرم ١٠٦٥هـ / ١٦٥٤م .
(٦٦) سجل رقم ١٨ ، ٣٥ ، ٣٨ ، ٣٩ وهي سجلات بها الكثير عن هذه الحرفة .
(٦٧) سجل رقم ٢٣ ، مادة ٥١٨ ، ص ١٤٥ ، تاريخ مستهل شعبان عام ٩٩٥هـ / ١٥٨٦م .
(٦٨)

ثانياً : حياتهم الاجتماعية :

أما بالنسبة لحياتهم الاجتماعية فى مدينة الاسكندرية فقد تعددت فشملت الزواج والطلاق والميراث والأوقاف ، والاعتداءات على بعضهم البعض أو مع الآخرين ، والميراث ، والأوقاف ، والأشراف ، وغير ذلك من مظاهر الحياة الاجتماعية الأخرى .

وبالنسبة للزواج ، فقد شمل ذلك زواجهم من بنات الأهالى[٦٩] وينص عقد القران على المقدم والمؤخر ، وأيضاً الكسوة السنوية ، وأن المؤخر كان يقسط على أقساط شهرية[٧٠] كما كان أحياناً المقدم أقل من مؤخر الصداق[٧١]. وهناك ما عرف بالزواج المشروط ، مثال ذلك تشترط إحدى الزوجات على زوجها ، بأنه إذا تزوج بغيرها ، تكون طالقاً منه دون أن يطلق اللفظ نفسه[٧٢]. كما شمل الزواج من إحدى بنات المغاربة[٧٣] وأيضاً من بعض المعتوقيات الحبشيات[٧٤] والزواج من أرامل ، على أن تذكر أنها قد أوفت العدة الشرعية[٧٥]، بالإضافة إلى الزواج من أرملة ومعها أولادها ويتعهد فى مثل هذه الحالة الإنفاق عليها وعلى أولادها[٧٦].

واتفق عند الطلاق على اقتسام أثاث المنزل وغير ذلك ، وفى مثل هذه الحالة تتطلب من مطلقها رد بعض الأشياء الخاصة بها[٧٧]، وقد تم الطلاق فى بعض الحالات بناء على طلب الزوجة الحامل[٧٨] أو بناء على طلب وكيلها مثل زوج

(٦٩) سجل رقم ٧٢ ، مادة ٢٣٠ ، ص ١٧٨ ، بدون تاريخ .
(٧٠) سجل رقم ٤ ، مادة ٥١٨ ، ص ٣٨٦ ، بتاريخ ١٩ شوال عام ٩٨٠هـ / عام ١٥٧٣م
(٧١) سجل رقم ١٦ ، مادة ١١٥٨ ، ص ٤٣٣ ، بتاريخ ٢ محرم عام ١٠١٤هـ / ١٦٠٥م .
(٧٢) سجل رقم ١٨ ، مادة ٤٤ ، ص ١٥ ، بتاريخ ١٠ جمادى الأولى عام ٩٩٠هـ / ١٥٨٣م .
(٧٣) سجل رقم ٥١ ، مادة ٥ ، ص ١٤٤٣ ، ص ٥ ، ٦١٦ ، بتاريخ ١٨ رمضان ١٠٧٧هـ / ١٦٦٦م .
(٧٤) سجل رقم ٧١ ، مادة ٥٦٦ ، ص ٢٤٣ ، بتاريخ ٢٧ جمادى الأولى عام ١٠٩٧هـ / ١٦٨٥م .
(٧٥) سجل رقم ٢٩ ، مادة ٢٨٤ ، ص ١٠٦ ، بتاريخ ٤ رجب عام ١٠٠١هـ / ١٥٩٢م .
(٧٦) سجل رقم ٣٥ ، مادة ٦٨٤ ، ص ٢٣١ ، بتاريخ ٢٤ ذى القعدة عام ٩٩٦هـ / ١٥٨٧م .
(٧٧) سجل رقم ١ ، مادة ٣٣٣ ، ص ٧٢ ، بتاريخ ٩ شوال عام ٩٥٧هـ / ١٥٥٠م .
(٧٨) سجل رقم ٣ ، مادة ١٠٦ ، ص ٣٦ بتاريخ ١٣ شوال عام ٩٦٤هـ / ١٥٥٦م .

أمها ، ففى هذه الحالة ، يطلب الزوج منها التنازل عن مؤخر الصداق[٧٩]. ومن هنا نرى أن المطلق اشترط على مطلقته بأن الطلاق لن يهم ما لم تبرئه من مؤخر الصداق ، ولا نعرف سبباً لذلك .

وتضمنت الحياة الاجتماعية نمطاً آخرا مثل الاعتداء على بعضهم البعض أو الاعتداء عليهم من جانب الأهالى ، وغير ذلك ، واتخذت أنواعاً متعددة مثل التلفظ بألفاظ نابية ، فقد اعتدى بعض الاتكاوية على بعضهم باللفظ بقوله « طعريك يا حرامى » ، وكان من نتيجة ذلك طالب بالتعويض ، وعند المواجهة أنكر ، واستشهد بالبعض ، واتضح بعد ذلك بأن الطرف الآخر قد استولى على علف جماله ، مما أدى إلى أن الاثنين قد تبادلا الألفاظ النابية ، وترتب على ذلك أن القاضى قد أصدر حكماً ضدهما[٨٠]، كما اعتدى أحد الأهالى على أحدهم بألفاظ نابية ، وعند مواجهته أنكر حدوث ذلك ، ولكن أكد الشهود ذلك[٨١]، وعلى الجانب الآخر اعتدى أحدهم على بعض الزياتين بلفظ نائب، وطالب بالتعويض المناسب[٨٢].

أما الميراث فإنه اختلف حسب نوعه ، فقد يكون الميراث عبارة عن أموال ثمن بضاعة ، باعها التاجر قبل وفاته ، ففى مثل هذه الحالة طالب الورثة المشترى بالمبلغ ، الذى وعد بالتسديد ، بعد خصم نسبة منه[٨٣]، وقد تكون التركة تشمل بعض الأبنية ، وبضاعة ومراكب وعقارات ، مشاركة بينه - المتوفى - وبين أخيه ، وأراد أبناؤه الانفراد بالميراث وحدهم ، ولكن يثبت أخوه حقه فى المشاركة ، وانتهى الوضع على تقسيم الميراث مناصفة[٨٤] أو أن يكون الميراث عبارة عن إحدى المعترقات[٨٥] أما بالنسبة للوصاية على

(٧٩) سجل رقم ٩ ، مادة ١٨٦ ، ص ٥٨ ، بتاريخ ٨ رجب عام ٩٨٥هـ / ١٥٧٧م .
(٨٠) سجل رقم ١٤ ، مادة ٢٠ ، ص ٦ بتاريخ ، ٢٥ جمادى الأول عام ٩٨٧هـ / ١٥٧٩م .
(٨١) سجل رقم ١١ ، مادة ٥٧٦ ، ص ١٥٦ ، بتاريخ ١٧ شوال عام ٩٨٧هـ / ١٥٧١م .
(٨٢) سجل رقم ٢٣ ، مادة ٥١٨ ، ص ١٤٥ ، بتاريخ مستهل عام ٩٩٤هـ / ١٥٨٥م .
(٨٣) سجل رقم ١ ، مادة ١٥٤٠ ، ص ٣٦٥ ، بتاريخ ٣ جمادى الأول عام ٩٥٨هـ / ١٥٥١م .
(٨٤) سجل رقم ٦٤ ، مادة ٥٠ ، ص ٣١ ، بتاريخ أواخر ذى القعدة عام ١١٢١هـ / ١٧١٠م .
(٨٥) سجل رقم ١١ ، مادة ١١٧ ، ص ٣٥ ، بتاريخ ١٦ رجب عام ٩٨٧هـ / ١٥٧٠م .

التركات ، فقد تكون الوصية إحدى السيدات ، لإخوتها الأشقاء ، وإخوتها من الأب ، فتلك تقوم بتقسيم التركة ، وانصفوا على استلام نصيبهم من الميراث نقدياً ، وكتبوا حجة بذلك[٨٦]، وأحياناً تتنازل إحدى السيدات الوصية على أولادها القصر ، لوالدهما ، على أن يدفع مبلغاً معيناً يومياً لكل منهم[٨٧]، أما بالنسبة للنزاع على الميراث ، فقد حدث نزاع بين أحد الورثة عقب وفاة إحداهن ، وانحصر إرثها في أولاد عمها ، ولكن طالب أحد أبناء أخيها في الميراث ، وثبت بعد ذلك أن ابن أخيها من والدتها ، وتطور النزاع ، وتدخل وجهاء القوم في المدينة لحل هذا النزاع مثل دزدار* الحصار الكبير الاشرف* والجوربجي* وأغا الحوالة* لإنهاء هذا النزاع[٨٨]. وقد نوحظ أن أحدهم شهد على بعض الوصيات[٨٩].

ويأتي بعد ذلك الأوقاف ، أحدهم من أوقاف الطريقة البرهانية* بعض الأراضي الحجازية[٨٩]، وأوقف بعضهم مكاناً بجوار مقام الشيخ ياقوت العرش

(٨٦) سجل رقم ٦٤ ، مادة ٥٩ ، ص ٣٥ بتاريخ أواخر ذي القعدة عام ١١٢١هـ / ١٧١٠م .

(٨٧) سجل رقم ١٤ ، مادة ٤٢ ، ص ١٣ بتاريخ جمادى الأولى عام ٩٨٧هـ / ١٥٧٩م .

(*) الحصار الأشرف ، أنشأه السلطان قانصوه الغوري (١٤٦٨ - ١٥١٦) . انظر محمد بن أبي السرور البكري ، كشف الكربة برفع الطلبة ، تحقيق عبد الرحيم عبد الرحمن ، ص ٣٢٧ .

(*) دزدار ، كلمة فارسية مكونة من مقطعين ، دز بمعنى مستحفظ أو حاكم ، ودار بمعنى قلعة ، فالكلمة تعني مستحفظ قلعة أو قائد قلعة (انظر ، إبراهيم بونس ، المرجع السابق ، ص ٤٧) .

(*) الجوربجي ، هو الحائز على رتبة عسكرية تعادل الجوباشي (والنقيب) وكان يطلق في الاستعمال العثماني على ضباط الانكشارية ، والجوربجية هم الرسل الذين كانوا يرسلون إلى الأماكن البعيدة لتسليم الرسائل وجمع الضرائب (انظر محمد شفيق غربال ، مصر عند مفترق الطرق ، ص ٢١) .

(*) أغا آمر ، بمثل سيد ، ضابط الخدام والأتباع ، (انظر ليلى عبد اللطيف ، الإدارة في مصر ، ص ٤٣٩) .

(٨٨) سجل رقم ٧٢ ، مادة ٢٣٠ ، ص ٦٧ ، بتاريخ مستهل شهر صفر الخير ١٠٥١هـ /

(٨٩) سجل رقم ٤٦ ، مادة ١٧٨ ، ص ٦٧ بتاريخ مستهل شهر صفر الخير ١٠٥١هـ / ١٦٤١م .

(*) الطريقة البرهانية ، وهي إحدى الطرق الصوفية التي كانت موجودة في العصر العثماني (انظر توفيق الطويل ، التصوف في مصر إبان العصر العثماني ، ص ٧٥) .

اشتمل على ست لسكن ، وبيت آخر وقطعة أرض خالية ، بالمكان المذكور ، وحدد حدوده . وقد ذكر بالحجة أن هذه الأشياء آيلة له بالميراث الشرعي من قبل والديهما . وأقر بأنهما وقفا ذلك شرعاً بحيث لا يباع ولا يوهب لأحد ولا يرهن ، ولا يستبدل جزءا منه أو بعضه . ويظل هذا الوقف إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين ، واشترط المستفيدان من الوقفية أن يتم الصرف على مقام سيدى ياقوت العرش ، وعلى فقراء المسلمين من قبل أنفسهما وفى ذريتهما من بعدهما ومن هم فى درجات القرابة ، وعين الناظر على الوقف وحدد واجباته التى تشمل الصرف على الوقف والعناية بالمبانى وصيانتها وغير ذلك من الشروط الأخرى[٩٠].

وفى النهاية يأتى منصب نقيب الأشراف كما سبق أن أشرنا ، فقد تولاه الشرايفة بالمدينة ، وكتب وصيته التى يجب اتباعها بخصوص ذلك ، وهو اتباع الحسنى واتقاء الله[٩١] كما تولى بعض الأشراف الوظائف الأخرى مثل وظيفة ناظر شرعى على مقام سيدى عبد الرازق وزاويته وخادمة السجادة الشريفة ، ونقيبا بالزاوية والضريح الشريف ، وعليه عمارة الضريح ، والقراءات حسب الطريقة والشريعة وإمام الشعائر بها[٩٢] وتولى بعضهم وظيفة جورجى بالخصاص الكبير الأشرف .

هكذا ساهم الخجازيون فى الحياة الاجتماعية بكافة أوجهها ، وفى الختام أدعو الله سبحانه وتعالى ، أن أكون قد وفقت بعض الشىء فى إلقاء بعض الضوء على حياتهم الاقتصادية والاجتماعية ، وأن أسد ثغرة فى تاريخنا الحديث والله وحده ولى التوفيق .

(٩٠) سجل رقم ١ ، مدة ٩٥٨ ، ص ٢١٧ ، بتاريخ ٢٨ [illegible] ٩٥٨ هـ / ١٥٥١ م .

(٩١) سجل رقم ٦٠ ، مدة ٩٣٥ ، ص ١٣٩ بتاريخ [illegible] ٩٣٥ هـ / ١٥٢٩ م .

(٩٢) سجل رقم ٩١ ، مدة ٥٤ ، ص ٥٤ بتاريخ ١٨ ربيع الأول ٩٣٠ هـ / ١٥٢٣ م .

ملاحـــق

ملحق رقم (١)

مصدر الوثيقة : سجلات المحكمة الشرعية بالاسكندرية .
سجل رقم ١ مادة : ٧٧١ ، ص ١٦٧ بتاريخ ٢١ ذى الحجة الحرام عام ٩٥٧هـ / ديسمبر عام ١٥٥٠م .
موضوع الوثيقة : بيع فوط .

لدى سيدنا الشيخ شمس الدين أبى عبد الله محمد الكتامى أيده الله

اشترى المعلم رمضان بن الحاج على بن الحاج محمد المعروف بابن عويدات بماله لنفسه من المعلم محمد بن المرحوم الحاج على سليمان المعروف بالحجازى وبابن كراع جميع عشرين فوطة أقر محمد بن على بن سليمان المعروف بالحجازى بن كراع إقراراً شرعياً أن فى ذمة المعلم رمضان بن الحاج على بن الحاج محمد المعروف بابن عويدات من الفوط الذهبى ثمانية عشر يقوم له بذلك فى سلخ أربعة أشهر تمضى من تاريخه أعلاه وقدرته على ذلك ويقبض رأس مال السلم عن ذلك من الذهب السلطانى الجديد خمسة عشر دينار القبض الشرعى وما فى ذلك بما قاصصه مردين عليه من الذهب الموصوف سبعة دنانير وبماله حالاً به على ذمته شهادة شمس الدين بن عبد الله بن عبد الواحد مرضيان الشريف به ودنانيره وحوالته الفصل من على بن رضوان بدينار واحد وباق ذلك وحل إليه بتصادقهما على ذلك التصادق الشرعى جرى ذلك فى تاريخه . الثلاثاء المبارك الحادى والعشرين من ذى الحجة الحرام سنة سبع وخمسين وتسعماية .

* * *

ملحق رقم (٢)

سجل رقم ٢٩ ، مادة ٢٥٣ ، ص ٩٧ بتاريخ ٢٤ جمادى الثانى عام ١٠٠٠هـ / مارس عام ١٥٩١م .

موضوع الوثيقة : شراء حجازى قمح من هوارى .

وفيه لديه

ادعى عطية بن إسماعيل الهوارى على اسماعيل بن عمر الحجازى العيساوى أنه يستحق فى ذمته أربعة وعشرين دينار اكازنة ثمن اثنى عشر غرارة قمح بالكيل السكندرى ابتاعها منه وسلمها عود ورفيقه أبو دافية من قريهم العيساوى من نحو أربعة أشهر بعد تاريخه وعماله فى ذلك كان ومنها ما يسلمانه فى الذمة والمال والضمان الشرعى وطالبه بذلك وساله سواله فسيل المدعى عليه المذكور عن ذلك فأجاب بالاعتراف بذلك على الجمل المشروح وخرجا على ذلك منه وصحبهما عمر الحجازى والمدعى عليه بذلك وخصص منه وندد اسماعيل المذكور فى اثنى عشر ديناراً من المبلغ المدعى عليه المذكور أعلاه الضمان الشرعى بالإذن الشرعى المقبول عارفون بمضى الضمان وما يترتب عليه شرعاً ذلك عليه المذكور لذلك الشهود الشرعى فى تاريخه .

تحريراً فى ٢٤ جمادى الثانى عام ألف من الهجرة .

الشهود

ملحق رقم (٣)

سجل رقم ١٨ ، مادة ٤١٥ ، ص ١٤١ بتاريخ ١٨ شعبان عام ٩٩٠هـ / أغسطس عام ١٥٨٢م .

موضوع الوثيقة : احتراف بعض الحجازيين حرفة الصراف .

وفيه لديه أحسن الله إليه

تصادق الحاج عمران بن سالم الحجازى الصراف بالثغر المذكور والحاج علاء الدين بن بدر الدين اللوقينى المدونب فى الطواحين بالثغر تصادقاً شرعياً وهما بحالتى صحة واختيار على أن آخر ما يستحقه الحاج عمر المذكور بذمة الحاج علاء الدين المذكور من سائر الحقوق والمعاملات والعلق والتبعات والدعاوى والمطالبات والإيمان الواجبات مبلغ قدره من الذهب الأكروني خمسة وعشرون ديناراً وعلى أن الحاج عمران المذكور أن الحاج علاء الدين المذكور على أن يقوم له بالمبلغ المذكور مقسط على ثلاثة عشر شهراً قسط كل مستوق فى آخره من تاريخه ديناران إلا القسط الأخير فإنه دينار واحد إطار شرعياً لعلمه بحاله أنه لا يقدر على وفاء ذلك كذلك وعلى أن الحاج عمران المذكور فريق وكل فريق منهما لا يستحق على الفريق الآخر مطلقاً تعاملاً ولا استحقاقاً ولا دعوى ولا قل ما يوجه ولا مندولا ولا فضة ولا ذهباً ولا ديناراً ولا سطر ولا غيره ولا استمرار ولا فلوساً ولا نحاساً ولا ربحاً ولا خسراناً ولا طحناً ولا دقيقاً ولا منخياً ولا مدنوراً ولا سهواً ولا نسياناً ولا علقة ولا تبعة ولا حقاً من سائر الحقوق على الاطلاق والعموم والأسفر والشمول المبلغ المذكور وقدره من عند تكرار خمسة وعشرون ديناراً ذهباً اكرونيا فإن ذلك باق للحاج عمران المذكور من الحاج علاء الدين المذكور على الحكم المشروح تصادقاً على ذلك وثبت الاشهاد بذلك لدى سيدنا الحاكم المشار إليه بشهادة شهوده وصدوره لديه ثبوتاً شرعياً وحكم أعز الله احكاماً بموجب ذلك صحيحاً شرعياً تاماً معتبراً مرضياً مسيولا فى ذلك وأشهد على نفسه الكريمة بذلك وبه شهد فى تاريخه .

تحريراً فى ١٨ شعبان عام ٩٩٠هـ

* * *

ملحق رقم (٤)

سجل رقم ١١ مادة ٦٣٣ ، ص ١٦٧ بتاريخ الجمعة المبارك ١٢ شوال عام ٩٧٨هـ / فبراير عام ١٥٧٠ .
موضوع الوثيقة : شراء بقرة لبعض الجمالين .

وفيه لديه

أشهد على الناصرى محمد بن أحمد من جماعة الجراكسة من بلك الثنا عشر الاشهاد الشرعى أنه قبض واستوفا من سالم بن محمد الحجازى الجمالى مبلغ قدره من الذهب الأكروش أربعة دنانير القبض والاستشهاد الشرعيين وأن ذلك هو القدر الذى كان يستحقه فى ذمته ثمن بقرة معلومة لهما المتاعة له منه قبل تاريخه بتصادقهما على ذلك التصادق الشرعى وصدر بينهما إثبات شرعى من كل شيء وفى كل شيء من اليمين بالله تعالى من وجب .
تحريراً فى يوم الجمعة المبارك ١٢ شوال عام ٩٧٨هـ .

* * *

ملحق رقم (٥)

سجل رقم ١٢ ، مادة ١٤٤ ، ص ٥٦ بتاريخ ٢٤ ذى الحجة عام ٩٨٥هـ / فبراير عام ١٥٧٧م .
موضوع الوثيقة : مشاركة بعض الحجازيين مع بعض السودانيين فى تجارة النيلة .

وفيه لديه أحسن الله إليه

ادعى منصور بن على الجداوى وحراز بن على السودانى على سالم بن الحاج سليمان الصباغ الكتامى أنه اشترى منهما سوبة نيل بلدى معلوم لهم فى شهر شعبان سنة تاريخه بخمسة وثلاثون ديناراً ذهباً جديداً دفع له من ذلك ثمانية

وعشرين دينار ونصف دينار على فترات متفرقة وتاخر لهما بدمته ستة دنانير ونصف دينار ويطالباه بذلك فسيل عن ذلك فأجاب بأنه اشترى منهما النيل المذكور وتأخر لهما بدمته من الثمن المذكور ثلاثة دنانير ونصف دينار وربع دينار فلم يصدقاه على ذلك وطال النزاع بينهما فوقف بينهما واسطة خير لله تعالى فتصادقوا تصادقاً شرعياً على آخر ما يستحقانه في ذمة المدعى عليه من ثمن النيل المذكور خمسة دنانير ذهب جديد وعشرة أنصاف ودفع لهما ذلك بالمجلس وبريت ذمته لهما في ذلك البراة الشرعية وشهد عليهم بذلك في تاريخه .

* * *

ملحق رقم (٦)

سجل رقم ٣ ، مادة ١١٥ ، ص ٣٩ بتاريخ ١٤ شوال عام ٩٦٤هـ / يوليو عام ١٥٥٦م .

موضوع الوثيقة : قيام بعض الحجازيين بعملية الإقراض .

وفيه لدى الحاكم المالكي أعز الله أحكامه

تصادق الشريف عامر بن الشريف حسن بن الشريف محمد المكي والمعلم محمد بن يوسف بن أبي بكر المصري التصادق الشرعي وهم بحالة الصحة والطواعية والاختيار عن أن آخر ما يستحقه السيد الشريف في ذمة محمد المذكور من قرض ومعاملة شايعة على تاريخه من الفضة السلطانية ثمانية وسبعون نصف أجله في ذلك في كل شهر من تاريخه عشرون نصفا وأقر كل منهما الإقرار الشرعي أنه لا يستحق على الآخر ما عدا المبلغ المذكور فيه حقاً مطلقاً ولا استحقاقا ولا طلبا ولا قضة ولا طلب ولا معاملة أو لا باق منهما ولا شيء في ولا جل ولا يمين بالله تعالى إلى تاريخه فتصادقا على ذلك التصادق الشرعي جرى وحرر في يوم الإثنين رابع عشر شوال سنة أربعة وستين وتسعماية .

شهود الحال

* * *

ملحق رقم (٧)

سجل رقم ٥ ، مادة ٥١٨ ، ص ٣٨٦ بتاريخ ١٩ شوال عام ٩٨٠هـ / فبراير عام ١٥٧٣م .

موضوع الوثيقة : عقد زواج .

الحمد لله رب العالمين يوم الخميس المبارك تاسع عشر شوال سنة تسع وثمانين فيه لدى الشيخ محيى الدين المالكى

الزواج أحمد بن عمر بن عبد القادر المكى الزوجة بثينة المرأة ابنة على بن على الدين اللقانى الخلية من موانع النكاح الصداق من الذهب الجديد خمسة دنانير من الفضة الجديدة معاملة تاريخه ثلاثمائة نصف الحال لها فى ذلك مبلغ من الذهب المقبوض بيد أخيها لأبيها محمد دينارين باعترافه والباقى على حكم ومبلغ الفضة كل من عشرين نصف المزوج باذنها لأخيها محمد المذكور به وغانم أحمد العيساوى وقبل الزواج للكسوة كل سنة ثلاثة نصف من الأنصاف المذكورة ووصى لها بذلك فى تاريخه .

* * *

ملحق رقم (٨)

سجل رقم ٨٦ ، مادة ١٦٦ ، ص ١٣٠ بتاريخ غرة رمضان المعظم عام ١١٦٧هـ / يونيو ١٧٥٣م .

موضوع الوثيقة : صورة تقرير نقابة الأشراف .

صورة تقرير النقابة باسم الجناب العالى السيد على أغا

ان افتخار أعزه السادة الأشراف العظام وواحدها سلالة آل بنى عبد مناف الفخام وما جدها سيد ساداتَ آل بيت النبوة والرسالة سيد مرآة المنتخبة من أطهر سلالة حضر مولانا السيد حسين أفندى نقيب السادة الأشراف بمصر المحروسة الموقع توقيعه أعلاه أدام الله تعالى مجده وزاد فى علاه قدر فخر

لأشراف الكرام السيد علي جورجي زيد قدره في نيابة النقابة الشريفة بثغر سكندرية بتقيد بضبط وقايع السادة الأشراف وينظر فيما يتعلق بهم على وجه الانصاف وأمره بكف الأذى عنهم ومنع المعارض لهم وأذنه بعمل ما يراه حسنات حبس وإقامة حد وتعزير بموجب الشرع الشريف ومنهج الحق المنير المنيف فإنه من سلك طريق الحق نجا ومن يتق الله يجعل له مخرجا وأبقاه في ذلك على عادته ومستمر قاعدته خلا ما يتعلق بأمر بثبوت النسب فإنه ممنوع من تعاطيه ومن سماع بينة والنظر في دعاويه ولا يأذن بلبس علامة لأحد ولاية عنها من على رأس الشريف بغير مستند ضبطاً لهذا النسب الشريف الجليل وصونا من أن يدخل فيه الدخيل تقريرا وتنفيذا وأمرا واستعانة شرعيات تحرير في غرة شهر رمضان المعظم قدره سنة سبعة وستين ومائة وألف من الهجرة .

شهود الحال

* * *

ملحق رقم (٩)

سجل رقم ١٤ ، مادة ٢٠ ، ص ٦ بتاريخ ٢٥ جمادى الأولى عام ٩٨٧هـ / يوليو عام ١٥٧٩م .

موضوع الوثيقة : اعتداء بعض الادكاوية على بعض الحجازيين بالألفاظ النابية .

وفيه ندبه أحسن الله إليه

ادعى الحاج سالم بن الحاج أحمد سميط الوكيل الشرعي عن محمد الحجازي الادكاوي على محمد بن علي عمر الادكاوي أنه قال بمولكه ضعريصنك ياحرامي ويطالبه عما يترتب عليه بسبب ذلك فسئل عن ذلك فأجاب بالانكار لذلك فأحضر المدعي المذكور الحاج عبد الله بن عمر الشكجي ومحمد بن حسن الجمال وشهدا مسئولين بمعرفة المتداعين والموكل المذكور المعرفة الشرعية وأن الموكل المذكور أخذ ثبتا من معلف جمال المدعى عليه فقال له المدعى عليه

ياحرامى فعل الله طعريك فقال له محمد الحجازى ماحرامى إلا أنت وطعريك فضل المدعى عليه والموكل على ذلك وأدبا على ذلك فى تاريخه .

* * *

ثبت بالمصادر والمراجع

أولاً : المصـــــادر :

وثائق لم تنشـــر بعـــد :

أرشيف الشهر العقارى بمدينة الإسكندرية ، سجلات المحكمة الشرعية . وقد أشرت إليها فى هوامش البحث .

ثانياً : المراجـــع العربيـــة :

١ - إبراهيم يونس ملطح — تاريخ مصر العثمانية من خلال تحقيق مخطوطة « تحفة الأحباب بمن ملك مصر من الملوك والنواب » .

٢ - إبراهيم زكى ، — الحالة المالية والتطور الحكومى والاجتماعى فى عهد الحملة الفرنساوية ، وعهد محمد على . القاهرة بدون تاريخ .

٣ - دكتور أحمد السعيد سليمان — تأصيل ما ورد فى تاريخ الجبرتى من تدخيل ، القاهرة بـ ١٩٧٨ .

٤ - دكتور أنور عبد العليم — المعارف البحرية وتطور الملاحة المصرية فى الفترة ما بين القرنين التاسع والخامس عشر بعد الميلاد ، ضمن كتاب تاريخ البحرية المصرية عام ١٩٧٤ .

٥ - دكتور توفيق الطويل — التصوف فى مصر إبان العصر العثمانى ، القاهرة ١٩٤٦ .

٦ - دكتور جمال الدين الشيال — تاريخ مدينة الإسكندرية فى العصر الاسلامى ، الاسكندرية ١٩٦٧ .

٧ –	أعلام الإسكندرية فى العصر الإسلامى ، الإسكندرية ١٩٦٥ .
٨ – دكتورة سيدة إسماعيل كاشف	تعريب مجتمع الإسكندرية ، ضمن كتاب مجتمع الإسكندرية عبر العصور ، الإسكندرية ١٩٧٣ .
٩ – دكتور عبد الله خورشيد البرى	القبائل العربية فى القرون الثلاثة للهجرة ، القاهرة ١٩٦٧
١٠ – دكتور عبد الرحيم عبد الرحمن	الريف المصرى فى القرن الثامن عشر ، القاهرة ١٩٧٤
١١ – دكتور عبد الرحمن فهمى	النقود المتداولة أيام الجبرتى ضمن أبحاث عبد الرحمن الجبرتى ، القاهرة ١٩٧٦ .
١٢ – دكتور عبد العزيز الشناوى	الدولة العثمانية دولة إسلامى مفترى عليها ، ج ١ القاهرة ١٩٧٣
١٣ – عفاف سعد العيد	دور الحامية العثمانية فى تاريخ مصر (٩٢١ – ١٠١٧هـ / ١٥١٤ – ١٦٠٩م) رسالة ماجستير غير منشورة عام ١٩٨٢ بكلية آداب جامعة الإسكندرية .
١٤ – دكتور عمر عبد العزيز عمر	دراسات فى تاريخ العرب الحديث ، الشرق العربى من الفتح العثمانى حتى نهاية القرن الثامن عشر بيروت ١٩٧١ .
١٥ – دكتور على محمد فهمى	البحرية الإسلامية فى شرق البحر المتوسط ، من القرن السابع إلى القرن العاشر الميلادى ، ضمن كتاب تاريخ البحرية المصرية ، الإسكندرية عام ١٩٧٣ .
١٦ – دكتور صلاح أحمد هريدى	دور الصعيد فى مصر العثمانية (٩٢٣ – ١٢١٣هـ / ١٥١٧ – ١٧٩٨م) الإسكندرية ١٩٨٤ .
١٧ –	الحرف والصناعات فى عهد محمد على ، الإسكندرية ١٩٨٥ .
١٨ –	الحياة الاقتصادية والاجتماعية فى مدينة رشيد

في العصر العثماني ، المجلة المصرية للدراسات التاريخية ، الأعداد ٣١ ، ٣٢ ، عام ١٩٨٤ .

١٩ دكتور نعيم زكي وصفي — طرق التجارة الدولية ومحطاتها بين الشرق والغرب أواخر العصور الوسطى ، القاهرة ١٩٧٣ .

٢٠ - محمد بن أبي السرور البكري — كشف الكربة برفع الظلبة ، تحقيق عبد الرحيم عبد الرحمن المجلة المصرية للدراسات التاريخية .

٢١ محمد مختار — التوفيقات الالهامية في مقارنة التواريخ الهجرية بالسنين الأفرنكية والقبطية بولاق ١٣١١هـ

٢٢ - محمد شفيق غربال — مصر في مفرق الطرق (١٧٩٨ - ١٨٠١م) رسالة حسين آفندي الروزنامجي ، مجلة كلية الآداب جامعة القاهرة ، المجلد الرابع ، الجزء الأول مايو ١٩٣٦ .

٢٣ - دكتور ليلى عبد اللطيف أحمد — الإدارة في مصر في العصر العثماني ، القاهرة ١٩٧٤ .

٢٤ - — دراسات في تاريخ ومؤرخي مصر والشام إبان العصر العثماني ، القاهرة ١٩٧ .

ثالثاً : المراجع الأجنبية :

٢٥ Bear, Gabrial, Guilds in Egypt in Modern times; Jurselem, 1964.

٢٦ Shaw, S.J., OTTO an Egypt in the Age of the French Revolution, Cambridge, Massachusitters, 1964.

٢٧ The Financial and Adminstrative Organization and Development of OttOman Egypt, Princeton, New Jersy, 1962

الملك الناصر يوسف والمغول

للدكتور / سعد بن محمد حذيفة الغامدي
الأستاذ المشارك في قسم التاريخ - كلية الآداب
جامعة الملك سعود
الرياض

في ١٤٠٦/٧/٧هـ الموافق ١٧ مارس ، آذار ١٩٨٦م

تعرضت بلاد المسلمين ، شرقاً وغرباً ، للعدوان ، ومازالت حتى يومنا هذا تتعرض له ، منذ توقف المد الإسلامى فى فتوحاته ، ومنذ استمرع المسلمون حياة الدعة والراحة ، وأخذوا يتفننون فى بناء القصور الشاهقة والاستطابة فى سكناها ، والتعود على العزلة ، كضريبة للملاذ ، وكان ممن قام بذلك الهجوم ، فى العصور الإسلامية الوسيطة ، ضد العالم الإسلامى ، القوى الغربية ، يمثلها فى ذلك الصليبيون ؛ والقوى الشرقية ، ممثلة فى المغول . ولعل الذى يهمنا هنا الأخير منها ، بحكم بحثنا هذا ، فقد قامت حجافل جنكيز خان المغولية بهجوم مدمر ، وكأنه إعصار من نار ، فأتى على كل خضراء ويابسة ، وذلك فى العقد الثانى من القرن السابع الهجرى / ١٣ للميلاد ، فوصل فى زحفه ، غرباً ، حتى وصلت قواته ماء نهر دجلة ، وقد ضم منلها إلى جبال الطاى فى أواسط قارة آسيا تحت سلطان المغول ، شرقاً .

ثم جاءت فى أول النصف الثانى ، من نفس القرن ، موجة مغولية جارفة أخرى ، لا تقل عن سابقتها ، أيام جنكيز خان ، قوة وعنفاً ، فوصلت فى تقدمها إلى حدود الأراضى الشرقية لمصرنا الحبيبة . ولكن الله شاء أن يحمى هاتيك البقاع من ثقل وطأة وتدمير المغول لها بحادث قدره الله فى منغوليا ، وهو وفاة الخان المغولى « منكو » ، فتوقف المد المغولى ، وانحسر إلى الشرق من نهر الفرات ، فرحل هولاكو ، قائد حملتهم تلك ، وشد رحاله من ضواحى مدينة حلب الشهباء فى الشام ، وعاد أدراجه إلى الشرق ، يراقب أحداث الصراع الدامى ، الذى نشب بين أهل بيته على العرش ، من على كثب . وبذلك سلم الله المسلمين مصراً (ووضعها مكان العراق ، بعد زوال خلافتها العباسية) وأعاد لهم الشام جميعاً على أيدى المصريين ، بقيادة المماليك فيها ، بعد موقعة عين جالوت الشهيرة ، فقد كانت عين جالوت بمثابة الصخرة التى عثر عليها المغول ، وتحطمت على جنباتها القوة الاسطورية للمغول ، التى ضربت حولهم ، على أنهم قوم لا يقهرون .

جاء المغول إلى المنطقة وكان الحكام والأمراء فيها ، وعلى رأسهم خليفة المسلمين فى بغداد ، فى غاية التفكك والانهيار ، نتيجة للحروب الأهلية فيما

بينهم ، فكان بعضهم يقتل بعضاً ، ويغزو منهم القسم الآخر ، فينتهك العرض ، ويسلب المال ، ويقتل الأهل والولد ، فى حروب مفيتة بينهم ، تغلى غليان قدر على نار شديدة الاستعار . لذلك كان مجىء المغول إلى المنطقة سهلاً ممهداً ، ونجاحهم ، لأخذ البلاد واستعباد العباد ، مضموناً ميسوراً ، فى ظل ظروف المسلمين وحكامهم فيها ، فقد انحلت قواهم ، وانهكت إمكاناتهم العسكرية ، ونضبت مصادرهم المادية ، ناهيك عما وصلت إليه أحوال شعوبهم ، فى كافة مجالاتها ، من تدن إلى أسفل سافلين .

كانت مواقف الحكام المسلمين ، فى هذه المنطقة ، تجاه المغول ، بوجه عام ، موالية لهم ، ومستسلمة خاضعة لسلطانهم ، مع بعض الاستثناءات القليلة جداً . كان بنو أيوب ، وأمراؤهم ، فى الشام ، جملة من ضمن أولئك الحكام . وكان لهم مواقف استسلامية ، أو تهاونية ، وعدم مبالاة ، للخطر الذى كان يطبق عليهم ، ويضيق قبضته حول أعناقهم ، يوماً بعد يوم ، حتى جاءت الساعة التى قضى فيها عليهم جميعاً ، واحداً بعد الآخر ، فقوض عروشهم ، التى أشبه بريشة فى مهب الريح .

كان الملك الناصر يوسف من أولئك الأمراء ، لا بل كان كبيرهم ، وأقواهم ، وأكثرهم سعة فى المال والجاه والملك ، ولقد التزم ، فى تعامله مع المغول ، خطاً مسالماً ، متهاوناً ، خطاً يدل على اللامبالاة ، حتى جاءه المغول ، وقبضوا عليه ، بعد أن دل عليه أحد أتباعه ، فوقع فى مصيدتهم ، وهو هائم على وجهه فى البرارى ، خائفاً يترقب .

لذلك ، فإن هذا البحث المتواضع يتطرق إلى علاقة الناصر يوسف ، أكبر شخصية فى أسرة البطل ، صلاح الدين الأيوبى ، مع المغول ، منذ بدأ خطرهم يطل برأسه على الشام ، وحتى نهاية الناصر ، ومقتله على يدى المغول ، وما صاحب ذلك من ملابسات .

الملك الناصر يوسف والمغول

المغـــــول :

فى أول النصف الثانى من القرن السادس الهجرى / الثانى عشر الميلاد ، ولد طفل مغولى من أسرة ملكية كانت لها المشيخة على بعض القبائل المغولية ؛ كان ذلك الطفل هو تيموجين بن يوسكاى بهادر ، والذى عرف فى الأوساط التاريخية العالمية بـ جنكيز خان[1]. وعلى الرغم من الظروف العصيبة التى مر بها ذلك المولود فى مرحلتى المراهقة والصبا ، إلا أنه فى نهاية الأمر كتب له أن يصبح من أشهر القادة فى تاريخ البشرية ، بغض النظر عن أعماله العدوانية ، وما ارتكبه مع مخالفيه من أعمال وحشية ، فهذه طبيعة البشر ، ومثله مثل غيره ، ممن عاصره أو جاء بعده ، والتى مارسنا نعيشها ، أو نشاهد صوراً لأعمال أكثر بشاعة ووحشية من تلك التى فعلها المغول[2] .

بعد أن تعدى جنكيز خان مرحلتى الطفولة والصبا ، شاءت إرادة الله فيه أن يبدأ فى تكوين ملك له ، ولأسرته من بعده ، فشرع فى توحيد بعض القبائل المغولية القريبة منه . لذلك نجده وقد دخل فى حروب طاحنة ، وتحالفات سياسية وعسكرية مع أمراء ومشايخ مختلف العشائر المغولية البدوية ، حتى استطاع فى نهاية المطاف أن يصبح سيد منغوليا بدون منازع ، وأن يضع أساساً لأكبر امبراطورية عرفها تاريخ البشرية[3].

شرع بعد ذلك يتطلع ببصره إلى خارج حدود وطنه ، الأصلى ، منغوليا ، إلى الشرق وإلى الغرب والجنوب . وما أن انتهى القرن السادس الهجرى / الثانى عشر الميلادى ، حتى أصبحت مملكته تمتد من السفوح الشرقية لجبال الطاى غرباً إلى المحيط الهادى شرقاً ، ومن جنوب سيبريا شمالاً حتى الجنوب من صحراء كوبى من الجنوب[4].

بعد توحيد جميع القبائل المغولية ، تقريباً ، تحت قيادته الشخصية ، شرع جنكيز خان فى التخطيط لغزو الدول المجاورة ، فبدأ بدولة « التنكوت » فى التبت ، فاستطاع إخضاعها لنفوذه ، بعد حروب استمرت خلال السنوات الأولى من القرن السابع الهجرى / ١٣ الميلادى[5]. ثم نجده بعد ذلك يشرع فى

أواخر هذا العقد فى تنفيذ مشروعه الجرىء ، والعسكرى المشهور ، ضد أراضى امبراطورية الصين الشمالية ، وبعد حروب طاحنة ، دامت لأكثر من خمس سنوات ، استطاع أن يقضى على امبراطورية الصين الشمالية ، بعد أن اقتحم المغول عاصمتها « بكين » فى شهر صفر من عام ٦١٢هـ / يونيه (حزيران) ١٣١٥م[٦]. بعدها عاد بجنوده ، وشرع فى تجهيز قواته لشن هجومه ضد العالم الغربى من أراضى المغول ، فكانت أراضى المسلمين هى التى وقعت تحت ثقل وطأة تلك الحروب المدمرة ، حيث كانت دولة الخوارزم شاهيين هى المسيطرة على المشرق من العالم الإسلامى آنذاك . وخلال السنوات الأخيرة من العقد الثانى من القرن السابع للهجرة / ١٣ للميلاد ، استطاع المغول أن يصلوا إلى حدود إقليم العراق الشرقية ، حيث كانت الدولة العباسية ، وغيرها من الدويلات الإسلامية العديدة فى المنطقة . وبذلك قوض جنكيز خان عرش الدولة الخوارزم شاهية وعاد إلى وطنه ، وتوفى فى عام ٦٢٤هـ - ١٢٢٧م[٧].

بناء على ما تقدم شرحه ، نجد أن الامبراطورية ، المغولية عشية ، وفاة مؤسسها كانت تمتد من النهر الأصفر فى الصين والمحيط الهادى شرقاً ، إلى العراق العجمى غرباً ، ومن نهر السند وجبال الهملايا جنوباً إلى سيبريا شمالاً . وما أن شارف النصف الأول من القرن المذكور على النهاية حتى وصل المغول فى فتوحاتهم إلى قلب أوربا ، وآسيا الصغرى فى الغرب ، وتوغلوا فى أراضى الصين جنوباً ، بعد حروب مريرة وطاحنة خلال فترة حكم الإمبراطور « اكتاى » ، الذى خلف والده فى الحكم[٨]. ثم أعقب وفاة « اكتاى » فترة راكدة ، لم يقم المغول فيها بفتوحات ذات بال خلال فترة حكم ابنه وخليفته على العرش « كويوك خان »[٩]. وما أن انتهت مشكلة الصراع الداخلى فى البيت المغولى الحاكم ، حول أحقية ولاية العرش ، حتى شرع المغول ، كعادتهم ، بعد توليه خان جديد على العرش ، فى تنفيذ مشروع جديد لفتوحاتهم ، ولمد حدود امبراطوريتهم لتشمل أراضى جديدة شرقاً وغرباً[١٠]. لذلك ، فقد قامت حملتان كبيرتان ، أحدهما ضد أراضى الصين الجنوبية ،

بقيادة « قبلاى بن تولى بن جنكيز خان » والأخرى إلى الغرب ، بقيادة أخيه « هولاكو » الذى استطاع أن يصل إلى أراضى الشام بحلول عام ٦٥٧هـ / ١٢٥٩م ، بعد أن قوض قوة الحشاشين الاسماعيلية فى إيران ، وقضى على خلافة العباسيين فى بغداد[١٢].

لذلك جاء « هولاكو » على رأس حملة عسكرية يفتح بها المنطقة ، ويضمها إلى ممتلكات امبراطوريتهم . ولسوء حظ المسلمين كانت أوضاع حكام الدويلات الإسلامية وإماراتها فى هذا الجزء من العالم الإسلامى عامة ، وبنى أيوب خاصة ، فى غاية التفكك ، والانحلال ؛ والمهاترات السياسية والعسكرية فيما بينهم كانت على أشدها . كما كانت مواقفهم تجاه المغول الغزاة متباينة أشد التباين . فقد كان منهم الموالى والخاضع تحت نفوذهم منذ عشرات السنين ، مثل حكام : الموصل ، وفارس ، وكرمان ، والسلاجقة فى آسيا الصغرى ؛ وبين معارض ، وقف فى وجه المغول وحاربهم حتى نال الشهادة ، مثل الملك الأيوبى ، محمد الكامل ، صاحب ميافارقين[١٣]. ومنهم من كان خائفاً يترقب ، فهو مال فى الظاهر ، ومعارض فى الباطن ، أو لم تعرف له موقفاً لتأرجحه بين وبين ، مثل الملك الناصر يوسف ، صاحب الشام ، وكبير بنى أيوب ، موضوع بحثنا هذا .

بنو أيوب عشية الغزو المغولى :

عندما جاء المغول إلى منطقة الهلال الخصيب فى أوائل النصف الثانى من القرن السابع الهجرى / ١٣ للميلاد ، كان أمراؤها وحكامها ، بوجه عام ، وبنو أيوب خاصة ، فى منتهى الانحلال وتشتت الشمل . والذى يهمنا هنا الأمراء الأيوبيون فى الشام والجزيرة عامة ، والأمير الأيوبى الملك الناصر يوسف خاصة ؛ فقد أضحى فى آخر الأمر كبير أمراء هذه الأسرة ، وأكثرهم جمعا ، وأوسعهم أرضاً . ومما يدل على عدم وحدة البيت الأيوبى وجود العديد من الإمارات الصغيرة المنتشرة فى أنحاء متفرقة من بلاد العراق والشام ، ويحكم كل إمارة منها أمير ، لا يكاد يدين بالولاء لأى حاكم أو أمير آخر أكبر منه ، إلا إذا

غزاه من هو أكثر قوة وجمعاً منه ، فإما أن تضم إمارته إلى أراضي ذلك الغازي الجديد ، وإما أن يخضع تحت سلطانه ، بعد أن ينعم عليه سيده الجديد بإبقاء ممتلكاته وأراضيه له ، وفوق ذلك كله جعله حراً طليقاً ، لأن الأغلبية منهم كان يعتقل ، ويودع السجن فيظل فيه ما بقي حياً ، إلا لظروف جديدة تطرأ تؤدي إلى خلاصه ، كما سيرد معنا في ثنايا هذا البحث[١٣].

لذلك نجد أن الحروب الأهلية بين أمراء بني أيوب لا تكاد تنقطع حتى وتبدأ من جديد ، وعلى أشد ما يكون ، وبشكل أو بآخر ، بين هذا الأمير أو ذاك . فكل واحد منهم كان يتحين الفرص للسيطرة على غيره من الأمراء الآخرين ، وإخضاع إماراتهم لنفوذه . لهذا كانت الأوضاع الداخلية غير آمنة ، ولو لفترة قصيرة ، لأي أمير من هؤلاء . فكان كل واحد يعيش عيشة الخوف من الغزو والذل . ولهذا لم تدم الإمارة لهذا أو ذاك لوقت طويل ، باستثناء الناصر يوسف ، موضوع بحثنا هذا[١٤].

الناصر يوسف صاحب حلب :

عندما توفي الملك محمد بن غازي بن صلاح الدين الأيوبي (٦١٣ - ٦٣٤هـ / ١٢١٦ - ١٢٣٧م) جاء من بعده ، على ملك حلب وتوابعها ابنه الملك الناصر يوسف ، وهو ابن ست سنين ، تقريباً[١٥]. فتولت جدته لأبيه ، يعاونها في ذلك كبار أمراء ومماليك أبيه ، شؤون الدولة نيابة عن حفيدها[١٦]. ظل الوضع على ما هو عليه حتى وفاة تلك المرأة في عام ٦٤٠هـ / ١٢٤٢م ، بعد ذلك نجد الناصر يوسف يتسلم مهام شؤون إمارته ، يساعده في ذلك الأمراء وكبار رجاله[١٧].

أخذت قوة الناصر تزداد ، وأطماعه تتسع تباعاً ، لذلك فقد استطاع أن يوسع ممتلكاته على حساب جيرانه الأيوبيين الآخرين ، فأخضع دمشق في عام ٦٤٨هـ / ١٢٥٠م ، وأخذ معها توابعها ، مثل بعلبك ، وعجلون ، وشميس ، ثم أخذ الصبيبة وبانياس ؛ وكان قبلها قد ضم حمص من أميرها الأشرف موسى ، وأخضع صاحب حماه لسلطانه ، ثم ضمت له جميع أراضي

الشام بشكل أو بآخر ، وكان له فى الشرق من الفرات حران ، والرها ، والرقة ، ورأس العين وتوابعها ، فأضحى بذلك كبير بنى أيوب ، وأقواهم عشية الغزو المغولى[٦٨].

لعل الناصر يوسف كان يسعى ، فى سياسته هذه ، إلى توحيد أراضى الشام ، ومحاولة بسط نفوذه على مصر ، ومن ثم يبدأ بعدها منازلة الصليبيين ، وإزالة وجودهم من أرض الإسلام . وفوق ذلك كله ، مواجهة المد المغولى الجارف ، الجارف ، الذى كان يطل برأسه كالتنين ، ليبتلع الأراضى المتبقية للمسلمين فى العراق والشام ومصر . إن سياسة مثل هذه عمل جيد ، مثله فى ذلك مثل جده الأكبر صلاح الدين . ولكن أعمال الناصر وتصرفاته والسياسة الخارجية واتجاهاته الدينية التى كان يسير عليها لا تدل على شىء من ذلك . فقد مد يد الصداقة للمغول ، وهذا ما سنراه فى ثنايا هذا البحث ، وصداقته وهدنته مع الصليبيين فى المنطقة ، بدليل أنه لم يقم بأى عمل عسكرى ضدهم . فكل همه كان موجهاً ضد الأمراء من أسرته ، وبشكل شرس ، كما سيرد معنا بعض الأمثلة لذلك . وفوق ذلك كله عدم انتهاج سياسة واضحة لتحقيق هدف سام ، يخدم الإسلام والمسلمين .

على الرغم من أن الناصر أصبح هو الحاكم الأول فى بلاد الشام ، إلا أن سياسته لإعادة نفوذ الأسرة الأيوبية على سابق عهدها لم تفلح ، وذلك لأسباب كثيرة لعل من أهمها قوة حكومة المماليك الجديدة فيها من جهة ، ولعدم وحدة البيت الأيوبى خلف زعيمها من ناحية ثانية ، فرغم تكتل معظم الأمراء الأيوبيين ، وتوحيد صفوفهم ، ربما لأول مرة منذ وفاة الملك محمد الكامل بن العادل ، وسيرهم ضد حكومة المماليك فى مصر ، فقد منى بهزيمة على أيدى المماليك فى ذى القعدة ٦٤٨هـ / فبراير ، شباط عام ١٢٥١م . حيث انقلب نصرهم إلى هزيمة نتيجة ، على ما يبدو لى ، لعدم الانضباطية العسكرية ، والخبرة التنظيمية لإدارة المعركة ، فقتل بعضهم ، وأسر فريق منهم ، ولاذ بالهرب ، ناج بجلده ، طائفة أخرى[٦٩].

بعد هذه المعركة استقل المماليك بمصر ، بينما انصرف الناصر يوسف إلى ذلك الأمر المعهود فى أسرته ، وهو العودة إلى المهاترات السياسية ، والحروب المنهكة ، فيما بينهم ، فاستمرت تلك الأوضاع المزرية بينهم ، ليس فقط بعد سقوط بغداد ونهاية خلافة العباسيين بها ، بل وحتى الوقت الذى شرع هولاكو يعد العدة للانقضاض على الشام ، والسير منها إلى مصر .

ويحسن فى هذا المقام أو أورد مثالاً أو مثالين على ما كان يقع بين الأيوبيين عشية مجىء المغول ، وتصفية الجميع على أيديهم . ففى سنة ٦٥٦هـ / ١٢٥٨م ، وعندما كان المغول وأعوانهم يقصون مكان بغداد خاصة وأراضى العراق عامة ، ويهلكون فيها الحرث والنسل ، نجد الأمراء الأيوبيين ، بقيادة كبيرهم هذا ، يدخلون فى معركة ثانية مع المماليك قرب غزة . فيهزم الأيوبيون أيضاً . وفى السنة التالية ، وفى الوقت الذى كان المغول يدقون أبواب الشام بمعول الدمار وللاطاحة بهم ، دخل الناصر فى حرب ضد أراضى أمير أيوبى آخر ، هو المغيث فتح الدين عمر ، صاحب الكرك والشوبك ، فاستمر يحارب خصمه حتى ألجأه داخل قلعته ، فحاصره فيها حصاراً أشد ما يكون ، ولم يقلع عن ذلك إلا بعد أن تضرع إليه الناس وحتى النساء من أسرته هو[٢٠].

هذه نبذة مختصرة عن أوضاع بنى أيوب المتردية ، بل المخزية ، والتى كانت سبباً لزوال ملكهم على أيدى قوة تغزوهم ، فما بالك وقد كانت قوة المغول تسير فى طريقها إليهم ، بعد أن أزاحت من الوجود امبراطوريات ، ودول كبرى . ومقابل ذلك ما كانت عليه امبراطورية المغول من القوة واتساع السلطان .

الاتصالات السياسية بين الناصر يوسف والمغول :

يرجع تاريخ العلاقات السياسية بين المغول وخانهم فى « قراقروم » من ناحية وبين أمراء الأسرة الأيوبية ، ممثلة فى الناصر ، من ناحية ثانية ، إلى الوراء الأكثر من عشر سنوات . وهنا تورد الروايات التاريخية ذات الصلة المباشرة ، والمعاصرة للأحداث فى هذا الشأن ، أن رسلاً كانت قد جاءت من حكام

الأقاليم الغربية إلى « قراقروم » ، لتقدم التهانى إلى الخان المغولى « كويوك ابن اكتاى » (٦٤٤ - ٦٤٦هـ / ١٢٤٦ - ١٢٤٨ م) والذى توج حديثاً خلفاً لوالده « اكتاى » (٦٣٧ - ٦٣٩هـ / ١٢٢٩ - ١٢٤١م) . وقد كان من بين تلك الوفود وفد من صاحب حلب برئاسة أخيه ، وأن كل واحد جاء ومعه من التحف والهدايا ما يناسب بلاط الخان المغولى ، وقد أقيم لأعضاء تلك الوفود ما يقارب ألف خيمة من اللبود ، لانزالهم فيها طوال فترة إقامتهم[٢١].

بعد أن انتهت تلك الوفود من مهامها السياسية . وشاركت فى حفل التتويج ، وقبل مغادرة كل وفد ، نجد أن الخان يصدر أوامره بإعطاء أعضاء الوفود المشاركين فى ذلك الاحتفال ، مراسيم ولوحات براءة « برليغها وبيزاها » ، وكذلك فقد منحت للحكام الذين جاءت تلك الوفود ممثلة لهم[٢٢]. إذا ، كان صاحب حلب ممن حظى بمرسوم خانى « برليغ أو يارليغ » وكذلك بلوحة براءة « بيزا أو بايزا » من الخان المغولى ، فأرسلت تلك مع ممثلة . لذلك أصبح الناصر ، على الأقل من جهة النظر المغولية ، من أحد أتباع ورعايا الخان المغولى ، فهو تحت حمايته ، فلا أحد يستطيع التعدى أو التطاول عليه ، أو الحاق الضرر به ، فهو تابع ، وأملاكه أملاك ، للمغول ، ومواطنوه تحت الحماية المغولية . هكذا كان المغول ينظرون إلى أشياء من هذا القبيل ، كما سيرد معنا .

ومما يدل على أن صاحب حلب كان تابعاً للمغول رواية أوردها الجوينى ، فى معرض كلامه عن الأقاليم الغربية ، التى كانت تخضع إدارياً تحت نفوذ حاكم المغول الإدارى فى الغرب ، من أن الخان المغولى جعل كل تلك الولايات فى الغرب تحت إدارة حاكمة هناك « ارغون آقا » بما فيها ولاية صاحب حلب ، وما يدخل تحت نفوذ ملكها من أراضى وأتباع ، من الأمراء الأيوبيين الخاضعين للملك الناصر[٢٣]. إذا ، كان المغول يعتبرون الملك الناصر يوسف من أتباعهم ، والخاضعين لسلطانهم ، وكذلك بقية الأمراء الأيوبيين فى الجزيرة والشام . أما ما يتعلق بوجهة نظر بنى أيوب ، من الناحية الثانية ، فلا أستطيع الجزم فى القول بأنهم كانوا يدينون للمغول بالولاء ، أو أنهم كانوا يعتبرون

أنفسهم تحت حكم المغول ، أو حمايتهم ، بأى شكل كان ، مباشر أو غيره . ومع ذلك ، فإننا نجد أنفسنا أمام مواقف معينة وواضحة كان يتخذها أمراء بنى أيوب ، فى تعاملهم مع المغول . فمن هذه المواقف مسألة وجود وفد يمثل الناصر لدى البلاط المغولى ، للتهنئة بالسلطة ، والاشتراك فى حفل تتويج الخان الجديد ، وإرسال الهدايا والتحف ، الأمر الذى نتج عنه ، منح براءات الأمان ، وهوية التبعية المغولية ، كما ورد فى الحاشية قبل السابقة .

إن الذى يظهر لنا هنا بأن الناصر قد أوفد من لدنه رسولاً إلى منغوليا ، وذلك قبل وفاة « كويوك » سنة ٦٤٦هـ/١٢٤٨م ، وربما كان ذلك الرسول هو الصاحب زين الدين الحافظي ، كما سيتضح ذلك من النص الذى أورده ابن العميد كما سيرد معنا بعد قليل[٢٤]. وما نستدل به على ذلك أيضاً رواية جاء بها رشيد الدين ، من أن ذلك الرسول جاء ومعه الهدايا والتحف ليقدمها إلى القا آن المغولى ، وقد حظى الرسول بالاعزاز والتكريم ، إضافة إلى ذلك فقد منح مرسوماً وبراءة . « كان سلطان حلب قد أرسل وزيره زين الدين الحافظي إلى حضرة القا آن بتحف وهدايا ملكية ، وبذلك أصبح مشهراً ومعروفاً فى البلاط ، فصدر له المرسوم والبراءة »[٢٥]. ويؤيد روايتى كل من الجوينى ورشيد الدين ما جاء فى مصنف ابن العميد فى هذا الخصوص بأن « الأمير شمس الدين لولو كان فى حياته قد أرسل إلى القا آن الكبير ملك التتار بهدايا كثيرة وتحف جليلة وأحضر من عند القا آن إلى الملك الناصر ضمغا ونشانا يحملها فى حياصته وهذا دليل الطاعة عندهم .. »[٢٦]. ويضيف مؤرخنا هذا أن الحافظي رجع من مهمته تلك ، ووصل إلى الشام فى عام ٦٤٩هـ/١٢٥٣م ، أى بعد مقتل شمس الدين لولو . وهنا يمكننا أن نستنتج أن الحافظي كان قد أرسل إلى « القا آن » قبل سنة ٦٤٩هـ/١٢٥٣م ، بأكثر من ستة أشهر ، أو ربما سنة . فقد أرسله قبل المسير من الشام على رأس جيش الناصر ضد المماليك فى مصر ، والتى قادها لولو نفسه . فكانت المعركة فى ذى القعدة من عام ٦٤٨هـ/فبراير (شباط) ١٢٥١م . هذه ناحية ، والناحية الثانية أن الحافظي قد أرسل إما قبل وفاة « كويوك » ، أو بعد وفاته ، أو أن

أخبار وفاته لم تصل إلى الشام بعد . فأرسل لتجديد العهد والولاء للمغول ؛ أو أن الحافظي قد أرسل إلى المرأة الوصية على العرش المغولي وهي أرملة الخان المتوفى « أغول غايميش » التي أنيطت بها مهام إدارة الامبراطورية المغولية ، حتى تستكمل إجراءات الدعوة العامة لحضور الاجتماع الكبير الذي يحضره كافة الأمراء من سلالة جنكيز خان ، وكبار القادة والإداريين من كافة أنحاء الامبراطورية . وذلك للبت في اختيار شخص يخلف الخان المتوفى ، ويتم تتويج آخر على العرش[٢٧].

إذا ، كانت الهدايا التي أرسلت مع الحافظي ، مرسلة في الأصل إما إلى « كويوك » ، وإما إلى أرملته ، فصادف وصوله حفل انتخاب ثم تتويج الامبراطور المغولي « منكو » ، فقدم تلك الهدايا له ، وكأنها مرسلة في الأصل إليه . وما يدل على التبعية التي كان الناصر يدين بها للمغول ، نص أورده في هذا الخصوص أيضاً ابن العميد ، حيث قال فيه بأن الناصر كان يسير كل سنة بالهدايا والتحف إلى نائب « القا آن » في الجنوب الغربي من امبراطورية المغول « بلاد العجم » بايجونويان[٢٨].

بعد أن وصل « هولاكو » كش ، فيما وراء النهر ، وهو في طريقه لتنفيذ حملة المغول الغربية ، أرسل وفوداً من عنده إلى الحكام التابعين للمغول في الأقطار الغربية للمساهمة ، في حملته تلك ، ضد قلاع الاسماعيلية في إيران ، فلابد إذاً أن يكون الناصر ممن تلقى شيئاً من ذلك الأمر[٢٩].

على الرغم من أن الناصر ، على ما يبدو لنا ، قد تسلم رسالة من « هولاكو » كأي واحد من الحكام الآخرين في المنطقة ، إلا أنه لم يجب عليها في الحال ، كغيره ممن استجاب له ، أو أنه قد أجاب ، ولم نعثر على ذلك . إلا أن الاحتمال الأول هو الأقوى ، لأمرين هامين ، أولهما : أن الناصر أصبح ، في السنوات الأولى من النصف الثاني للقرن السابع الهجري/١٣ للميلاد ، مشغولاً ومهتماً جداً في توسيع أراضيه ، والحفاظ على ما تحت يده ، وفي نزاع مستمر مع جيرانه من أسرته ومع المماليك في مصر ، كما مر معنا ذلك ؛ وثانيهما : رواية جاء بها ابن العميد في هذا الخصوص ، حيث يقول بأن الناصر

قد تغافل عن « هولاكو » « ... ولم يسير إليه شيئاً بالجملة لأمر إرادة الله تعالى فشق ذلك على هولاؤون (هولاكو) وكان يقول فى كل وقت الملك الناصر ، كان يسير لبايجوا التحف والهدايا وهو غلامنا ونحن منذ وصلنا ما سير لنا رسولاً ولا هدية وبقى هذا فى نفسه »[٣٠]. فإذا أخذنا بالرأى الأخير ، فلعل هناك عدة أسباب منعت الناصر من الرد على رسالة هولاكو منها :

١ – لأن عدداً كبيراً من الأكراد والتركمان ، الشهرزورية ، ويقدر عددهم بحوالى ثلاثة آلاف فارس ، جاءوا ، ومعهم نساؤهم وأموالهم ، هاربين من مقصلة المغول ، ولجأوا سنة ٦٥٥هـ/١٢٥٧م إلى بلاد الشام ، فالتحقوا بخدمة الناصر واستخدمهم فى جيشه ليكثر بهم جمعه ضد منافسيه ، صاحب الكرك والمماليك ؛ لهذا فقد أصبحوا قوة لا يستهان بها ، فخافهم الناصر ، فلم يستطع أن يرسل رسولاً أو هدايا إلى هولاكو ، كعادته التى كان يتبعها مع بايجونويان .

٢ – انشغال الناصر ، وكما قلنا ذلك قبل قليل ، بالحروب ، والاستعداد لأخرى ، عهلى محورين ، الأول ضد دولة المماليك فى مصر ، فتارة يستعد لأخذها ، لاستعادة سيطرة الأيوبيين عليها ، وكرة يتأهب للدفاع عن أراضيه ضدهم ؛ والمحور الثانى ضد الملك المغيث ، صاحب الكرك والشوبك ، الذى أصبح يمثل خطراً كبيراً ، ويهدده من وقت لآخر ، وخاصة بعد أن انضمت قوة كبيرة معه ، من المماليك ، ثم لحق بهم أيضاً من كان قد التحق بالناصر ، الأكراد والتركمان[٣١].

٣ – كون الناصر قد حصل على الحصانة المغولية « الياليغ والبيزا » ، والتى منحه إياهما « القا آن منكو » نفسه ، فهذه كفيلة بحمايته من أى ظلم قد يتعرض له على أيدى المغول أو « هولاكو » ، الذى يلتزم بقوانين المغول فى هذا الشأن أشد التزام .

يذكر ابن العميد أنه بعد أن جاءت الأخبار إلى الناصر ، بسقوط بغداد فى أيدى المغول وأعوانهم ، خاف خوفاً عظيماً ، وخشى مغبة تغافله وإهماله رسالة هولاكو ، فأرسل فى الحال وفداً من عنده ، برئاسة ابنه الملك العزيز محمد ،

يرافقه زين الدين الحافظي وآخرون ، ومعهم هدايا جمة وتحف ونفائس جليلة ، وهم يحملون رسالة اعتذار له عن عدم تمكنه من المجيء . فقال « هولاكو » : « ولم لا جاء الملك الناصر إلينا ؟ » فاعتذروا بأنه قبالة العدو وبلاده في وسط بلاد الفرنج فما يمكنه أن يتركها ويحضر وقد سير ولده ينوب عنه في الخدمة فأظهر قبول العذر وباطنه بخلاف ذلك »[٣٢٤]. أما ابن العبري ورشيد الدين فيذكران بأن هذا الوفد أرسله الناصر إلى هولاكو بعد أن جاءته رسالة من هذا القائد المغولي . وقد أورد كلا المؤرخين مضمون الرسالة ، ولكنها طويلة عند ابن العبري ، وقصيرة ، مختصرة عن رشيد الدين . وقد آثرت أن أوردها كما جاءت لدى الأول ، فهو معاصر ، وممن شاهد الأحداث بعينيه ، وشارك مع المغول ، وخدم تحت رئاسة كاتب الرسالة نفسه ، نصير الدين الطوسي . يقول ابن العبري : « ... أرسل هولاكو ايلجيه (رسولاً) إلى الناصر صاحب حلب برسالة يقول فيها : « يعلم الملك الناصر أننا نزلنا بغداد في سنة ست وخمسين وستمائة وفتحناها بسيف الله تعالى وأحضرنا مالكها وسألناه مسئلتين فلم يجب لسؤالنا فلذلك استوجب منا العذاب كما قال في قرآنكم أن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم . وصار المآل . فآل الدهر به إلى ما آل . واستبدل النفوس النفيسة . بنقوش معدنية خسيسة . وكان ذلك ظاهر قوله تعالى : ﴿ فوجدوا ما عملوا حاضرا . لأننا قد بلغنا بقوة الله الإرادة ﴾ . ونحن بمعونة الله تعالى في الزيادة . ولا شك أن نحن جند الله في ضمه خلقنا وسلطنا على من حل عليه غضبه . فليكن لكم في ما مضى معتبر . وبما ذكرناه وقلناه مزدجر . فالحصون بين أيدينا لا تمنع . والعساكر للقائنا لا تضر ولا تنفع . ودعاؤكم علينا لا يستجاب ولا يسمع . فاتعظوا بغيركم . وسلموا إلينا أموركم . قبل أن ينكشف الغطاء ويحل عليكم الخطأ . فنحن لا نرحم من شكا . ولا نرق لمن بكا . قد أخربنا البلاد . وأفنينا العباد . وأيتمنا الأولاد . وتركنا في الأرض الفساد . فعليكم بالهرب . وعلينا بالطلب . فما لكم من سيوفنا خلاص ولا من سهامنا مناص . فخيولنا سوابق . وسهامنا خوارق . وسيوفنا صواعق . وعقولنا كالجبال . وعددنا كالرمال . فمن طلب منا الأمان سلم . ومن طلب الحرب ندم . فإن أنتم أطعتم أمرنا وقبلتم شرطنا

لكم مالنا وعليكم ما علينا . وإن أنتم خالفتم أمرنا وفى عيكم تماديتم فلا تلوموا ولوموا أنفسكم . فالله عليكم يا ظالمين فهيئوا للبلايا جلباباً . وللرزايا أثرابا . فقد أعذر من أنذر . وأنصف من حذر . لأنكم أكلتم الحرام وختم بالإيمان . وأظهرتم البدع واستحسنتم الفسق بالصبيان . فابشروا بالذل والهوان . فاليوم تجدون ما كنتم تعلمون . سيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون . فقد ثبت عندكم أننا كفرة . وثبت عندنا أنكم فجرة . وسلطنا عليكم من بيده الأمور مقدرة . والأحكام مدبرة . فعزيزكم عندنا ذليل . وعيكم لدينا فقير . ونحن مالكون الأرض شرقاً وغرباً . وأصحاب الأموال سلباً ونهباً . وأخذنا كل سفينة غصبا . فميزوا بعقولكم طرق الصواب قبل أن تضرم الكفرة نارها . وترمى بشرارها . فلا تبقى منكم باقية . وتبقى الأرض منكم خالية . فقد أيقظناكم . حين راسلناكم . فسارعوا إلينا برد الجواب بتة . قبل أن يأتيكم العذاب بغتة . وأنتم لا تعلمون »[٣٣].

ولهذا السبب نجد الملك الناصر يرسل ولده وبقية الوفد ليتوبوا عنه عند « هولاكو » ، وذلك بعد أن رحل عن بغداد ، فأصبح الأمير الأيوبى الصغير ومرافقوه ، على ما يبدو لنا ، من جملة وفود الحكام المسلمين الذين قدموا على « هولاكو » ، ليعلنوا ولاءهم وطاعتهم له ، وربما ليهنئونه بفتح بغداد وانتصاره على خليفتها[٣٤]. وقد ظل هذا الوفد لدى « هولاكو » ، حسب رواية ابن العبرى ، من أوائل الشتاء إلى الربيع ، ربما كان ذلك عام ٦٥٦ – ٦٥٧هـ/١٢٥٨ – ١٢٥٩م ، ولم يعد أفراده إلى الناصر ، الذى لم يمنعه من الذهاب شخصياً سوى خوفه من كبار أمرائه ، إلا فى ربيع ذلك العام[٣٥]. ولذلك أرسل الناصر ابنه ، حسب رواية الحنبلى ، العزيز محمداً إلى هولاكو فى سنة ٦٥٦هـ/١٢٥٨م بتحف وهدايا ليصانعه بذلك[٣٦].

كان رشيد الدين ممن تطرق لموقف الناصر من المغول بشكل عام حيث يقول : « ... وعندما وصل هولاكو إلى الأراضى الإيرانية كان سلطان حلب يظهر له فى بعض الأحيان الولاء والطاعة فى الخفاء ، لذلك السبب أضحى متهماً لدى سلاطين الشام ، الذين ساروا ضده ، فخافهم ولاذ بالفرار إلى

حضرة هولاكو خان ، لذلك فقد عقد (يعنى هولاكو) العزم على فتح حلب»[٣٧].

على الرغم من انطباق هذه الرواية على موقف الناصر العام من المغول ، إلا أن رشيد الدين قد وقع ، على ما يظهر لى فى لبس وخلط ، وتحتاج روايته إلى إيضاح . لأن الناصر لم يذهب بنفسه ، وعن طواعية واختيار ، إلى هولاكو ، كما يبدو من هذه الرواية . فمن المعروف أنه أخذ أسيراً ، إلى « هولاكو » كما سنرى فيما بعد من هذا البحث . أما مسألة أن ذهاب الناصر إلى « هولاكو » قد قوى من عزمه على قصد حلب وفتحها ، فإن ذلك الأمر لم يكن يحتاج إلى شىء من ذلك ، لأن أوامر « القا آن » واضحة ، حيث تقضى على « هولاكو » بألا يتوقف فى مسيرته إلا عند حدود مصر الغربية . ومعروف أين هى حدود مصر هذه . « فهولاكو » والمغول لم يكن الأمر يحتاج منهم إلى تحريض محرض ، أو تلبية دعوة داع . وقد ناقض مؤرخنا نفسه فى رواية ، أوردها فى مصنَّفه هذا ، حول الناصر . وسنتكلم عن ذلك فى حينه ، من هذا البحث[٣٨]. أما أن الناصر أصبح متهماً عند بنى أيوب بأنه موالياً للمغول ، فهذه إشارة من رشيد الدين إلى شىء معروف ؛ فالناصر ، وكما سبق ذكره ، موال للمغول حتى قبل أن يصل « هولاكو » إلى المنطقة . والسؤال هنا : ما الذى منع الناصر من الذهاب بنفسه إلى الأمير المغولى عندما طلب منه ذلك ؟ يبدو لنا أن الذى منعه أمور كثيرة منها : خوفه من أسرته ، وأنه كبير بنى أيوب ، وما سيلحقه من اللوم ، وأن مكانته ، سياسياً وعسكرياً ستعرض إلى الخطر ، وربما إلى الدمار ، من الداخل ومن الخارج . ففى الداخل ، نجد أن مكانته لم تكن فى وضع جيد ، إذ أن علاقته بكبار الأمراء من غلمانه وغلمان أبيه ، بدأت تضعف ، وخاصة بعد أن أخذ كبار مماليك أبيه يظهرون عدم الولاء التام ، بسبب ما يعانونه من قلة ذات اليد ، ومن المطعم والملبس . لذلك نجده يضطر إلى سماع شكواهم ويزيد فى عدتهم حتى طابت نفوسهم . ومع ذلك لم يكن مطمئناً إلى ولائهم ، فأخذ عليهم العهود المواثيق ، حتى زال شىء مما فى نفسه من القلق . كذلك نجد أن قوة التركمان والأكراد الشهرزورية ،

الذين رحب بهم ، وأنعم عليهم بالخلع والأعطيات ، يخونونه ، ويذهبون إلى صاحب الكرك والشوبك ، خصم الناصر . ومن ناحية ثالثة كان وضع الناصر من الخارج لا يسمح له بالخروج عن مملكته ، حتى لا تخرج عنه ، إلى إحدى القوى المحيطة به من الخارج فالصليبيون ، جيرانه ، رغم أنه لم يثبت أن أياً من الطرفين قد تعدى على الآخر ، ومع ذلك كان يخشاهم الناصر . وهناك قوة المماليك ، التي أخذت تتطلع ببصرها إلى الشرق ، للتوسع على حساب أملاك الأيوبيين ، أسيادهم فيما مضى ، وهناك المنافس الأول على رئاسة وزعامة بني أيوب ، الملك المغيث ، الذي كان يهدده من وقت إلى آخر ، وخاصة بعد أن تقوى بذهاب المماليك إليه ، وكذلك انخراط الأكراد والتركمان تحت لوائه ، بعد أن ترك الجميع الخدمة في جيش الناصر ، لذلك نجده يضطر إلى التجهيز والخروج للقائهم ، دفاعاً عن ممتلكاته وذلك في أوائل عام ٦٥٧هـ/١٢٥٩م ، عندما خرج المغيث ليغزو دمشق ، وليأخذها من الناصر ، فكتب له النصر ، فضعف المغيث بعد الهزيمة وانفضت من حوله تلك القوى التي البته واستعز بها[٣٩] . أما المماليك في مصر ، فإنه عندما انضم إليه الأمراء الهاربون من المعز ايبك التركماني ، وعلى رأسهم الظاهر بيبرس ، فأرسل إلى المعز يطلب منهم إعادة أراضي كانت قد أخذت منه على طريق الساحل ، فخاف المعز وأعادها إليه . وهنا خشي الناصر أنه لو ذهب إلى « هولاكو » لربما استغل الأعداء المماليك فرصة خروجه ، وهاجموا ممتلكاته ، وربما فقدها جميعاً[٤٠] . إضافة إلى ماذكرناه ، فإن موقف الناصر من محمد الكامل ، صاحب ميافارقين ، كان لا يسمح له بالذهاب شخصياً ، إذ أنه ، وفي هذا الوقت بالذات ، سيعرض نفسه للوم وتقريع الناس . فقد كان محمد الكامل يحالد المغول المحاصرين له منذ أكثر من سنة ، وكان قبل ذلك قد جاء شخصياً إلى الناصر ، وطلب منه الاتحاد ضد المغول ، إلا أنه رفض ذلك ، بل وسفهه ، ولم يكترث به . فعاد محمد هذا إلى ميافارقين ، ولم يستسلم للمغول ، وقاتلهم عامين كاملين تقريباً ، حتى استشهد ، يرحمه الله[٤١] .

مما سبق يتضح لنا أن الناصر يوسف كان موالياً للمغول ، ويدين لهم بالطاعة . لذلك رأى أن يتريث فى مقر ملكه ، حتى يقترب « هولاكو » منها ، فيخرج إليه ، فيكون بذلك قد حظى برضى الأمير المغول ، بما سبق وفعله ، عندما أرسل ابنه وأمراءه ، ومعهم الهدايا وخطاب الاعتذار ، كما سبق ذكره ، وضمن بقاءه على كرسى مملكته ، حتى ولو كان تحت ظل المغول وحكمهم المباشر ، لأن ذلك ، فى نظره أفضل من الخروج إلى « هولاكو » وهو ما يزال فى العراق ، وأذربيجان ، فيأتى أعداؤه لمهاجمة ممتلكاته ، فيستولون عليها ، ويخربون أراضى آبائه وأجداده من تحت يديه . لهذه الأسباب جميعها رأى الناصر ، كما يبدو لنا ، أن يوفد ابنه ، حتى لا يظهر أنه قد تجاهل رسالة « هولاكو » ، فيغضبه من ناحية ، ولم يذهب إليه هو بنفسه ، خوف أسرته ، ومذمة المسلمين ، وخشية تعرض أراضيه للغزو الخارجى من ناحية ثانية .

ومع هذا وذاك فإنه لم يخف على الأمير المغول موقف الناصر الغامض . فالمغول لا يؤمنون إلا بواحدة من اثنتين أما الخضوع المطلق للمغول ، والاستجابة لداعيهم وتنفيذ أوامرهم ، وإما المساوفة ، وهذا عندهم يعنى العداء الصريح ، فهم قوم لا يؤمنون بأنصاف الحلول . لهذا ، نجد « هولاكو » يعيد ابن الناصر ، ومن معه ، ويحملهم رسالة لإبلاغها إليه . وهذا ما يظهر من أسلوب رسالته إلى الأمير الأيوبى . وهنا يذكر رشيد الدين بأن « هولاكو » سمح لرسل الناصر بالعودة إلى الشام ، وذلك فى ١٩ ربيع الأول ، وحملهم رسالة إليه[٤٢]. وقد أشارت المصادر ، ذات الصلة المباشرة ، إلى عودة وفد الناصر وهم يحملون رسالة غير التى ذكرها مؤرخنا هذا ، والذى أورد رواية غير دقيقة فى هذا الشأن ، كما يبدو لنا . فهذه الرسالة التى جاء بها رشيد الدين ، قد حملت إلى الناصر قبل أن يكون هناك مراسلة بين الطرفين ، بعد وصول هولاكو إلى العراق . وكذلك فإن من نتائج هذه الرسالة كانت استجابة الناصر ، حيث أرسل ولده والوفد المرافق له إلى الأمير المغول . ويظهر لنا أن هذه ربما كانت إشارة من رشيد الدين إلى عودة الوفد ، ومعهم

رسالة أخرى غير تلك التي جاءت في العام المنصرم ، إلى الناصر ، كنتيجة لها ، لأن المصادر الأخرى ذات العلاقة تذكر شيئاً من هذا ، كما سنرى هنا .

ففي هذا الشأن ، تحدثنا بعض الروايات تلك ، أن رسل الملك الناصر عادوا إليه في شعبان من عام ٦٥٧هـ/آب ، أغسطس ، سنة ١٢٥٩م ، وأنهم ذكروا للناصر أن « هولاكو » قد قبل الهدية ، وطابت بها نفسه ، وزال ما كان عنده[١٣]. أما ابن العبري ، فإنه يذكر في هذا الخصوص أن الملك العزيز قال لأبيه ، بعد عودته : « قد قال ملك الأرض (يعني هولاكو) : نحن للملك الناصر طلبنا لا لولده فالآن إن كان قلبه صحيحاً معنا يجيء إلينا وإلا فنحن نمشي إليه »[١٤]. أما صاحب مصنّف « الحوادث الجامعة .. » فيقول بأن « هولاكو » قال لابن الناصر : « .. ، نحن طلبنا أباك وحيث لم يحضر نسير إليه »[١٥].

مما سبق ذكره ، يتضح لنا بجلاء أكثر أن الملك الناصر يوسف كان في الغالب موالياً للمغول ، ويدين لهم بالطاعة . فرأى ، على ما يظهر لنا ، أن يتريث في مقر ملكه ، حتى تتضح الرؤيا ، ويقترب « هولاكو » من أراضي الشام ، فيخرج إليه ، فيكون بذلك قد حاز رضاه ، بما سبق وفعله ، عندما أرسل ولده وأمراءه ، وهم يحملون الهدايا كما سبق ذكر ذلك ، وضمن ممتلكاته من أي هجوم قد يقوم به أحد أعدائه ، الصليبيون ، والمماليك ، أو المغيث ، وبذلك يفوز على البقاء في كرسي مملكته ، تحت سلطة المغول . ولكن حدث في النهاية أمر من الناصر ، على غير ما ظهر منه ، طوال السنوات العشر الماضية . فقد تغير موقفه من موال للمغول ، كما رأينا ، إلى محاربه ومقاتل ضدهم . فما هو السبب وراء ذلك التغير المفاجيء ، والغير متوقع ، وقد رفض قبل ذلك أن يتعاون مع محمد الكامل ، صاحب ميافارقين ، ضد العدو الغازي ؟

هولاكو يستعد لغزو الشام ومصر ، وبدأهما بمهاجمة ممتلكات الناصر :

بعد أن قوض المغول خلافة بنى العباس ، وقُتِل آخر خلفائهم ، انتهى « هولاكو » بذلك من انجاز المرحلة الثانية من المهام التى أوكلت إليه من المغول المجتمعين فى « قراقورم » فى سنة ٦٤٩هـ/١٢٥١م . لذلك كان لابد لجنود المغول وخيولهم من فترة طويلة للراحة ، كما هى عادتهم ، بعد كل غزوة كبيرة ، يقومون بها ؛ فالرجال متعبون ، ويحتاجون لوقت ليس بالقصير للراحة ؛ ودوابهم ، والخيل منها خاصة ، تحتاج لوقت حتى تستعيد فيه قوتها ونشاطها ، فتسمن وتستعد للحملة القادمة .

بناء على ذلك ، نجد أن « هولاكو » يقضى ، مع جنده ، وقتاً ليس بالقليل ، قبل أن يستأنف العمل ، لإتمام المرحلة الثالثة والأخيرة من مهام حملة المغول الغربية . فعلى الرغم من أنه كان قد رحل من بغداد فى منتصف شهر صفر عام ٦٥٦هـ/ العشر الأواخر من شهر شباط ، فبراير سنة ١٢٥٨م ، إلا أن القوات المغولية لم تعبر نهر الفرات ، لتبدأ غزوها لبلاد الشام إلا فى الأيام الأخيرة من شهر رمضان عام ٦٥٧هـ/أيلول ، سبتمبر سنة ١٢٥٩م . ومعنى ذلك أن المغول قضوا قرابة سنة ونصف وهم يسرحون ويمرحون فى أراضى أقاليم العراق العجمى ، وأذربيجان ، وأرمينيا ، والجزيرة ، دون أى عمل رسمى يقومون به ، حيث لم نجد فى مصادرنا التاريخية التى تسنى لنا الرجوع إليها ، أية رواية ، عن أى نشاط عسكرى قامت به القوات المغولية على نطاق كبير ، طوال هذه الفترة . ورغم ذلك فإن « هولاكو » لم يقض السنة والنصف ، وهو جالس دون عمل يخدم المرحلة التالية لحملته . فقد استغل فترة راحة جنده وكراعه فى إرسال الوفود ، واستقبال السفراء ، كل ذلك بغرض إنجاح حملته الأخيرة ، وتذليل كل ما من شأنه أن يقف حائلاً أمام المغول ، أو ما قد يعرقل أو يؤخر النصر الحاسم والسريع ، الذى كان الهدف الذى يسعى إليه كل مغولى . ولعل رسل الملك الناصر ، الآنف ذكرهم ، كانوا ممن ذهب إليه فى هذه الفترة ، وكانوا من جملة من استقبلهم « هولاكو » فى أذربيجان[٤٦] .

بعد أن استكمل « هولاكو » كافة استعداداته ، بدأ أول مرحلة من هجومه ضد أراضي الشام . فهاجمت جحافل المغول ديار بكر وربيعة ، فأخضعت ما تبقى من إقليم الجزيرة بالعراق ، حيث أخذوا ديبسر ، ونصيبين ، وحران ، من أملاك الناصر يوسف ، ثم ساروا إلى البيرة ، وأخذوا قلعتها ، وأخرجوا منها أحد أمراء بني أيوب ، الذي كان مسجوناً فيها منذ تسع سنين ، فاستعان به المغول في فتح أراضي الشام[47]. وهنا يذكر ابن العميد بأنه عندما سمع الناصر يوسف بأن المغول قد أخذوا الأجزاء الشرقية من مملكته ، شاور كبار دولته ، ومماليك أبيه في الأمر . وفي النهاية استقر الرأي على التصدي للمغول ، ومناجزتهم بالسيف ؛ فجمع جموعه ، وهرج بهم ، وخيم خارج مدينة دمشق ، إلى الشمال منها في قرية بَرْزَة . وفجأة اكتشف الناصر مؤامرة ، حيكت بليل على يد الكبار من قادته ، وممن تحمس لملاقاة المغول ، لقتله ؛ لذلك هرب المتآمرون ، بعد معرفة نبأ اكتشاف مخططهم . بعدها تشتتت قوات الناصر ، واختل نظامها ، قبل أن يشتبك مع العدو ، بل وقبل أن يسمع بعبورهم نهر الفرات إلى بلاد الشام ، وطمع فيها القاصي والداني ؛ فأصبح خائفاً يترقب ، مشرداً ، حتى وقع في مصيدة حاكها له أحد أتباعه المخلصين ، فأخذ إلى القائد المغولي ، كما سيرد معنا[48].

وهنا نتساءل : لماذا استقر رأي الناصر على قتال المغول ، وكان بجنبه ودهم ، كما ذكرنا أعلاه ، وكان قد أضاع فرصة ثمينة في هذا القتال ، عندما عرض عليه محمد الكامل ، صاحب ميافارقين ، إلمّ الشعث ، والانضمام إلى العدو المشترك ، الذي جاء ليقضي على الصغير والكبير ، ويدمر كل شيء ويابسة ؟

لو رجعنا إلى العلاقات السياسية بينه وبين المغول ، طوال العشر سنوات الماضية ، لقلنا بأن الناصر لم يكن في حقيقة الأمر يعرف مواجهة المغول بشكل ومناطحتهم في ميدان القتال ، لعلمه التام بعجزه ؛ إضافة إلى أسباب أخرى جداً ؛ لعل من بينها :

١ - عدم وحدة البيت الأيوبى ، فقد شارك هو شخصياً فى تفكك هذا البيت بدليل :

(أ) رفض التعاون مع صاحب ميافارقين ضد المغول .

(ب) كان قد هاجم أراضى أمرائهم الباقين فى الشام ، حتى استصفى ممتلكاتهم فيها ، وسجنهم ، وشتت شملهم[٤٩].

٢ - ضعفه من الناحية العسكرية ، فعلى الرغم من أنه كان يملك قوة كبيرة مكونة من المماليك ، والأكراد ، والتركمانيين ، إلا أن وجودهم بهذه التركيبة كان عامل ضعف فى حد ذاته ، وذلك للأسباب التالية :

(أ) أن الأكراد والتركمانيين جاءوا أصلاً إلى الشام هاربين من مقصلة « هولاكو » ، بعد أن دمرهم قائده « كدبو قانويان » ودمر قلاعهم ، وعلى رأسها « دوتنك »[٥٠]. فكون الناصر آواهم ، وفوق ذلك استخدمهم فى جيشه ، يجعل المغول أكثر حقداً عليه ، وأشد تصميماً ، لبذل ما فى وسعهم لتدميرهم ، وتدمير من يخدمون ، فهم طلبة « هولاكو » ، بل وطلبة أخيه « القاآن منكو » . فكانت مسألة تدمير الثور والأكراد والتركمانيين من أول الواجبات التى ألقاها المغول وخانهم بها « هولاكو »[٥١]. لذلك ، فقد هربوا ، ونجوا بجلودهم من المغول ، فكانوا سيقومون بالهرب من أمامهم أيضاً لو قابل الناصر المغول وهم من جملة جنده .

(ب) التنافس ، بل والتنافر ، الشديدين بين قوة الأكراد والثور من جهة مع الأتراك المماليك من جهة ثانية . فكل فئة تكيد للأخرى ، وتحسدها على أية مكانة قد تصل إليها لخدمة هذا السيد أو ذاك . فكل طائفة تكيد للفرقة الأخرى ، وتعمل على نفيها واستئصالها . لذلك نجد الأتراك المماليك يعملون فى التخطيط لقتلهم ، بل وقتل الناصر نفسه ، وتوليه من يرون من بينهم[٥٢].

(جـ) عدم استعداد الأكراد للقتال فى صفوف جيش الناصر ، ضد المغول ، لنفس الوارد فى الفقرة قبل السابقة ، إضافة إلى أنهم سبق وخانوه ، وذهبوا إلى خصمه ، الملك المغيث ، صاحب

الكرك والشوبك ، وقاتلوا معه ضد سيدهم الحالى ، رغم إنعاماته واعطياته لهم . أما ما قاله أحد قادتهم ، وهو شخص يدعى بدر الدين الحضرى ، من أنه لم يعارض ويفارق الناصر إلى المغيث إلا لجبن الأول عن ملاقاة المغول ، فإن هذا القول مردود عليه ، لأنه لو كان يود مجابهة المغول ، لما هرب فى الأصل من أمامهم ؛ إضافة إلى أن المماليك تآمروا على قتلهم لأنهم قد عقدوا العزم بألا يقفوا مع المماليك ليقاتلوا المغول ، وهذا ما أورده الأتراك كسبب لتآمرهم عليهم وعلى الناصر .

(د) لم تكن طائفة المماليك راضية عن سيدها الجديد ، الناصر ، على الأقل لسببين :

السبب الأول : أن الناصر لم يلب رغبتهم ، ويسير معهم ضد حكومة المماليك الآخرين فى مصر ، فقد هربوا من هناك خوفاً من صاحبها ، الملك المعز ايبك التركمانى ، الذى أراد تصفيتهم ، لتآمرهم عليه . لذلك لجأوا هاربين منه إلى الناصر ،فأطمعوه فى ملك مصر ، ليس حباً فى الناصر ، وولاء له ، بل للانتقام من ملكها المعز . وكان الناصر يعلم ذلك . إضافة إلى أنه كان يعلم بأن المماليك البحرية لا يمكن أن يثبتوا معه ، كما زعموا ، ضد المغول ، وأكبر دليل على ذلك أنهم سبق وهجروه ، وذهبوا إلى صاحب الكرك والشوبك ، وقاتلوا معه ضد الناصر . أما عودتهم إليه مرة ثانية ، فإن ذلك لم يكن عن طواعية منهم واختيار ، فقد كانت مسألة : سليمهم إلى الناصر أحد شروط عقد صلح الناصر مع المغيث ، بعد هزيمة الأخير فى الاشتباك ، الوارد ذكره أعلاه ، فى أوائل سنة ٦٥٧هـ/١٢٥٩م ، على عقبة أريحا . « فأخذهم الناصر ، تحت الحوطة إلى دمشق ، وسير البحرية إلى الحصون واعتقلهم بها .. »[٥٣].

السبب الثانى : اشتراك غيرهم معهم (من الأكراد والتركمان) فى جيش الناصر ، وربما أنهم قد أحسوا بأن سيدهم أخذ يفضلهم

على المماليك . لذلك نجدهم يحيكوا مؤامرة للفتك بالناصر وأخيه ، والأكراد والتركمان جميعاً .

٣ – لم يكن مماليكه ولا مماليك أبيه يكنون له الولاء والطاعة ، وخاصة الكبار منهم . وأكبر دليل على ذلك امتناعهم عن أداء اليمين له بالطاعة ، ولم يوافقوا على أداء اليمين إلا بعد أن أعطاهم أموالاً ، وأنعم عليهم انعامات وافرة[٥٤].

٤ – أن الناصر لم يوافق على إعداد الجند والخروج بهم خارج دمشق إلا للطاعة العمياء التى كان يوليها لأمرائه ، من مماليكه ، ومماليك أبيه . « وكان لا يخالفهم فى شيء البتة لاعتماده عليهم .. »[٥٥]. كما كان الناصر يعلم ذلك منهم ، فلو خالفهم فى عدم ملاقاة المغول لتذرعوا بذلك حجة عليه ، وأطاحوا به ، وولوا غيره . ولذلك عندما جاء الجد وأعاد مشاورة مماليكه ومماليك أبيه ، أشاروا فى النهاية بعدم ملاقاة المغول ، وبعدها « ... تقللت العساكر وتصرمت وقلت الحرمة ، وطمع كل أحد ولم يبق عند الملك الناصر والأمراء إلا قوم قلائل ... »[٥٦]. لهذه الأسباب جميعها لم يكن الناصر يود ، بادىء ذى بدء ، مناصبة المغول العداء .

بعد أن أخذ دينسر ، ونصيبين ، والرها ، واسباخ سروج ، وبعد أن ترك فصيلتين من جنده لأخذ ميافارقين وماردين ، عبر « هولاكو » نهر الفرات بقواته على ثلاثة جسور ، قامت كل فرقة من أجنحتها الثلاثة بالعبور من على جسر معين لها ، إذ مد جسر بالقرب من ملطية ، عبرت عليه قوات الميمنة ، ونصب آخر عند قرقيسيا ، حيث عبرت قوات الميسرة ، وبنى ثالث عند البيرة ، عبرت عليه قوات القلب ، والتى كان « هولاكو » على رأسها ، وذلك فى رمضان ٦٥٧هـ/سبتمبر ، أيلول ١٢٥٩م . وهناك ارتكب مجزرة هائلة عند منبج . ثم تقدم باتجاه مدينة حلب . وبعد مناوشة خاطفة مع نائب الناصر عليها ، الملك المعظم توران شاه ، انهزم ، وهرب صوب حلب وتحصن فى قلعتها .

وصلت قوات المغول حلب ، فحاصروها من جهات أربع[٥٧]. وبعد حصار دام حوالى عشرة أيام استسلمت المدينة فى محرم ٦٥٨هـ/١٢٦٠م ، وبعدها اقتحم المغول وأعوانهم قلعتها ، بعد حصارها قرابة أربعين يوماً . ثم استسلمت مدينتا حمص وحماه طواعية ، فسلمتا من النهب وغيا أهلها من القتل . أما مدينة دمشق ، فقد تشاور ذوو الرأى وكبار رجالاتها ، فتوصلوا جميعاً إلى أنه يجب إعلان الطاعة للمغول ، والدخول تحت سلطانهم لئلا يلحقهم ما حل بأهل حلب ، التى تذكر الروايات التاريخية بأن من قتل فيها فاق من قتل فى بغداد ، على أيدى المغول وأعوانهم . لذلك فقد استقبل أهل المدينة المغول ، وقدموا مفاتيحها ؛ فدخلوا المدينة ، وسلمت وسلم أهلها[٥٨].

نهاية الناصر يوسف على أيدى المغول :

كان الناصر قد غادر مدينة حلب ، وذهب إلى أختها دمشق ، بعد أن جاءته أخبار تفيد بأن المغول قد أخذوا ممتلكاته فى شرق الفرات . وبعد أن تفرقت عنه أكراده ومماليكه من البحرية وغيرهم ، وعندما بلغته أنباء سقوط حلب ، مدينته ومدينة آبائه وأجداده ، واقتحام المغول لقلعتها ، التى كان يظن بأنها لا تؤخذ أبداً مهما طال حصارها ، عقد العزم على الفرار من دمشق ؛ فهجر الشام وذهب فى طريقه باتجاه مملكة المماليك فى مصر ، وذلك فى منتصف شهر صفر عام ٦٥٨هـ/يناير ، كانون الثانى ١٢٦٠م . حول هذه المسألة يحدثنا ابن العديم ، الذى كان مصاحباً للناصر ومجموعة من كتابه وخواصه ، بأن سيدهم ترك مدينة دمشق « ... ، خالية من العساكر وأهلها على الأسوار يخالفهم ويشتمونهم[٥٩] ويدعون عليهم ويقولون تركتمونا طعم للتتار (المغول) لا كتب الله عليكم سلامة »[٦٠]. ثم يردف هذا المؤرخ ، الذى كان ينقل لنا ما شاهده بعينيه ، قائلاً بأن الناصر وأهله وحريمه ومن صاحبه فى تلك الرحلة « وجدوا من المشاق والشدائد فى الطرقات ما يعجز الوصف عنه ، وسببه أن خروجهم كان فى شدة البرد وقوته ووقعت الأمطار الكثيرة وكثرت الأوحال وتكسرت الجمال من الزلق والأوحال وتهتكت النسوان بين

الفلاحين وتخطف أهل البلاد من قماشهم وما كان معهم وعليهم شيئاً كثيراً وجرت عليهم صعوبات كثيرة عظيمة »[٦١].

وصل الناصر إلى بابلس ، ومنها ذهب إلى غزة ، ثم خرج من الأخيرة إلى العريش ، وهو لم يستقر على رأى معين بعد ، فقد كان يفكر فى بداية رحلته من دمشق بأنه سيذهب إلى مصر ، ولكنه خاف ملكها ، المظفر قطز ، فأرسل إليها زوجته ، وبعض أفراد أسرته[٦٢]. أما هو فإنه غادر العريش إلى الرمل ، ومعه بعض أقاربه وأمرائه . وقد كان أرسل إلى قطز يطلبه العون والاتحاد ضد العدو الغازى ، إلا أن عدم ذهابه إلى مصر ، وخروجه إلى الرمل جعل قطز يظن بأن تلك حركة من الناصر يريد الاحتيال والدخول إلى مصر خدعة وخلسة . فشرع قطز فى مكاتبة أمراء الناصر وخواصه المرافقين ، ووعدهم الوعود الحسنة ، فهجروه وذهبوا إلى قطز ؛ ولم يبق معه سوى قلة لا يتجاوز عددهم الخمسة[٦٣].

توجه الناصر ، ومن معه ، إلى قطيا ، ومنها ساروا إلى الشوبك ، ومن ثم اتجهوا إلى الكرك ، من مملكة المغيث ، الذى سأله القدوم إليه فى قلعتها ، إلا أن الناصر خافه ، فرفض قبول دعوة الملك المغيث ، فغادر الكرك إلى البلقاء . ولقد مكث فى أطراف هاتيك الربوع ، حتى فاجأته قوة من المغول ، وهو على بركة زيزا ، إحدى قرى البلقاء فأحاطوا به وبمن معه ، واعتقلوهم ، فأخذوهم إلى قائد المغول العسكرى فى الشام ، كدبوقانويان ، الذى أرسله إلى « هولاكو » ومعه أخوه الملك الظاهر . ولقد كان الأخير استسلم إلى المغول ، ونزل من قلعته صرخد ، فأبقاه القائد المغولى معه حتى جىء بأخيه الناصر ، فأرسلهما ومن معهما إلى سيدة قرب بحيرة وآن . وكان الذى دل على الناصر أحد غلمانه وأتباعه ، وهو شخص يدعى حسين الكردى ، حيث ذهب خلسة إلى « كدبوقا » وطلبه اقطاعاً ليدله على خبر سيده ، فأعطى بغيته ، فقاد جماعة من المغول إلى مكان الناصر ، وكان الكردى قد حسن له المضىء إلى المغول ، فاغتر بقوله ، فدس إلى « كدبوقا » فأرسل من قبض عليه ، وكان حسين الكردى طبردار الناصر[٦٤].

كان « هولاكو » قد رجع من حلب ، وعبر الفرات ، ثم ذهب إلى إقليم أرمينيا ، حيث جيء بالناصر إليه ، وهو مقيم على السواحل الشرقية من بحيرة وآن[٦٥]. وحول هذه المسألة تذكر الروايات ذات الصلة أن « هولاكو » استقبل الناصر أحسن استقبال ، وفرح به ، وأحسن إليه ، وكان يجلسه بالقرب منه على كرسي ، ورتب له راتباً كبيراً ، ووعده بكل خير وجميل ، وأنه يعيد إليه ممتلكاته جميعها[٦٦].

كان هذا التصرف من « هولاكو » ، تجاه الناصر ورفاقه ، أمراً مألوفاً ، وحيلة معروفة منه ؛ فقد فعل الشيء عينه مع كل من الخليفة العباسي المستعصم ، ومع ركن الدين خورشاه[٦٧]. فلقد كان مايزال أمام « هولاكو » بقية من أراضي الشام وفلسطين لم تفتح ، وفوق ذلك مملكة وأراضي مصر ، فلابد من الاحسان إلى هذا الأمير الأيوبي ، بل هو أكبر أفراد أسرته ، ليسهل به إخضاع ما تبقى من هاتيك الأصقاع ، التي مر بفتحها ، حتى يصل إلى حدود مصر الغربية . ونحن نعلم أن « هولاكو » قد ندم على التسرع في قتل الملك محمد الكامل ، صاحب ميافارقين أشد الندم ، فقد كان يريد الإبقاء عليه لنفس الغرض . لذلك كان مقدم الناصر إليه مكسباً ، وورقة رابحة ، ليكسب به أخذ مصر بسهولة ويسر ، ويساوم به حكومة المماليك فيها[٦٨]. إلا أن هذا الأمير المغولي وقع في عين الخطأ السابق مرة أخرى . فعلى الرغم من تجربته مع محمد الكامل وقتله أباه ، وندمه على ذلك ، نجده أيضاً يأمر بشكل متسرع ، وهو في حدة غضبه ، بقتل الناصر ، وكافة أصحابه ، وأتباعه ، ومن معه ، وذلك في أواخر شهر شوال من عام ٦٥٨هـ/منتصف أكتوبر ، تشرين الأول سنة ١٢٦٠م ، عندما جاءته أنباء هزيمة كتيبته العسكرية التي تركها في الشام ، برئاسة « كدبوقانويان » ، وعاد هو إلى الشرق على أثر علمه بوفاة أخيه « القاآن »[٦٩].

وفي نظري أن « هولاكو » قد ارتكب عملاً لا يدل على حنكة سياسية ، ولا نظرة عسكرية بعيدة المدى ؛ وهذا بعكس ما عرف به واشتهر عنه وعن آبائه وأجداده ، وأهل بيته في هذا الميدان . فلم تفده تجربة مقتل صاحب

ميافارقين ، الذى كان بإمكانه استخدام محمد الكامل فى تسهيل فتح حلب ، والتى كلفت المغول الشىء الكثير قبل فتحها ، ثم إن الإبقاء على محمد الكامل حيا لدى المغول ، ومجىء بعض رجالات بنى أيوب الآخرين ، وانضمامهم إلى صفوف المغول ، كما فعل الملك السعيد بن العزيز ، صاحب بانياس والأشرف موسى ، صاحب حمص ، واستسلام الملك الظاهر أخى الناصر يوسف ، وغيرهم ، كل هؤلاء كان بإمكان « هولاكو » أن يجعلهم على رأس جيش يسير بهم ضد المماليك فى مصر ، بعد أن يطمعهم فى ملك مصر ، وإعادة أسرتهم الأيوبية كسابق عهدها ، تحكم الشام ومصر ، حتى وإن كان ذلك تحت ظل المغول ، وهذه السياسة سوف توفر على المغول الشىء الكثير ، سياسياً وعسكرياً . ولا أعتقد أن الأمراء الأيوبيين أولئك كانوا سيعارضون ، بل على العكس ، سيجدون ذلك غاية ما يتمناه كل واحد منهم ، لأسباب كثيرة لعل منها :

١ – حبهم فى استعادة ما فقدوه من ممتلكات فى أراضى الشام ، فتعاد لكل واحد منهم إمارته الصغيرة على الأقل .

٢ – تشوقهم الشديد لأن تعيد الأسرة الأيوبية ، كسابق مجدها ، نفوذها على مصر ، حتى وإن كان ذلك تحت ظل حكومة وثنية ، فلربما يأتى ذلك اليوم فيصبحون أقوياء فيستقلون عنهم ، ويصبح لهم الأمر والشأن ، أو لبعضهم .

٣ – حب الانتقام من حكومة المماليك فى مصر لأنها :

(أ) قامت بقتل الأمراء من بنى أيوب ، وهم الحكام وأصحاب الملك فى مصر ، وعلى رأسهم الملك المعظم توران شاه بن الصالح أيوب ، والصالح إسماعيل ، وغيرهما من أسرتهم الأيوبية[٧٠].

(ب) اقتطاعهم لأراضى وملك مصر ، من تحت النفوذ الأيوبى ، والاستقلال بها ، تحت حكم أفراد كان أشخاصها مماليكاً وخدماً للملوك وأمراء بنى أيوب .

(جـ) حب الانتقام من المماليك ، لما كان بين الطرفين من حروب ، ومعارك ، منذ انفصل المماليك واستقلوا بحكم القطر المصرى ،

بعد مقتل توران شاه ، وكان النصر فيها حليف المماليك .

٤ سوف ينتصر الأيوبيون ، ومعهم المغول ، على المماليك ، لما عرف عن المغول من الناحية العسكرية ، وشهرتهم فى هذا الميدان ، ثم أن أهالى مصر والشام سوف ينحاز منهم أعداد كبيرة تتعاطف مع الأيوبيين ، وهم حكامهم السابقين ، أما المماليك ، فهم مغتصبوا الحكم من أسيادهم .

إن أمورا عسكرية ، وسياسية غاية فى الأهمية والخطورة مثل هذه ، قد فاتت على « هولاكو » ، ساعة غضبه ، وحزنه الشديدين بمجرد سماعه بهزيمة كتبية من جنده ، ومقتل أغلب جندها ، وقادتها العسكريين ، وعلى رأسهم « كتبوقا نويان » نفسه . لذلك كان لتسرعه ، فى اتخاذ قراره الأحمق ذاك نتائج وعواقب سياسية وعسكرية سيئة على مستقبل فتوحات المغول للأراضى الواقعة إلى الغرب من نهر الفرات . فلم تكن هزيمة المغول فى عين جالوت وحدها السبب ، بل ربما لم تكن أى سبب ، فى تعثر ، ونهاية زحف المغول إلى الغرب من ماء الفرات . فهناك أسباب كثيرة تتعلق بوفاة الخان المغولى ، ثم الحرب الأهلية ، التى تلت وفاته لتنافس الأمراء على العرش المغولى ، الأمر الذى أخذ كل اهتمام « هولاكو » ؛ ناهيك عن مسألة مقتل أولئك الأمراء ، فساهم قتلهم فى ضياع ورقة رابحة فى يد « هولاكو » ساعة غضبه ، فجعل من المماليك أناسا جاءوا للانتقام لقتلهم ، ومقتل آلاف البشر من المسلمين فى الشام وفلسطين . فجعل الأهالى هناك ينسون كون المماليك مغتصبين لعروش بنى أيوب ، وهم خدمهم وعبيدهم ، ويلتفون حولهم .

أما ما يتعلق بحادث مقتل الناصر ومن معه ، فتحدثنا المصادر التاريخية ، ذات الصلة المباشرة ، أن « هولاكو » ، بعد سماعه بهزيمة جنده ، ومقتل قائده ، فى عين جالوت ، تشاءم ، وغضب ، فأمر فى الحال بقتل الناصر ، ومن معه ؛ ورحل من على شواطىء بحيرة وآن ، فى إقليم أرمينيا ، باتجاه تبريز فى أذربيجان . أخذ الناصر ، وأخوه الظاهر ، والصالح إسماعيل ، وجميع من كان معهم ، إلى جبال سنماس ، فذبحوا واحداً بعد الآخر ، ولم ينج من القتل

سوى الملك العزيز محمد ابن الناصر يوسف ، حيث شفعت فيه « توقوز خاتون » زوجة « هولاكو » ، فأرسل إلى مراغة ، مع من أرسل من أولاد الخلفاء والملوك ، وكان من بينهم مبارك شاه بن الخليفة المستعصم ، وقد شفعت فيه نفس المرأة ، عندما قتل المغول والده واخوته ، وكافة أسرته ، بعد سقوط بغداد[٧١].

أما صورة الحال ، التى قتل بها الناصر فقد أوردها ابن العبرى ، عن رجل شاهد عيان ، كان ممن يخدم الناصر ، وممن حكم عليه بالإعدام أيضاً ، ولم ينجه من الإعدام سوى تقوله بأنه منجم ، وأنه يعرف فى علم السماء ، والكواكب ، فتركه المغول ، وأرسلوه إلى « هولاكو » ، فأصبح من الناس الذين انخرطوا فى سلك الخدمة ، تحت إدارة نصير الدين الطوسى ، فى عمل الرصد فى مراغة ، ومنهم ابن العبرى وغيره كثيرون ، يقول ابن العبرى فى هذا الخصوص : « فغضب هولاكو لذلك (لمقتل كدبوقا وهزيمة جنده فى عين جالوت) وتقدم بقتل الملك الناصر وقتل أخيه الملك الظاهر وجميع من معهم . ولم يخلص منهم غير محى الدين المغربى[٧٢]. بسبب أنه كان يقول إننى رجل أعرف بعلم السماء والكواكب والتنجيم وفى كلام أقوله لملك الأرض (يعنى هولاكو) . قال محى الدين المذكور لما اجتمعنا به فى مدينة مراغة . انى لما قلت لهم هذا الكلام أعذونى وأحضرونى بين يدى هولاكو فتقدم أن يسلمونى إلى خواجا نصير الدين . وحكى لنا ما جرى للملك الناصر قال : كنت فى خدمته يوم الأربعاء عشرين شوال وهو يسألنى عن مولده إذ وصل أمير من المغول ومعه خمسين فارساً . فخرج الملك الناصر من الخيمة والتقاه وعرض عليه النزول . فامتنع قائلاً : هولاكو سيرنى ويقول : هذا اليوم لنا فرحة وقد عملنا دعوة وحضر الأمراء كلهم فتحضر أنت وأخوك وأولادك للأمر الذى لك عندنا . فجمع الملك الناصر جماعته مقاربة عشرين نفراً وركبوا وساروا صحبة ذلك الأمير . وبعد ساعة وصل أيضاً عشرون فارساً آخر وقالوا : يحضر الجماعة كلهم ولا يبقى فى المخيم غير الفراشين والمماليك الصغار والطباخين والغلمان . وباق الجماعة والخيالة والكتاب يحضرون فى الدعوة .

(قال) فأخذونا إلى مواضع أودية عميقة بين حجارة عالية ونزلنا عن الخيل فاحتاط كل واحد منهم بواحد منا وكتفونا . فلما عاينت ذلك بقيت أقول بصوت عال : إنني رجل منجم وأعرف بحركات الكواكب ومعنى كلام أقوله في خدمة السلطان ملك الأرض . فأخذوني وأقعدوني وراءهم مع جملة أتباعهم وشرعوا بقتل الجماعة ولم يخلص منهم غير ولدي الملك الناصر فاستأسروهما هناك[٧٣]. ثم ركبوا وعادوا إلى البيوت التي للملك الناصر ونهبوها وقتلوا باقي الجماعة التي تخلفت هناك . ثم عرضوا الأمر على هولاكو وأنا صرت في خدمة خواجا نصير الدين في الرصد بمراغة وابنا الملك الناصر في خدمته »[٧٤].

وهكذا انتهت حياة كبير بني أيوب ، وأقواهم ، وأكثرهم سعة في المال والجاه والوطن ، على أيدي المغول ، مذبوحاً كما تذبح الشاة ، بعد أن تهاون ، بل تقاعس عن قتالهم أيام كانوا بعيدين عن أراضيه وهم في العراق ، فقاه برد محمد الكامل مكسور الخاطر من عنده ، وهو يدعوه إلى الاتحاد والتعاضد والجد في قتال العدو الغازي ، فما كان من الناصر إلا أن استخف برأيه وسفهه . كما كان الناصر ، على ما يبدو لي ، هو المسؤول عن تفكك بني أيوب ، وصراعهم المقيت ، الذي طال مداه فيما بين أمراء هذه الأسرة ، ثم حروبه مع المماليك . فهل جنى بنو أيوب من تفككهم ومهاتراتهم السياسية ، وقتل وسجن بعضهم بعضاً إلا القتل والتشريد ، والذل والمهانة ، والعار على المحارم ، وفوق ذلك كله زوال الملك ، والنعمة . فوالله إنه : « لا جماعة لمن اختلف » . و « إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم » صدق الله العظيم .

هوامش وتعليقات البحث :

(١) ولد تيموجين فى عام ٥٤٩هـ/١١٥٥م فى مكان يعرف بـ « دبلون بولدا ق » على المجرى السفلى لنهر « آونون » . لمعلومات أوفر فى هذا الموضوع ، انظر : رشيد الدين فضل الله الهمدانى ، جامع التواريخ ، تحقيق بهمن كريمى ، طهران ، ١٣٣٨هـ . ش ، جـ١/ص ٢٣٣ ؛ بناكتى ، فخر الدين أبو سليمان ، تاريخ بناكتى ، تحقيق د. جعفر شعار ، طهران ، ١٣٤٨هـ ش ، ص ٣٦٢ . كذلك انظر الحواشى رقم ١ فى ص ٥٧ ورقم ٢ ، ٣ فى ص ٥٨ من كتابنا سقوط الدولة العباسية ، بيروت ، ١٤٠١هـ . أما ما يتعلق بمعنى جنكيز خان ، فقد شرحنا ذلك فى كتابنا آنف الذكر فى ص.ص ٧٥ – ٧٦ ولمعلومات أوفر فى ذلك راجع حواشى ص ٧٦ .

(٢) لمعلومات عن مراحل طفولة وشباب جنكيز خان راجع رشيد الدين ، جامع التواريخ ، جـ١ ص.ص ٣٣ ، ٢٤٠ ، ٣٣٦ ؛ مجهول المؤلف ، تاريخ المغول السرى ، الترجمة الانجليزية ، ارثروولى ، لندن ، ١٩٦٣م ، ص ٢٢٦ ، الطبعة الفارسية ، « تاريخ سرى مغولان » ، ترجمة د. شيرينى بيانى ، طهران ١٣٥٠هـ . ش ، ص.ص ٢٤ – ٢٥ . كذلك كتابنا سقوط الدولة العباسية ، ص.ص ٥٩ – وبعدها .

(٣) فى أواخر القرن السابع الهجرى/١٣ للميلاد ، كانت امبراطورية المغول تمتد من المحيط الهادى وجزر اليابان شرقاً ، ومن الهند الصينية فى الجنوب الشرقى إلى جبال الأبلاش وبحر البلطيق وآسيا الصغرى ونهر الفرات غرباً ، ومن سيبريا شمالاً إلى جبال الهملايا ونهر السند والبحر العربى جنوباً .

(٤) لقد درسنا مراحل توحيد قبائل المغول ، وجهود جنكيز خان ، فى كتابنا « سقوط الدولة العباسية » ص.ص ٦١ إلى ص ١٠٦ . لذلك فإن أى معلومات تتعلق بهذا الشأن سيجدها القارىء الكريم فى مصادر الكتاب المذكور ، والمنوه عنها فى حواشى تلك الصفحات .

(٥) كانت حروب جنكيز خان ضد امبراطورية « التنكوت » أو « هسى هسيا » قد استمرت فى خلال السنوات : ٦٠١هـ/١٢٠٤م ، ٦٠٣هـ/٦٠٦هـ/ ١٢٠٩ – ١٢١٠م . لمعلومات أول انظر : رشيد الدين ، جامع التواريخ ، جـ١/ ص.ص ١٠٢–١٠٥ ، ٢٠٦–٦٠٨ كذلك Martin, H.D. The Mongol Wars With Hsi-Hsia, (1205 – 1227) JRAS, 1942. pp 192 – 228, Saunders, J.J.

The History of the Mongol Conquests, London, 1971, p 53; Fox, E., Genghis Khan, London, 1963, p 143; Walker, C.C. Jenghiz Khan, London 1939, p.p. 39 – 44.

(٦) ما يتعلق بحروب جنكيز خان ضد أراضي الامبراطورية الصينية الشمالية « جين » راجع : رشيد الدين ، جامع التواريخ ، جـ١/ ٣٢٠ – ٣٣١ ، كذلك المراجع الانجليزية التالية :

Douglas, R.K. The life of Jenghiz Khan, translated from the chinese contemporary chroniclers, London, 1877, pp: 60 – 75; Vladimirtsov, B.Ya. The life of Chingis – Khan, translated from the Russian by Prince D.S. Mirsky, London, 1930, pp: 93 – 100

انظر الترجمة العربية التي قمت بها ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م ، ص.ص : ١٣٦ – ١٤٨ ؛

Martin, M.D. The Rise of Chingis Khan and his Conquests of North China, London, 1950, pp: 170 – 171; Lamb, H., The March of the Barbarians, London, 1941, pp: 59 – 60; Philips, E.D., The Mongols, London, 1969, pp: 53 58; Prawdin, M., The Mongol Empire, it's Rise and legacy, London, 1941, pp: 116 – 123; Saunders, The History of the Mongol Conquests.

(٧) لمعلومات تفصيلية عن ظروف وتاريخ مقتل أو وفاة جنكيز خان والمصادر المتعلقة بذلك ، وذات الصلة المباشرة ، راجع كتابنا « سقوط الدولة العباسية » ص.ص ١٣٦ – ١٤٠ وما ورد في حواشي هاتيك الصفحات من مصادر حول هذا الموضوع .

(٨) لقد فصل المؤرخ الفارسي المسلم ، عطا ملك الجويني ، في كتابه الموسوم بـ « تاريخ جهانكشاي » أي تاريخ فاتح العالم ، تحقيق الأستاذ المرحوم محمد بن عبد الوهاب القزويني ، طبع بريل ، بهولندا ، سنوات ١٣٢٩ ، ١٣٣٤ ، ١٣٥٥هـ/١٩١١ ، ١٩١٦ ، ١٩٣٧م جـ١ ، ص.ص ١٤١ – ١٤٩ في هذا الموضوع . راجع كذلك رشيد الدين ، جامع التواريخ ، جـ١/ ص.ص ٤٥٢ – ٤٥٤ ثم كتابنا سقوط الدولة العباسية ، ص.ص ١٤٤ – ١٤٥ وحواشي هذه الصفحات ، وقد حكم « اكتاي » من عام ٦٢٦هـ/ ١٢٢٩م إلى عام ٦٣٩هـ/ ١٢٤١م . لمعلومات عن فتوحات المغول في عهده ، راجع كتابنا الآنف ذكره ،

ص.ص : ١٤٦ ١٥٦ ، وما ورد في تلك الصفحات من مصادر مباشرة ، وبلغات مختلفة ذات علاقة .

(٩) حكم « كيوك خان » من عام ٦٤٤هـ/١٢٤٦م حتى وفاته في ٦٤٦هـ/١٢٤٨م . راجع الجويني ، جهانكشاي ، جـ١ص ٢١٥ ، كذلك الترجمة الانجليزية لهذا الكتاب الهام بعنوان :

The History of the World Conqueror, by: prof. J.A. Boyle, Manchester University Press, Manchester, 1958, Vol. I/ pp: 261F

كذلك رشيد الدين ، جامع التواريخ ، جـ١ص ٥٧١ ، والترجمة الانجليزية لذلك بعنوان :

The Successors of Genghis Khan, by: Prof. J.A. Boyle, New York, 1971, p: 185.

إذا لم يتوفر هذان المصدران فراجع كتابنا سقوط الدولة العباسية ص.ص ١٥٧ ١٥٩ .

(١٠) كل ما يتعلق بالصراع الداخلي ، بين أحفاد « جنكيز خان » حول الأحقية في تولية العرش ، راجع مصادرنا الواردة في كتابنا سقوط الدولة العباسية ، من صفحة ١٦٠ إلى صفحة ١٦٣ ، وما قيل في هاتيك المصادر في هذا الشأن ، وبخاصة في جامع التواريخ لرشيد الدين ، وجهانكشاي ، للجويني .

(١١) لقد فصلنا في كتابنا آنف الذكر ، حول تصفية وانهاء أمر الحشاشين الاسماعيلية في إيران ، وكذلك سقوط الخلافة العباسية ، في الصفحات من ١٦٧ وبعدها ، فللمزيد حاول أن تراجع مصادر مادتنا في ذلك الكتاب ، فلا أرى داعياً لسردها للقارىء الجليل هنا .

(١٢) انضم مع « هولاكو » حكام مسلمون ، كبدر الدين لؤلؤ ، وحكام كرمان ، وفارس ، وآسيا الصغرى ، ضد مسلمي العراق . راجع ذلك في الفصل الخامس من كتابنا سقوط الدولة العباسية . أما ما يتعلق بصاحب ميافارقين محمد الكامل ، فقد بحثنا موضوعه ، وكيفية قتاله المغول في بحث منشور قريباً في مجلة دارة الملك عبد العزيز تحت عنوان : « بطولة وفداء في ميافارقين » .

(١٣) كان يحكم في حصن كيفا وقلعة الهيثم ، الواقعتان في ديار بكر ، الملك الموحد ابن توران شاه ، وفي ميافارقين محمد الكامل ، وفي حماة المنصور بن المظفر ، وفي حمص الأشرف ابن المنصور ، بتركوه ثم أخذت منه وسلم عوض عنها تل باشر والرحبة وتدمر ، وفي بانياس والصبيبة الملك السعيد حسن بن عبد العزيز عثمان بن

العادل ، وفى الكرك والشوبك الناصر داود بن المعظم عيسى ، ثم أخذت منه إلى الصالح أيوب ، وبعدها إلى فتح الدين عمر ، وفى صهيون وبرزية وبلاطفس مظفر الدين عثمان بن منكورس ، أما الملك الناصر يوسف ، موضوع بحثنا هذا ، فكان بحكم حلب ، ثم أخذ بعدها دمشق ، وضم فيما بعد بعلبك ، وعجلون ، وشيزر وغيرها ، لمعلومات عن مواقع هذه الأماكن ، راجع المعجم الجغرافى لياقوت الحموى ، حسب حرف كل موقع ، كذلك راجع الكتب التالية عن الحكام المذكورين أعلاه ، أبو شامة ، شهاب الدين أبو محمد عبد الرحمن بن إسماعيل ، « تراجم رجال القرنين السادس والسابع » المعروف بـ « الذيل على الروضتين » بيروت ١٩٧٤م . ص.ص ٢٠٠ وبعدها ؛ أبو الفداء ، عماد الدين إسماعيل ، المختصر فى أخبار البشر ، بيروت ، غير معروف سنة الطبع ، الجزء الثالث ، فى صفحات متفرقة (١٦٥ - ٢٢١٣ ؛ ابن تغرى بردى ، أبو المحاسن يوسف ، النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة ، القاهرة ، ١٣٥٥هـ/١٩٣٦م جـ٧/ص ١٥ على سبيل المثال ، وغيره هذه المصادر المتعلقة بتاريخ بنى أيوب فى الشام . أنظر كذلك الحاشية رقم ٤٧ ، ورقم ٤٩ من هذا البحث ، لمعرفة أمثلة فقط على معاملة بنى أيوب بعضهم للبعض الآخر .

(١٤) لمعلومات عن الحروب الأهلية بين أمراء بنى أيوب ، راجع : ابن العميد ، المكين جرجس ، أخبار الأيوبيين ، ص.ص ١٤٨ وبعدها ؛ الحوادث الجامعة والتجارب النافعة ، المنسوب لكمال الدين عبد الرازق بن الفوطى ، تحقيق مصطفى جواد ، بغداد ، ١٣٥١هـ/١٩٣٢م ، ص.ص ٢٠١ على سبيل المثال ؛ سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان فى تاريخ الأعيان ، حيدر آباد الدكن ، ١٣٧٦هـ/١٩٥٢م ، ص.ص ٧٠٨ وبعدها ؛ شمس الدين ، أحمد بن محمد الذهبى ، العبر فى خبر من غبر ، تحقيق صلاح الدين المنجد ، ١٣٨٦هـ/١٩٦٩م ، جـ٥/ص ١٥٢ ، ١٦٤ ، ١٧١ ، ١٧٣ وبعدها ؛ ابن كثير ، أبو الفداء الحافظ ، البداية والنهاية ، بيروت ، ١٩٦٦م ، جـ١٣/١٤٨ وبعدها ، ١٧٩ وبعدها ٢١٥ ؛ ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، جـ٦/ص.ص ٣٠٣ وبعدها . ثم تتبع حوادث السنين بعد وفاة محمد الكامل ابن العادل ؛ المقريزى ، كتاب السلوك ، ٢/١ ، ص ٢٧٥ وبعدها .

(١٥) ولد الناصر يوسف فى رمضان عام ٦٢٧هـ/أغسطس ١٢٣٠م ، فى قلعة حلب ، انظر : ابن العميد ، أخبار الأيوبيين ، ص ١٤٣ ؛ ابو شامة ، تراجم ، ص.

٢١٢ ؛ ابن واصل ، جمال الدين محمد بن سالم ، مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب ، تحقيق : د. حسنين ربيع ، دار الكتب بالقاهرة ، ١٩٧٢ ، جـ٤ ، ص ٢٨٣ ؛ ابن خلكان ، أبو العباس شمس الدين أحمد ، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ، تحقيق : إحسان عباس ، دار صادر ، ١٩٧١م ، جـ٤/ص ١١٠ ؛ ابن شاكر ، محمد بن شاكر الكتبى ، فوات الوفيات ، تحقيق ، احسان عباس ، دار صادر ١٩٧٤م ، جـ٤/ص ٣٦١ ، الحنبلى ، أحمد بن إبراهيم ، شفاء القلوب فى مناقب بنى أيوب ، دار الحرية ، العراق ١٩٧٨م ، ص ٤٠٨ كذلك حاشية رقم ٢٠٦ من نفس الكتاب هذا .

(١٦) هى ضيفة خاتون بنت العادل ، وقد ظلت تدير مملكة حفيدها حتى توفيت ، وكان يعاونها أمراء كثيرون يتصدر قائمتهم الأمير شمس الدين لؤلؤ الأرمنى (وقيل الأمينى) ، والأكرام ابن التفطى ، وعز الدين المعلى ، والطواشى جمال الدولة ، واقبال الخاتونى . انظر ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، جـ٧/ص ٢١ ؛ ابن إبراهيم الحنبلى ، شفاء القلوب ، ص ٤٠٨ ، لمعلومات عن والده العزيز (٦٠٩ ٦٣٤هـ) انظر سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان ، ص ٧٠٣ ؛ أبو شامة ، تراجم ، ص ١٦٥ ؛ الذهبى ، العبر ، جـ٥ ص ١٤٠ ؛ أبو الفداء ، المختصر ، جـ٣/ص ١٥٨ ؛ ابن كثير ، البداية والنهاية ، جـ١٣/ص.ص ١٤٥ - ١٤٦ ؛ ابن العماد ، شذرات ، جـ٥/ص ١٦٨ ؛ ابن تغرى بردى ، النجوم ، جـ٦/ ص ٢٩٧ .

(١٧) كان على رأسهم أتابكة شمس الدين لؤلؤ ، (وقيل لولو ، ولالا) ابن عبد الله الأرمينى فكان الناصر لا يخالف له أمراً ؛ وظل كذلك حتى قتل على يد المماليك فى الوقعة الحربية التى قادها وهو على رأس جيش سيده ضد المماليك ليأخذ منهم مصر . كما سيرد معنا فى ثنايا البحث هذا . لمعلومات إضافية عنه انظر سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان ، ص.ص ٧٨٣ - ٧٨٤ ؛ ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، جـ٧/ص ٢١ ؛ ابن العماد ، أبو الفلاح ، شذرات الذهب فى أخبار من ذهب ، جـ٥/٢٩٩ ، انظر الحاشية رقم ٢٦ من هذا البحث .

(١٨) « وقد زاد ملكه على ملك أبيه وجده ، فإنه ملك حلب ، وحران والرها والرقة وراس العين وما مع ذلك وملك حمص ودمشق وبعلبك والأغوار والساحل إلى غزة .. » . انظر سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان ، ٧٧٩ - ٧٨٠ ؛ أبو شامة ، تراجم ص ١٨٦ ؛ راجع أيضاً وفيات الأعيان لابن خلكان ، جـ٤/ص ١١٠ ؛ ابن شاكر ، فوات ، جـ٤/ص ٣٦١ ؛ أبو الفداء ، المختصر ، جـ٣/ص.ص ١٧١ - ٢١٢ ؛ الحنبلى ، شفاء القلوب ، ص.ص ٤١١ - ٤١٣ - ٤٢١ .

(١٩) كان اللقاء في مكان اسمه الكراع قريباً من الخشبي في الرمل ، انظر المكين جرجس ، أخبار الأيوبيين ، ص ١٦٢ . ويقول أبو شامة أنها كانت على مكان يعرف بـ « سمرط » بين الخشبي والعباسية ، تراجم ، ١٨٥ - ١٨٦ . انظر سبط ابن الجوزي ، مرآة الزمان ، ص.ص ٧٨٠ - ٧٨١ ؛ الذهبي ، العبر ، جـ٥/ص.ص ١٩٧ - ١٩٨ ؛ المقريزي ، السلوك ، ٢/١ ص.ص ٣٧٢ - ٣٨٧ ؛ ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ، جـ٧/ص.ص ٧ - ١٠ .

(٢٠) كانت حفيدة الملك العادل القطبية بنت قطب الدين بن العادل ، وهي من عمات الملكين الأيوبيين المتخالفين والمتحاربين ، انظر أبو الفداء ، مختصر ، جـ٣/ص.ص ١٩٧ - ١٩٨ ؛ ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ، جـ٧/٣١٩ وبعدها .

(٢١) لم يذكر المؤرخ الجويني ، اسم أخي صاحب حلب المرسول إلى منغوليا . ولعل الأمر قد اشتبه على مؤرخنا ، إذ لم نعثر في مصادرنا على أن الملك الظاهر غازي ، وهو أخو صاحب حلب المعني هنا ، قد ذهب إلى القاآن المغولي ، وإنما كان الشخص الذي أرسل هو زين الدين الحافظي ، كما سيرد معنا في هذا البحث . وقد جاءت عبارة الجويني كما يلي : « ... ، واز حلب برادر صاحب حلب .. » . « واين جماعت هريك باجندان حمل كه لايق جنان حضرتي باشد بيامدندوار اطراف ديكر جندان ايلحيان ورسل بودكه قرب دو هزار خركاه جهت ايشان معد كرده بودند .. » . جهانكشاى ، جـ١/ص ٢٠٥ - ٢٠٦ . وقد أورد ابن العبري ، كريكوري أبو الفرج ، تاريخ مختصر الدول ، ترجمة المؤلف نفسه من اللغة السريانية إلى اللغة العربية (باختصار شديد عما ورد في الأصل) حققه صالحاني ، بيروت ، ١٩٥٨م ، رواية بنفس المعنى ، ص ٢٥٦ . انظر أيضاً رشيد الدين ، جامع التواريخ ، جـ١/ص ٥٦٨ . وقد أورد لنا في هذا الخصوص ورحالة أوروبي ، كان ممن شاهد رسل المسلمين ، وقال بأن أكثر من عشرة من السلاطين المسلمين أرسلوا وفوداً يمثلونهم لدى البلاط المغولي . انظر :

John de Plano Carpini, History of the Mongol, Ed. by: C. Dawson «The Monogl Mission» London and New York, 1955, p: 62.

(٢٢) يارليغ ، أو يرليغ ، وبايزا أو بيزه ، كلمتان مغوليتان ، معنى الأولى رسالة ، أو قانون ، أو منشور ، أو إقرار ، أو بلاغ ، أو جواب خطي من الخان . أما الثانية فهي عبارة عن لوح من الذهب ، أو الفضة ، أو الخشب ، طوله حوالي نصف ذراع ، وعرضه شبر تقريباً ، منقوش عليه اسم الله ، ثم اسم الخان المغولي الحاكم ، الذي ينعم بهما الخان على الشخص الذي يحوز على ثقته ، ويعتبر حامله من أتباع

الخان المغولي . ويطلب من كل أمير أو حاكم أو نائب مغولي أن يقدم لك من خمل هذين الشعارين ، أو أحدهما كل مساعدة وحماية . ويعتبر حاملها ، في بعض الأحيان وفي حالات فردية ، معفى من الضرائب .

(٢٣) ينتمي الأمير والنائب المغولي أرغون آغا ، إلى قبيلة « أيرات ، اويرات » ، فقد جاء إلى حكم أراضي الامبراطورية المغولية في الجنوب الغربي منها خلفاً لرجل اويغوري يدعى « كركوز » . وقد ظل يحكم هذه الولايات الغربية خمس عشرة سنة تقريباً (٦٤١ إلى ٦٥٤هـ/ ١٢٤٣ - ١٢٥٦م) حيث قدم « هولاكو » من الشرق . وقد توفي في ذي الحجة من عام ٦٧٣هـ/حزيران ، يونيه سنة ١٢٧٥م . انظر مقدمة المرحوم القزويني ، لكتاب « الجويني ، جهانكشاى » جـ١/ص.ص ٥ وبعدها . أورد الجويني نصه في هذا الشأن كما يلي : « ... ، وحكم ممالك خراسان وما زندران وهندوستان وعراق وفارس وكرمان لورو واران واذربيجان وكرجستان وموصل وحلب وركف أو نهاد وهريك درخدمت بودند .. » ، جهانكشاى ، جـ٣/ ص ٧٤ .

(٢٤) هو الصاحب زين الدين محمد المعروف بالحافظي من قرية عقربا إحدى قرى دمشق . وفي سفره عدة سفرات للمناصر لدى المغول ، كما يرد معنا ، وكان يرى بعدم مقاومة المغول ، الذين استتبوا ولاية حلب إليه فيما بعد . وبعد انتصار المماليك على المغول في عين جالوت ، هرب مع من هرب من ولاية حلب .

(٢٥) أورد رشيد الدين ، جامع التواريخ ، جـ٢ ، ص ٧١٨ نصه في هذا الشأن كما يلي : « سلطان حلب وزير خويش صاحب زين الدين حافظي را با تحف وهداياى شاهوار به بندكي حضرت قاآن فرستاده بود واو درآن دركه معرفتي وشهرتي حاصل كرده وبرليغ وبايزه درباره او نافذ كشته » . لمعلومات إضافية عن الرسل وما يتعلق بالهدايا التي تقدم للخان المغولي ، وطقوس تقديمها ، انظر :

John Carpini, The Mongol History, pp: 54–66; Bendict Brother, The Narrative, Ed. by: C. Dawson, «The Mongol Mission», pp: 79–80.

وقد كان هذان الرحالتان ممن ذهب إلى « قراقروم » ، وقابلا خانات المغول ، وظلا بين ظهرانيهم فترة من الزمن ، وعرفا كل شيء عن المغول . لمعلومات عن هذين الرحالتين ، انظر : كتابنا « أوضاع الدول الإسلامية في المشرق الإسلامي » ١٤٠١هـ ص.ص ٣٧ - ٣٨ . انظر كذلك الحاشية رقم ٣٦ من هذا البحث .

(٢٦) الخباصة هي الحرام ، أو المنطقة الوسطى من قامة الرجل . انظر المكين جرجس (ابن العميد) أخبار الأيوبيين ، ص ١٦٣ . وقد كان شمس الدين هذا هو المشرف والمدبر لمملكة وشؤون الناصر يوسف ، حيث أشار وحرض سيده بأن يغزو مصر ، ويستعيدها تحت حكم الأسرة الأيوبية ، بعد أن قتل المماليك توران شاه بن الملك الصالح أيوب ، واستولوا على حكمها . وقد قتل في تلك المعركة مع من قتل . انظر الحاشية رقم ١٧ من هذا البحث وكذلك الحاشية رقم ٣٦ .

(٢٧) لمعلومات عن « اغول - غاييش » وفترة وصايتها ، انظر : الجويني ، جهانكشاى ، جـ١/ص ٢١٧ وبعدها ؛ رشيد الدين ، جامع التواريخ ، جـ١/ص ٥٨٠ كذلك انظر :

«Rubruck, Friar William, The Journey of William of Rubrauck to The Eastern Part of the World», Ed. by: W.W. Rockhill, London, 1900, «The Mongol Mission», by: C.Dawson, pp: 203.

(٢٨) ابن العميد ، أخبار الأيوبيين ، ص ١٦٣ . كان بايجونويان قد خلف تشرماغون نويان كنائب وحاكم عسكرى للمغول على الأراضى الواقعة إلى الجنوب الغربى من امبراطوريتهم ، وذلك فى عام ٦٤٠هـ/١٢٤٢م ، واخضع آسيا الصغرى بعد معركة كوزلجه داغ سنة ٦٤١هـ/١٢٤٣م أيام سلطان السلاجقة غياثيات الدين كيخسرو الثانى (٦٣٤ - ٦٤٣هـ / ١٢٣٦ - ١٢٤٥م) ، وذلك خلال فترة وصاية « تراكينا خاتون » زوجة الامبراطور المتوفى « اكتاى » . انظر التفاصيل فى ابن بى بى ، الأمير ناصر الدين حسين بن محمد ، مختصر سلجوق نامه ابن بى بى ، « أخبار سلاجقة روم » ، طهران ، ١٣٥٠ ، ١٣٥٠هـ . ش ، ص.ص ٢٤٣ - ٢٥٠ ؛ ابن العبرى ، تاريخ مختصر الدول ، ص ٢٥٢ ؛ كتابا سقوط الدولة العباسية ، ص.ص ٣٦٠ - ٣٦٦ . راجع أيضاً :

Friar William Rubruck, The Journey, p:17; Grigor of Akanc. History of the nation of the Archers (The Mongol) Ed. and trans., by: R. Black, and R.M. Frye, Harvard University Press, 1954, p:41.

(٢٩) أرسل « هولاكو » مجموعة من الرسائل إلى الحكام المسلمين ، فى هذا الشأن ، فى كل من إيران وآسيا الصغرى ، وإلى الخليفة العباسى ، وبدر الدين لؤلؤ ، على اعتبار أنهم خاضعون تحت الظلة المغولية ، فواجب التبعية المغولية تحتم عليهم الاستجابة لدعوتهم إذا دعاهم ، ليسهموا بشكل أو بآخر فى حملات المغول العسكرية ، وضد أى كان ، حتى وإن كان ضد الأخوان والوطن والدين ،

حسب منطق المغول والتبعية والولاء لهم . راجع في هذا الخصوص كتابنا سقوط الدولة العباسية ، ومصادر مادته ، في ص ٢٦٠ حيث ناقشنا ذلك بنوع من التفصيل .

(٣٠) ابن العميد ، أخبار الأيوبيين ، ص ١٦٣ .

(٣١) نفس المصدر السابق ، ص ١٦٨ .

(٣٢) ذكر ابن العميد ، أخبار الأيوبيين ، ص.ص ١٦٨ - ١٦٩ ، بأن وفادة الناصر ضمت معها أيضاً أناساً مثل « الأمير سيف الدين الجاكي ، وعلم الدين قيصر الظاهري الحاجب وجماعة من الجند » .

(٣٣) ابن العبري ، تاريخ مختصر الدول ، ص.ص ٢٨٧ ٢٨٨ . قارن هذه الرسالة بتلك التي جاء بها رشيد الدين ، جامع التواريخ ، جـ٢/ص ٧١٥ ، فهي أقصر من هذه بكثير . وقد نقلناها لكونها أقرب إلى الصحة ، لأن المؤلف كان ممن خدم المغول أيام « هولاكو » وابنه « آباقا » ، فكان معاصراً . كما كان مصاحباً لنصير الدين الطوسي الذي كتب الرسالة .

أما ما يتعلق بجملة وردت في الرسالة « وثبت عندنا أنكم فجرة » فقد جاءت مع غيرها من الجمل في الرسالة ، من شخص عدو لا يمكن للمؤرخ ، الذي يتحرى الصدق ويبحث عن الحقيقة ، أن يقبلها على علاتها . ولكن ورد في مصادر موالية ، وذات صلة ، لبني أيوب تذكر شيئاً ربما يتخذه البعض كمؤشرات لما ذهب إليه صاحب الرسالة . فقد ورد في مصنف أبي شامة عن سبط الجوزي ، أثناء كلامه عن وفاة السبط ، قوله : « وكان منكراً على أرباب الدولة ما هم عليه من المنكرات » تراجم ، ص ١٦٥ . ويقول الذهبي ، في العبر ، جـ٥/ص ٢٥٧ ، عن الناصر يوسف « وكان الناس معه في بلهنية من العيش ولكن مع إدارة الخمر والفواحش » ، انظر أيضاً ابن العماد ، شذرات جـ٥/ص ٣٠٠ . وقد أورد صاحب النجوم الزاهرة ، جـ٧/ص.ص ٢٠٤ - ٢٠٥ ، نقلاً عن ابن العديم ، وهو أكبر الأمراء أيام الناصر يوسف ومن خاصيته ، من أن هذا الأمير الأيوبي شارب للخمور ومجاهر بها .

(٣٤) ابن العميد ، أخبار الأيوبيين ، ص ١٦٨ . فيما يتعلق بالوفود إلى الأمير المغولي راجع ما قلناه في هذا الصدد في كتابنا سقوط الدولة العباسية ، ص.ص ٣٥٢ - ٣٦٩ .

(٣٥) ابن العبري ، تاريخ مختصر الدول ص ٢٧٨ .

(٣٦) الحلبي ، شفاء القلوب ، ص ٤١٦ . انظر كذلك ابن الفوطي ، المنسوب إليه « الحوادث الجامعة » ص ٣٣٩ . ويبدو لنا أن العام الذي أورده صاحب الحوادث (٦٥٧هـ) كان يقصد به العام السابق ، أي عام ٦٥٦هـ أو أن هذه الرسل كانت غير تلك التي في عام ٦٥٦هـ ، والتي لم يشر إليها هذا المؤرخ . لأن المصادر التي بين أيدينا تكاد تتفق على أن رسالة « هولاكو » للناصر كانت في عام ٦٥٦هـ/١٢٥٨م ، وأن الرسل رجعوا في العام التالي . حول مراسلة الناصر و « هولاكو » يذكر الذهبي ، العبر ، جـ٥/ص ٢٢١ من أن الناصر بعث بولده مع الحافظي في رمضان في سنة ٦٥٥هـ/١٢٥٧م أي قبل غزو بغداد ، ومعهما هدايا . ويذكر المقريزي ، السلوك ١ ، ٢/ص ٣٧٩ أن الناصر تسلم في عام ٦٤٨هـ طمغا من القاآن وصار يحملها في حياصته ، وأنه أرسل إلى القاآن هدايا كثيرة . وأن « هولاكو » كان ينكر على الناصر عدم إرساله أي شيء . ثم يردف في ص ٤١١ أن الناصر أرسل ابنه إلى « هولاكو » ، ومعه هدايا وأنه سأله على لسان أبيه النجدة ضد المماليك لأخذ مصر ، لهذا السبب فارقته المماليك وذهبوا إلى المغيث ، وأن ابنه عاد إلى أبيه سنة ٦٥٧هـ ، ومعه رسالة ورد معناها عند المقريزي (ص ٤١٥ ـ ٤١٦) كغيره ، وفيها التهديد والوعيد ، وأن الناصر هرب لما سمع بقدوم « هولاكو » باتجاه الشام . وهذا تناقض رهيب ، ولا يمكن قبوله من المقريزي ، الذي جاء بالكثير من التعارضات والمتناقضات . فالمماليك ، لم يذهبوا إلى المغيث لهذا السبب . وسنتكلم عن ذلك بعد قليل . كما أن الناصر لم يطلب نجدة من « هولاكو » ، وإلا لما هرب من وجهه عندما عبر الأول نهر الفرات . وقد ناقض نفسه المقريزي في ص.ص ٣٩١ - ٤٠٦ . أما ابن العماد ، شذرات ، جـ٥/ص.ص ٢٧٢ - ٢٧٣ ، فيذكر أن « هولاكو » أرسل ، مباشرة بعد سقوط بغداد ، خطاب إلى الناصر ، ثم ثان ، وثالث ، ومضمونها جميعاً كذلك الذي أوردته بقية المصادر . أما ابن كثير ، البداية والنهاية ، جـ١٣/ص ٢١٥ فقد ذكر بأن « هولاكو » أرسل إلى الناصر يستدعيه فأرسل الأخير ولده ومعه هدايا ، إلا أن « هولاكو » غضب ولم يقبل منه ، وقال « أنا أسير إلى بلاده بنفسي » . ومن المعروف أن هؤلاء المؤرخين (المقريزي ، ابن العماد ، ابن كثير ، والذهبي وغيرهم) قد جايلوا بعد هذه الأحداث بما لا يقل عن مائة سنة . فكانوا ينقلون ، ويضيفون عما يقلون ، من غيرهم .

(٣٧) وقد ورد النص الفارسي « ... ، وچون هولاكو بايران زمين رسيد ، أحياناً در خفية اظهار مطاوعت وهوا دراى كرد (يعني الناصر) وپيش سلاطين شام بآن

سبب متهم شدوقصد اوكروند ، بكريخت وباه بندكى هولاكو خان آورد وداعيه بادشاه بعزم حلب زيادة كشت .. » . جامع التواريخ ، جـ٢/ص ٧١٨ ، انظر الترجمة العربية من الطبعة الفرنسية ، للاستاذ نشأت وآخرين ، بيروت ، ١٩٦١م ، جـ٢/ص ٣٠٥ .

(٣٨) رشيد الدين ، جامع التواريخ ، جـ٢/ص ٧٢٠ العربية ، جـ٢/ص.ص ٣٠٨ - ٣٠٩ .

(٣٩) ابن العميد ، أخبار ، ص.ص ١٦٤ - ١٦٨ .

(٤٠) نفس المصدر السابق ص ١٦٤ . وقد سعى فى الصلح بينهما رسول الخليفة ، وأعطى الناصرُ إلى المعز القدس الشريف وبلاده ، وغزة وبلادها وجميع البلاد الساحلية إلى حدود نابلس . وقد أعيدت إلى الناصر بعد ذلك ، عندما ذهب المماليك الهاربون من المعز إليه . كان العلامة نجم الدين أبو محمد عبد الله بن الوفاء محمد بن الحسن الشافعى الفرضى (٥٩٤ - ٦٥٥هـ) المنسوب إلى نادرايا ، قرية من أعمال واسط فى العراق ، من أبرز علماء عصره . وقد سعى فى الصلح ، كرسول من خليفة بغداد (المستعصم ، والمستنصر قبله) فى الخلافات التى كانت لا تفتر بين الأمراء الأيوبيين أنفسهم ، ثم بعد ذلك بينهم وبين المماليك . لمعلومات أوفى عنه انظر : أبو شامة ، تراجم ، ص ١٩٨ ؛ العبر للذهبى ، جـ٥/ص ٢٢٣ ؛ الشذرات لابن العماد ، جـ٥/ص ٢٦٩ . وغيرها من الكتب ذات العلاقة .

(٤١) لقد تطرقنا إلى هذه المسألة بالتفصيل فى مقال لنا سيصدر قريباً فى مجلة الإدارة ؛ أنظر الحاشية ١٢ فى هذا البحث .

(٤٢) ربما يعنى رشيد الدين ، جامع التواريخ جـ٢/ص ٧١٥ ، الترجمة العربية ، جـ٢/ص ٢٩٦ ، عام ٦٥٧هـ/١٢٥٩م ، وهذا ما يظهر من أسلوب رسالته إلى الناصر حيث يقول : « .. وما بعد فقد نزلنا بغداد سنة ست وخمسين وستمائة ... » وربما كان فى العام القادم من هذا ، أى عام ٦٥٧هـ .

(٤٣) ابن العميد ، أخبار ، ص ١٦٩ .

(٤٤) ابن العبرى ، تاريخ مختصر الدول ص ٢٧٨ . انظر كذلك « الحوادث الجامعة » المنسوب إلى ابن الفوطى ص ٣٣٩ .

(٤٥) « الحوادث » المنسوب لابن الفوطى ص ٣٣٩ .

(٤٦) فيما يتعلق بوفود الحكام المسلمين التى وفدت على « هولاكو » ، وما بذلوه من التذلل والخنوع لهذا القائد المغولى ، حتى أن بعضهم رسم صورته على حذاء وقدمها هدية « لهولاكو » ليشرفه بالوطء بقدميه عليها ، انظر المصادر فى هذا

الشأن الواردة في حواشي الصفحات ٣٥٥ ، ٣٥٧ ، ٣٥٩ ، ٣٦٨ من كتابنا سقوط الدولة العباسية .

(٤٧) هو الأمير « الملك السعيد حسن بن العزيز عثمان بن العادل بن أيوب » ، وكان صاحب بانياس وقلعتها المعروفة بـ الصبيبة ، فهاجمه الناصر يوسف ، وأخذها منه ، واعتقله وأرسل به إلى البيره فسجن بها تسع سنين . فأخرجه المغول من سجنه ، عندما جاءوا إلى المنطقة ، وأحسن إليه « هولاكو » ، وكتب له مرسوماً ببلاده السابقة ، وأخذه معه للاستدلال به ، والاستعانة به ، كأحد الأمراء الأيوبيين . وقد حضر مع « كتبوقا » أخذ قلعة دمشق ، وسلمت إليه مملكته السابقة ، ليحكمها نيابة عن المغول . وقد ظل كذلك حتى جاء الملك المظفر قطز ، فقاتل السعيد مع المغول ، وقتله قطز فيما بعد . لمعلومات في هذا الشأن ، راجع : ابن العميد ، أخبار ..، ص ١٧١ ؛ أبو الفداء ، المختصر ، جـ٧/ص ٣٠٧ ؛ الحنبلي ، شفاء القلوب ص ٢٩٢ ؛ المقريزي ، السلوك ، ١ ، ٢/ ص.ص ٤١١ ، ٤٢٠ ، ٤٣١ ؛ الذهبي ، العبر ، جـ٥/ص.ص ٢٤٥ - ٢٤٦ ؛ ابن كثير ، البداية والنهاية جـ١٣/٢٢٥ ؛ النجوم الزاهرة لابن تغرى بردى ، جـ٧/ص ٨٠ .

(٤٨) انظر ابن العميد ، أخبار الأيوبيين ، ص.ص ١٧٠ - ١٧١ ، راجع حاشية ٥٣ من هذا البحث ، حول علاقة الناصر ، بالمماليك ، فقد كانت علاقة عدائية من أصلها . وهذا ما يناقض رواية المقريزي السابق ذكرها في حاشية رقم ٣٦ .

(٤٩) كان الغوري من بني أيوب يتعدى على الضعيف ، بل ويقتله ، فقد قتل الملك الصالح نجم الدين أيوب أخاه العادل ، بعد أن استولى على ممتلكاته . وهذا الناصر ، يستحوذ على ممتلكات السعيد ، كما ذكرنا في حاشية رقم ٤٧ . وبعد ذلك يزج بالناصر داود في السجن ، وقد ذهب يستجيره من الملك المعظم ، صاحب الكرك والشوبك ، وهي في الأصل ممتلكات الناصر داود ، وظل في سجنه بقلعة حمص ثلاث سنوات . حول هذه المواضيع ، انظر ، سبط ابن الجوزي ، مرآة الزمان ، ص ٧٩٣ ؛ أبو الفداء ، المختصر ، جـ٣/ص.ص ١٧٩ وبعدها حسب حوادث السنين ؛ ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، جـ٦/ص.ص ٣١٩ ، ٣٣٢ ، ٣٦٢ ، جـ٧/ص ٣٤ ؛ ابن كثير ، ما يتعلق بالعلاقة بين المغول وحسام الدين بن عكا ، والأكراد والتركمان ، راجع تفاصيل ذلك في كتابنا « سقوط الدولة العباسية » ص.ص ٢٩٠ - ٢٩٤ .

(٥٠) ما يتعلق بعلاقة حسام الدين مع المغول ، راجع تفاصيل ذلك في كتابنا سقوط الدولة العباسية ، ص.ص : ٢٩٠ - ٢٩٤ .

(٥١) لقد كانت مسألة تدمير الثور والأكراد شيئا مفروغاً منه ، حسب وصايا الامبراطور المغولي لأخيه . راجع ذلك في : رشيد الدين ، جامع التواريخ ، حـ٢/ص.ص ٦٨٧ - ٦٨٨ ، الترجمة العربية ، جـ٢/ص.ص ٢٣٦ - ٢٣٧ . انظر أيضاً الجوزجاني ، منهاج الدين سراج ، طبقات ناصر ، ترجمة وتحقيق رافرتي ، لندن ، ١٩٧٠م ، حـ٢/ص. ١١٩٣ . انظر كذلك المرجع السابق ذكره في حاشية ٥٠ نفس الصفحات .

(٥٢) ابن العميد ، أخبار ... ، ص.ص ١٧٠ - ١٧١ .

(٥٣) نفس المصدر السابق ، ص.ص ١٦٨ - ١٦٩ ، اليونيني ، قطب الدين ، ذيل مرآة الزمان ، تحقيق دائرة المعارف العثمانية ، حيدر آباد ، ١٣٧٤هـ/١٩٥٤م ، ص ٣٤٢ . ولقد قام أولئك المماليك بأعمال عدوانية ضد الأهالي ، وأخذوا يغيرون على كل ما يقع تحت أيديهم ، فأخافوا السبل ، أثناء تجوالهم بين مصر والشام . وقد عرضوا خدماتهم حتى على الصليبيين ، كما وعدوهم بتسليمهم بيت المقدس (انظر في هذا الشأن ابن كثير ، البداية والنهاية ، جـ١٣/ص.ص ١٨١ ، ١٨٤) . وقد كانوا أعداءً للناصر نفسه ، فقد حاربوه مع المغيث عمر ، وكان يبرس ، وهو كبيرهم ، قد خف وهاجم الناصر ، في حركة من حركاته وقومه المماليك ، وقطع أطناب خيمته . راجع ما قاله في هذا الخصوص ابن تغرى بردى ، في النجوم الزاهرة ، جـ٧/ص.ص ٤٧ ، ٥٣ - ٥٤ ، ٩٧ - ١٠١ ، كذلك راجع : أبو الفداء ، المختصر ، جـ٣/ص.ص ١٩٠ - ١٩٨ ؛ المقريزي ، السلوك ، ١/٢ ص.ص ٤١٤ - ٤١٥ ، ٤٩١ وبعدها ثم ص ٤٠٦ .

(٥٤) ابن العميد ، أخبار ... ، ص.ص ١٦٨ - ١٦٩ .

(٥٥) نفس المصدر السابق ، ص ١٧١ .

(٥٦) نفس المصدر السابق ، ص ١٧١ .

(٥٧) بوابات حلب الأربع هي : باب دمشق ، باب انطاكية ، باب اليهود ، باب الروم . عن هذه البوابات انظر الغزي ، كامل بن حسين بن محمد الحلبي ، « نهر الذهب في تاريخ مدينة حلب » المطبعة الماروتية ، حلب سنة ؟ ، جـ٢/ص.ص ٧ - ٩ . وعن أخذ المغول هذه المدينة ، جـ١/ص.ص ١٩٥ - ١٩٧ .

(٥٨) حول أخذ المغول لحلب ودمشق ، راجع : أبو شامة ، تراجم ، ص ٢٠٣ ؛ ابن العميد ، أخبار ، ص.ص ١٧١ - ١٧٣ ؛ ابن العبري ، تاريخ ، ص.ص ٢٧٨ - ٢٧٩ ؛ الحوادث الجامعة ، المنسوب لابن الفوطي ، ص.ص ٣٣٩ - ٣٤٠ ؛ رشيد الدين ، جامع التواريخ ، جـ٢/٧١٩ ، الترجمة العربية جـ ٢/٣٠٦ - ٣٠٧ ؛

الذهبي ، العبر ، جـ٥/ص ٢٤١ ؛ أبو الفداء ، المختصر ، جـ٣/ ١٩٩ - ٢٠٣ ؛ ابن كثير ، البداية والنهاية ، جـ١٣/ص ٢١٨ ؛ المقريزي ، السلوك ، ١/٢ ، ص ٤٢٢ ؛ ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، جـ٧/ص ٧٥ - ٧٦ ؛ ابن العماد ، شذرات ، جـ٥/ص ٢٩٠ .

(٥٩) لعلها : يخالفونهم ، أى يجادلون ويردون القول معهم ويشتمونهم .

(٦٠) ابن العميد ، أخبار ..، ص ١٧٢ .

(٦١) نفس المصدر السابق ، والصفحة .

(٦٢) هى إبنة السلطان السلجوقى فى بلاد آسيا الصغرى علاء الدين ، وهى إبنة بنت العادل ، أى أن الناصر تزوج بابنة خالة أبيه وذلك سنة ٦٥٢هـ . انظر : سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان ، ص ٧٩١ ؛ ابن العماد ، شذرات جـ٥/ص ٢٩٩ - ٣٠٠ .

(٦٣) كان مع الناصر ولده العزيز محمد ، والصالح إسماعيل صاحب حمص ، والأمير ناصر الدين العزيزى وأخوه شهاب الدين ، وابن عمهما شهاب الدين ابن حسام الدين . انظر ابن العميد ، أخبار ، ص ١٧٤ .

(٦٤) الطبردار ، هو حامل السلاح ، والفأس أمام سيده ، أثناء سيره . وهذا الكردى كان حامل السلاح أمام الناصر لحمايته ! . ابن العميد ، ص.ص ١٧٣ - ١٧٥ ؛ ابن شاكر ، فوات الوفيات جـ٤/ص ٣٦٤ . راجع كذلك كل ما يتعلق بهروب الناصر ونجواله حتى وقع فى مصيدة المغول فى : أبو شامة ، تراجم ، ص.ص ٢٠٥ - ٢٠٦ وغيره من المصادر الشامية ، الوارد ذكرها فى الحواشى السابقة .

(٦٥) بعد أن أخذ المغول مدينة حلب جاءهم أخبار وفاة الامبراطور المغولى ، فرجع « هولاكو » على الفور ومعه قواته جميعاً ، ما عدا كتيبة صغيرة مع قائدها « كدبوقا نويان » فرجع وعبر نهر الفرات إلى الشرق . فذهب إلى مكان له قريب من السواحل الشرقية لبحيرة وآن ، بالقرب من منبع الرافد الشرقى لنهر الفرات . انظر رشيد الدين ، جامع التواريخ . ج٣، ص ٧٠٥ ط الجمعية العربية ، جـ ٢/ص ٣٠٦ .

(٦٦) انظر ابن العميد ، أخبار ..، ص ١٧٦ ؛ ابن العبرى ، تاريخ مختصر الدول ، ص ٢٨٠ ؛ رشيد الدين ، جامع التواريخ ، جـ٢/ص ٧٢٠ ، حيث يذكر الأخير بأن « هولاكو » قال للناصر « ...، جون مصر بكرم حاكمى شام بتودهم » . كما يذكر المقريزى ، السلوك ١/٢ ، ص ٤٣٤ بأن « هولاكو » قد قلده ملك الشام

ومصر معاً ، وانه سيره إلى الشام ، وفي الطريق جاءته أخبار كسرة المغول في عين جالوت ، فاسترده وقتله ، ومن معه .

(٦٧) راجع ما سبق وقلناه في هذا الموضوع في كتابنا السابق ذكره ، سقوط الدولة العباسية ، ص.ص ٢٣٩ - ٢٤٠ ، ٢٦٨ ... .

(٦٨) راجع الحاشية رقم ٤١ من هذا البحث . ولقد كان لوجود الناصر أسيراً لدى المغول السبب الأول والأخير في مسألة استسلام بعض قلاع الشام . وقد استعصت على المغول ، فلما جيء بالناصر أمرهم بتسليمها فسلمت نزولاً عند رغبته ، وأمره . انظر : أبو الفداء ، المختصر .، جـ٣/ص ٢٠٤ .

(٦٩) فيما يتعلق بهزيمة المغول على أيدي المماليك ، في عين جالوت يوم الجمعة ٢٥ أو ٢٧ من رمضان ٦٥٨هـ/ ١١ أو ١٣ أيلول ، سبتمبر ١٢٦٠م راجع : أبو شامة ، تراجم .، ص ٢٠٧ - ٢٠٨ ، وغيره من مصادر هذا البحث ، حسب حوادث السنين ، في كل من أبي الفداء ، جـ٣/٢٠٥ - ٢٠٧ ؛ ابن كثير البداية والنهاية جـ١٣/ ٢٢٠ - ٢٢١ وغيرها .

(٧٠) عن مقتل توران شاه والصالح إسماعيل على أيدي المماليك انظر سبط الجوزي ، مرآة الزمان ، ص.ص ٧٨١ - ٧٨٣ ؛ أبو شامة ، تراجم .، ص ١٨٥ ؛ الذهبي ، العبر جـ٥/١٩٩ - ٢٠٠ ؛ أبو الفداء ، المختصر .، جـ٣/١٨١ - ١٨٢ ؛ ابن كثير ، البداية والنهاية ، جـ١٣/ص.ص ١٧٧ وبعدها ؛ وفي ص : ١٨٠ ؛ المقريزي ، السلوك ، ١ ، ٢ ص.ص ٣٥١ وبعدها ، وص ٣٧٨ - ٣٧٩ ؛ ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ، جـ٦/ص ٣٧٠ - ٣٧٢ .

(٧١) ابن العميد ، أخبار الأيوبيين ص ١٧١ .

(٧٢) أورده رشيد الدين ، جامع التواريخ ، جـ٢/ص ٧٢٤ باسم مجد الدين مغولي ، ويبدو لي أن ما أورده ابن العماد وغيره من أن « هولاكو » هو الذي قتل الناصر شخصياً غير دقيق .

(٧٣) يظهر أن المؤرخ قد اشتبه عليه الأمر ، فلم يكن للناصر يوسف ، على ما يبدو لي ، معه من أولاده سوى محمد هذا . انظر الحنبلي ، أحمد بن إبراهيم ، شفاء القلوب في مناقب بني أيوب ، تحقيق ناظم رشيد ، العراق ، ١٩٧٨ ، ص ٤٤٧ .

(٧٤) ابن العبري ، مختصر تاريخ الدول ، ص.ص ٢٨٠ - ٢٨١ . كان مقتل الناصر يوسف في أواخر شهر شوال عام ٦٥٨هـ/نوفمبر (تشرين الثاني) ١٢٦٠م .

بسم الله الرحمن الرحيم

الإمام الزيدى عبد الله بن حمزة
وكتابه زبد الأدلة

دراسة وتحقيق
دكتور عبد الفتاح أحمد فؤاد
أستاذ الفلسفة المساعد
كلية التربية - جامعة الاسكندرية

الإمام المنصور بالله عبد الله بن حمزة

(٥٦١ ٦١٤هـ)

حياته وعصره :

أقدم للباحثين فى مجالات الفكر الفلسفى الإسلامى علماً من أعلام المذهب الزيدى ، ومفكراً جمع بين العلم والأدب ، وفارساً برز فى ميدان السياسة والحروب ، كان حاكم اليمن وحكيمها فى القرن السادس الهجرى ، توفى قيادة بلاده عقائدياً وسياسياً ، ولقب برب السيف والقلم ، لأنه قاد الجيوش فى معارك عديدة ، وخلف تراثاً ضخماً ، لا يزال الكثير منه محفوظاً فى مخطوطات تنتظر منذ قرون عديدة من يزيح عنها التراب المتراكم ، ويخرجها إلى النور ، ويبذل الجهد فى تحقيقها ونشرها وتقديمها لجمهور المثقفين .

إنه أمير المؤمنين ، المجدد لأحكام الدين للمائة السادسة بالبلاد اليمنية الإمام المنصور بالله عبد الله بن حمزة بن سليمان بن حمزة بن على بن حمزة . يشير المؤرخ زباره فى كتابه « أئمة اليمن » إلى عدة مصادر لترجمة الإمام عبد الله بن حمزة ، فيذكر أن له سيرة خاصة جمعها الشيخ على بن نشوان بن سعيد الحميرى فى القرن السادس ، تقع فى أجزاء كثيرة ، ثم اختصرها الشيخ أبو فراس دغثم الصنعانى فى ستة أجزاء ، وعرفت بسيرته الصغرى ، ونقل منها صاحب الحدائق الوردية وآخرون .

كان فارسنا اليمانى طويل القامة ، حديد البصر ، كث اللحية ، غلب الشيب على عارضيه خاصة . وكان نادرة عصره فى الذكاء والحفظ والبراعة والبلاغة والشجاعة ، عرف بالزهد والتقوى .

ولد بجبل عيشان من ظاهر بلاد همدان ، فى ربيع الثانى سنة ٥٦١ ، وأخذ عن أبيه حمزة بن سليمان ، والشيخ المحقق الحسن بن محمد الرصاص وغيرهما ، درس صحيح البخارى وسائر أمهات كتب الحديث وكتب التفسير وغيرها من كتب العلوم الإسلامية . بعد أن ختم القرآن فى صغره ، بدأ بحفظ علوم الأدب فبرز فيه تبريز البلغاء ، حتى قيل إنه أشعر الطالبين باليمن . كان حفظه

لأشعار العرب وأيامها وأنسابها وقبائلها وبيوتها ، وما كان من أخبارها فى الجاهلية ، وحروبها وسلمها ، ومن هلك من العرب قتلاً ، ومن أسلم منهم طوعاً ، ومن أسلم منهم كرهاً ...

تسلم الإمامة فى اليمن بتكليف من أهل عصره . فقد كان اليمن قبل توليه بغير أمام للزيدية ما يقرب من ربع قرن ، فمنذ وفاة الإمام أحمد بن سليمان سنة ٥٦٦ لم يقم فى اليمن إمام ، فلما كانت سنة ٥٨٣ قام عبد الله بن حمزة بدعوته الأولى فى بلاد الجوف ، ثم انتقل إلى بلاد صعده واستقبله الأميران يحيى وأحمد إبنى يحيى بن أحمد من نسل الإمام الهادى مع جماعة من قبيلة خولان بن قضاعة وغيرها ، وبايعوه ، ثم دخلوا به مدينة صعدة ، وجاءته رسائل من أهل حصن ميتك يطلبونه لتخليصهم من نفوذ بنى حاتم ، فوصل فى عام دعوته إلى بلاد كحلان لمساعدة أهلها فى الحرب التى قامت بينهم وبين السلطان على بن حاتم اليامى ، وكثرت معاركه مع سلاطين بنى حاتم .

وكان قد أتى من مصر إلى اليمن سيف الإسلام طغتكين[1]، وقد أحاطت قواته الأيوبية بجموع القبائل الموالية للإمام عبد الله بن حمزة ، وكانت الهزيمة للإمام الزيدى ، فاضطر للسكون حتى وفاة طغتكين سنة ٥٩٣ ، فلما تولى ابنه المعز السلطنة أحدث انقساماً فى صفوف الأيوبيين ، فاستغل عبد الله بن حمزة هذا الانقسام ، وجدد الإمام دعوته مرة ثانية فى ذى القعدة سنة ٥٩٣ وتكتل الزيود وراء أمامهم لكى يتسنى لهم القضاء على الحكم الأيوبى السنى فى اليمن ، واستطاع الإمام المنصور بالله تحقيق كثير من الانتصارات على الأيوبيين تحت قيادة المعز .

(١) طغتكين بن أيوب : أرسله أخوه صلاح الدين الأيوبى إلى اليمن ليتولى أمر الحكم فيها ، ويعمل على استقرار الأوضاع ، ويقضى على الفتن القائمة .
تجهز طغتكين فى ألف فارس وخمسمائة راجل ، وخرج من القاهرة متوجهاً فى طريقه إلى اليمن ، مارّاً بمكة المكرمة التى دخلها محتمراً فى رمضان سنة ٥٧٩ ، ثم وصل إلى زبيد فى ١٣ شوال سنة ٥٧٩ حيث واصل تقدمه فى بلاد اليمن واستطاع توحيدها تحت حكمه ، وأدت حروبه إلى زوال دولة آل الصليحى الإسماعيلية ، وآل حاتم اليامية الهمدانية عن قطر اليمن من سنة ٥٨٦ .
تولى طغتكين بمدينة المنصورة باليمن فى ٢٦ شوال سنة ٥٩٣ ، وخلفه إبنه المعز إسماعيل .
(راجع : د. محمد عبد العال أحمد : الأيوبيون فى اليمن) .

وقد واجه عبد الله بن حمزة معارضة فى صفوف الزيدية ، وزادت هذه المعارضة بقيام يحيى ابن الإمام أحمد بن سليمان الذى خرج على الإمام عبد الله بن حمزة وكتب رسالة إليه ضمنها السب الفظيع له ، ودعاه بمسيلمة الكذاب ، وجهز جيشاً لمحاربته فى بلدة أثافت ، ولكن تمكن الإمام المنصور بالله من الانتصار على يحيى بن أحمد بن سليمان وأسره ثم قتله وقتل كثيراً من أتباعه .

وبدأت حروب عبد الله بن حمزة ، فى سنة ٦٠٣ ، مع جماعة من الزيدية تعرف باسم الزيدية المخترعة أو المطرفية أتباع مطرف بن شهاب ، فتوعدهم الإمام ، وحكم بتفكيرهم ، وجواز سبيهم ، واستباحة أموالهم ، وقال فى ذلك قصيدة جاء فيها :

لست ابن حمزة إن تركت جماعة ... يتجمعون بقاعة منكـــــر
فلأوردن البيض فى أعناقهـــم ... وسنابك الخيل الجياد الضمـــر

وكانت المراكز الرئيسية للمطرفية فى قاع البون من بلاد حاشد وفى بنى مطر من بلاد البستان ، وفى سناع من أعمال صنعاء ، فقاتلهم الإمام المنصور بالله ، وهدم دورهم ومساجدهم فى سناع وغيرها .

وحدث فى سنة ٦١٠ أن خرج على الإمام عبد الله بن حمزة السيد محمد بن منصور بن المفضل من نسل الإمام الهادى ، وانضم إلى المطرفية أهل وقش ، ولقب بالمشرق ، وأنكر على الإمام عبد الله بن حمزة ما وقع منه من تكفيره للمطرفية ، وتابعه أهل بلاد مسور حجة ، وبلاد المغارب من حمير وغيرهم . أما الإمام فإنه جهز لحربه أخاه الأمير يحيى بن حمزة ، وانتهت الحرب لصالح الإمام . وفى سنة ٦١١ أنشأ الفقيه حسن بن محمد المعروف بابن الساخ المطرفى رسالة إلى خليفة بغداد الناصر أحمد بن المستظهر العباسى لإطفاء نار تأججت باليمن أذكى وقودها ابن حمزة ، تمالأ مع بعض أهل اليمن على نصرته ، وسارعوا إلى جمعته وجماعته ، وعقدوا له الألوية والبنود ، وأطاعوا أمره كطاعة الملك المعبود ، وحشدوا له الرعية والجنود ... أما عبد الله بن حمزة

فقد بعث بدوره فى نفس العام ٦١١ إلى خليفة بغداد برسالة تتضمن قصيدة شعرية جاء فيها :

يا أهل بغداد إن الله سائلكم ... عن ملة الدين إذ غيرتموا فيها
أنتم عيون بنى الأيام قاطبة ... فى النائبات ولكن القذى فيها
قد اشتملتم على عمياء مظلمة ... لا يهتدى بنجوم الحق هاديها
إن الخلافة أمرها هائل خطر ... صعب مسالكها صعب مراقيها
لو كان ما أنتمو فيه على سنن ... قام المريض إلى المرضى يداويها

وفى ذى الحجة من عام ٦١٣ خرج الإمام المنصور بالله من حصن ظفار الظاهر يريد حصن كوكبان شبام ، ولما وصل إلى قاع البون من بلاد عمران ابتدأه المرض فسار ، واشتد به المرض فى كوكبان . وهو مع ذلك يظهر التجلد والصبر والنظر فى أمور الناس حتى توفاه الله تعالى بكوكبان فى يوم الخميس الثانى عشر من محرم سنة ٦١٤ ، عن اثنين وخمسون سنة وثمانية أشهر من مولده ، وعن تسع وعشرين سنة من دعوته الأولى .

مصنفاتـه :

يذكر زباره أن مصنفات الإمام المنصور بالله فى فنون العلوم المختلفة تزيد على أربعين مصنفاً ، بينما يورد الباحث اليمنى عبد الله الحبشى قائمة بمؤلفات الإمام تتضمن ٨١ مصنفاً ، بعضها مفقود ، والكثير منها موجود فى مخطوطات فى شتى مكتبات العالم وبخاصة المكتبة الغربية بجامع صنعاء . ويلاحظ أن قائمة الحبشى لا تدل على أن أحداً من مصنفات الإمام العديدة قد طبع . أو أن أحداً من الباحثين قد عنى بتحقيق شىء من تراثه الضخم .

وقد بذل عبد الله الحبشى مجهوداً كبيراً فى إعداد قوائم مصنفات حكام اليمن لا شك أنها تفيد الباحثين فى الفكر الزيدى ، إلا أن هذه القوائم غير كاملة ، مثال ذلك أنه يذكر من مصنفات عبد الله بن حمزة المصنف رقم ٤٥ فى قائمته وهو « شرح الرسالة الناصحة بالأدلة الواضحة » ، ويقول : منه نسخة مخطوطة سنة ١٠٨٥ بمكتبة الجامع الغربية رقم ٧٠ كلام . والواقع أن هذا

الكتاب نسخاً مخطوطة أخرى موجودة بالمكتبة المذكورة تحت رقم ٩٦ ، ٩٧ ، ٩٨ علم الكلام .

وتدل قائمة مؤلفات عبد الله بن حمزة على أنه لم يدع مجالاً من مجالات العلوم الإسلامية فى عصره إلا وكتب فيه : فقد شرع فى كتابة تفسير القرآن ، ولكنه لم يكمله ، وله فى الحديث « حديقة الحكمة النبوية فى شرح الأربعين السيلقية » ، وله فى الفقه مصنفات عديدة مثل : « الدر المنثور لفقه الإمام المنصور » ، وكذلك له أجوبة كثيرة عن مسائل فقهية سئل عنها ، وفى أصول الفقه له « صفوة الاختيارات » ، كما أجاب عن مسائل تتعلق بالصحابة ، وبين آراءه السياسية ، وأفاض فى بيان عقائد الزيدية ، وموقفه من الفرق الأخرى كالمعتزلة والأشاعرة والمطرفية والإمامية والباطنية والحلولية ... وكان عبد الله بن حمزة شاعراً فترك ديواناً جمعه أحد أبنائه ، وهو مقسم إلى ثمانية أبواب ، كما كان فارساً فكتب أرجوزة فى صفات الخيل وألوانها ونعوتها وأصولها ... الخ .

ولعل أضخم مؤلفاته فى بيان المذهب الزيدى وموقفه من عقائد الفرق الأخرى هو كتابه الباهر « الشافى » الذى توجد له عدة نسخ مخطوطة . ويذهب ابن الزحيف صاحب مخطوطة « مآثر الأبرار » إلى أن فقيهاً فى عصر الإمام المنصور بالله بن عبد الله بن حمزة ، من شافعية اليمن قد أنشأ رسالة سماها الخارقة ، قدح فيها على المنصور وسائر الزيدية ، وقال إنه يتولى الأولين من الزيدية دون المتأخرين ، لأنهم خالفوا مذهب أسلافهم فى العقائد وفى أمور الصحابة . فأجاب عليه المنصور بكتاب الشافى وهو أربعة مجلدات[٢]. أما زباره فيقول عن مصنفات عبد الله بن حمزة : أشهرها كتاب الشافى فى أربعة مجلدات ضخمة ، تتضمن الرد على صاحب الرسالة الخارقة وهو الفقيه (عبد الرحيم) بن أبى القبائل (توفى سنة ٦١٦) من بلاد جبلة باليمن[٣].

(٢) ابن الزحيف : مآثر الأبرار ، مخطوطة بالمكتبة الغربية بجامع صنعاء ، ص ٤ ب .
(٣) زباره : أئمة اليمن : ١٠٩/١ .

وقد اطلعت على بعض نسخ مخطوطة من هذا الكتاب الضخم في المكتبة العربية بجامع صنعاء (وخاصة النسخة رقم ٧٧ علم الكلام ، والنسخة رقم ٨١ علم الكلام) . ويذكر الإمام المنصور بالله في مستهل كتابه السبب الذي دعاه إلى كتابته ، فيقول : إن الرسالة الخارقة وصلتنا في شهر شوال سنة ثمان وستمائة ، وابتدأنا نسطر جوابها في شهر ربيع الأول سنة تسع وستمائة ، وسبب تراخي المدة كثرة الاشتغال . ويذهب عبد الله بن حمزة إلى أن مما جاء في هذه الرسالة مدح صاحبها لنفسه ولأهل مقالته ، وأنهم أهل السنة والجماعة ، ومنها ذمه لما ورد من جهتنا من الرسالة المتضمنة للآثار النبوية المأثورة عن جميع البرية ، فذكر ما زعم أنه دليله على جهلنا وقلة معرفتنا[٤]...

ونحاول فيما يلي أن نستخلص من كتاب الشافعي معالم المذهب الزيدي وموقف مؤلفه من أهم الفرق المخالفة :

موقفه من أهل السنة والجماعة :

يبين عبد الله بن حمزة أصل تسمية أهل السنة والجماعة بهذا الاسم ، فيزعم أنهم يتسمون بالسنة لتقدم سلفهم واستمرارهم على سب علي بن أبي طالب عليه السلام ، وتوهم إنه السنة ... ولما اضطر الحسن عليه السلام إلى صلح معاوية وتسليم الأمر له سموا العام عام الجماعة ، وسموا من دخل في ذلك واتفق له الجماعة ، فقالوا إنهم السنة والجماعة ، وأكبر دليل على ما قلنا لذوي العقول السليمة تشدد المتسمين بالسنة والجماعة على محبة معاوية[٥]... وولده (يزيد) وتحاملهم على علي بن أبي طالب عليه السلام بتقديم غيره عليه ، وتصريحهم ببغضه وذريته والطعن عليهم ... وليت شعري أين قرأ عبد الله بن حمزة تصريح أهل السنة والجماعة في كتبهم ببغض علي كرم الله وجهه والطعن عليه أو على ذريته ؟ ولماذا لم يورد في كتابه الضخم نصوصاً من كتب أهل السنة والجماعة تفيد هذا المعنى ؟ أظن أنه حاول ذلك فلم يظفر بمراده فتجنى على القوم ونسب إليهم هذه الفرية الباطلة ، وأثبت مالا دليل على صحته .

(٤) الشافي : ١/٢ ب .

(٥) لا يذكر عبد الله بن حمزة معاوية إلا ويلحق به اللعنة .

ومن شناعات عبد الله بن حمزة أنه يعد أهل السنة والجماعة فرقة « المجبرة المجورة القدرية : مجبرة لقولهم بالجبر ، مجورة لإضافة كل جور إلى الله تعالى ، قدرية لقولهم المعاصي بقضاء الله وقدره »[٦]. ويذهب الإمام الزيدى إلى أن « أول من أحدث القول بالجبر معاوية ... لأنه قال من على المنبر . إنما أنا خازن من خزان الله ، أعطى من أعطى الله ، وأحرم من حرم الله . وقال : ما أظهرنى الله عليكم إلا وهو يريد ذلك ، فأضاف ظلمه وغشمه إلى الله تعالى ، ونسى أن مدة فرعون أطول من مدته ، وسطوته على بنى إسرائيل أعظم من سطوته ، فانقضت أيامه ، وذهب سلطانه » .

إن أهل السنة والجماعة إذن هم الأولى - فى نظر عبد الله بن حمزة - أن يطلق عليهم مصطلح القدرية . « والذى أجمعت عليه القدرية أنه تعالى يخلق أفعال العباد ، وأنه يريد الكفر والقبائح ، وأن جميع ذلك بقضائه وقدره ، وأنه يضل عن الدين من يشاء ، وأنه يلبس على الناس . وبعضهم زعم أن الاستطاعة مع الفعل ، وأنه لا يثيب ولا يعذب على الأعمال ، وعندهم أنه تعالى يمنع من الإيمان ويكرهه ولا يريده ثم يعذب عليه مع قوله تعالى : ﴿ وما منع الناس أن يؤمنوا ﴾[٧]، ويقولون إنه يخلق خلقاً للنار مع قوله تعالى : ﴿ وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون ﴾[٨].

ثم يعرض عبد الله بن حمزة لبعض الفرق التى يعدها من المجبرة ، فيذكر منهم الضرارية أصحاب ضرار بن عمرو ، والجهمية أصحاب جهم بن صفوان ، والنجارية أصحاب حسين النجار ، والكلابية وهم أصحاب عبد الله بن أبى سعيد ، وغيرهم .

ويعرض فى شىء من التفصيل لأقوال الأشعرية أصحاب أبى الحسن الأشعرى ، فلقد « فشا مذهبه بعده » ، ويعد الأشعرية أيضاً من الفرق المجبرة ، وأن أقوالهم متقاربة مع الكلابية ، ويعرض مذهبهم فيخلط الحقائق

(٦) الشافى : ١/٣٨ ب .
(٧) الإسراء : ٩٤ ، الكهف : ٥٥ .
(٨) الذاريات : ٥٦ .

بالأباطيل والافتراءات . يذكر أن الأشعرى بصرى وليس له سلف رجع إليهم ، لا من أهل العدل ، ولا من أهل الجبر ، لأنه درس على أبى على الجبائى شيخ المعتزلة ، وخالفه إلى مقالة المجبرة ، ولم يرجع إلى أحد من شيوخ المجبرة . بل أحيا مذاهب لجهم بن صفوان كانت داثرة ، فحرفها وصحفها ليبقى له أدنى مسكة من الإسلام ... ومما أحدثه أنه تعالى مسموع ، وأنه أسمع نفسه موسى ، وروى عنه أنه تعالى يدرك بجميع الحواس .. وكان يقول : إن علم الله وقدرته وحياته وسمعه وبصره معان قديمة ، وما أطلق أحد قبله القول بأنها قديمة .

وزعم أن الكلام صفة الله تعالى ، (وأنه) شيء واحد ، ليس بذى حروف ولا سور ، وأنه التوراة والإنجيل والفرقان ، وأن هذه الكتب المنزلة ليست بكلامه ، وما يتلى ويكتب ويحفظ مخلوق وليس بكلامه تعالى ، وزعم أن نهيه وأمره شيء واحد ، والأمر بالصلاة هو الأمر بالزكاة ... وأنه تعالى لم يزل يخاطب موسى « يا موسى »[٩]، ويخاطب آدم « أسكن أنت وزوجك الجنة »[١٠].

وزعم أن أهل الجنة يرون الله لا فى جهة ، غير منفرد منهم ، ولا خارج من أجسامهم وذلك يوجب أنه يرونه فى أنفسهم .

وزعم أنه تعالى يرضى الكفر ويحبه ، ولم يوافقه أحد على ذلك ، وزعم أنه لو كلف العاجز لحسن ، ولو كلف جميع الضدين لحسن ، ويحسن تكليف ما لا يطاق ، وأن الاستطاعة مع الفعل ، وأن جميع الأوامر تكليف ما لا يطاق ، وزعم أنه تعالى لو عاقب الأنبياء على ذنوب الفراعنة ، وأثاب الفراعنة على طاعة الأنبياء لحسن منه . وزعم أن الثواب والعقاب ليسا بجزاء على الأعمال ، وزعم أن فعل العبد خلق لله كسب للعبد ... وزعم أنه لا يقبح شيء عقلاً ولا يحسن عقلاً ، ولو حسن الكذب وكل القبائح جاز ، ولو أظهر المعجز على يدى كذاب جاز ، وزعم أنه تعالى يفعل لا لغرض ، وزعم أنه يضل عن

(٩) طه . ١٢ .

(١٠) البقرة : ٣٥ ، الأعراف : ١٩ .

الدين ، وأنه يخلق الكفر في الكافر ، ويمنعه الإيمان ثم يعاقب عليه .

وزعم أن اليد والجنب والوجه صفات (إلهية) ، وأن الاستواء على العرش صفة .

وزعم أنه يجوز أن يؤلم أنبياءه وأصفياءه والمجانين من غير عوض ، وجوز بعثة نبي كان كافراً قبل البعثة ، مرتكباً كل قبيح ، وزعم أن الرسل بعد موتهم لا يكونون أنبياء ، والمؤمنون بعد موتهم لا يكونون مؤمنين (!) وزعم أن النائم والساهي ليسا بمؤمنين ، وزعم أن ليس في جهنم إلا الكافر ، لأن غيرهم يعرفون الله فلا يخلدون في النار ، وغير ذلك من المذاهب التي يطول تقصيها ... »[11].

وأما الحشوية فهؤلاء الذين يسمون أنفسهم بأصحاب الحديث ، وأنهم أهل السنة والجماعة ، فليس لهم مذهب معروف ، إلا أنهم يجمعون على الجبر والتشبيه ، ويدعون أن أكثر السلف منهم ، وهم براء من ذلك ، وينكرون الخوض في الكلام والجدل ، ويعولون على التقليد وظواهر الروايات ، ويقولون إن الله تعالى على العرش ، ويجوزون عليه النزول والصعود ، ويقولون ما بين الدفتين كلامه تعالى وهو قديم ، ويثبتون الأعضاء لله تعالى ، ويروون له يدان كلتاهما يمين . ومن عجائبهم أن واحداً منهم روى أن جهنم لا تمتلىء حتى يضع الجبار فيها قدمه ، ولهم ترهات كثيرة ، ومن رجالهم أحمد بن حنبل الذي ضربه المعتصم بالسياط . ويستطرد الإمام الزيدي في ذكر علماء الحديث وذمهم ، فيشير إلى إمام الأئمة الحافظ ابن خزيمة (٢٢٣ - ٣١١) بقوله : « وقد صنف محمد بن اسحق بن خزيمة كتاباً يسمى كتاب التوحيد[12] ، ذكر فيه عضواً عضواً ، وروى فيه أحاديث وآثاراً ... » ، ويتعجب عبد الله بن حمزة كثيراً على علماء الحديث ، فيزعم أنهم رووا أن الله تعالى خلق ملائكة من زغب ذراعيه ، وأنه اشتكى عينه فعادته الملائكة ، وأنه تعالى يجلس في روضة

(١١) الشافي : ١/٣٩ أ .

(١٢) كتاب التوحيد وإثبات صفات الرب . طبع أكثر من مرة ، مثل طبعة دار الباز بمكة المكرمة بمراجعة محمد خليل الهراس سنة ١٩٧٨

خضراء على كرسي حوله الملائكة ، وأنه يضع رجلاً على رجل[١٣] إلى غير ذلك من الإسرائيليات الشنيعة التي يرجع الفضل إلى علماء الحديث في بذل الجهد من أجل تنقية السنة المطهرة منها .

من هم القدريـــة :

يتبرأ الزيدية والمعتزلة من لقب القدرية الذي يطلقه عليهم أهل السنة ، ومعلوم أن هذا اللقب مذموم لقول الرسول صلى الله عليه وسلم « القدرية مجوس هذه الأمة » . يقول عبد الله بن حمزة في رده على أهل السنة « فإن قالوا أنتم القدرية من الأمة ، فمذهبكم الذي يضاهي مذهب المجوس ، حيث أثبتم صانعين ، كما أنهم أثبتوا فاعلين : أحدهما النور والآخر الظلمة . قلنا : مذهبنا هذا لا يضاهي مذهب المجوس ، فلسنا نثبت على الحد الذي أثبتوه ، لأن القوم جعلوا النور فاعلاً للخير بطبعه على حد لا يمكنه مفارقته ، ولكنا أثبتنا فاعلين يفعلان على طريقة الاختيار ، وإثباتهم فاعلين على وجه الاضطرار ، وهم أيضاً يثبتون الفعل الواحد من فاعلين : أحدهما محدث ، والآخر قديم »[١٤] .

أما أهل السنة والجماعة ، الذين يعدهم عبد الله بن حمزة من المجبرة - وهم براء من ذلك - فإن قولهم بأن أفعال العباد كلها من الله تعالى ، إنما يلزم عنه فيما يذهب - ما يأتي :

أولاً : إن أفعال العباد قد خلقها الله فيهم وأوجدها بلا اختيار لهم في إيجادها ، ولا قدرة لهم على تحصيلها ، وهم بذلك قد صيروا الكتب المنزلة هزوا ، لأن هذه الأفعال متى كانت من الله سبحانه لم يكن للأمر بها ولا النهي عنه معنى ، ولا للوعد والوعيد وجه .

ثانياً : ولا معنى كذلك لإرسال الرسل ، ولا لأمرهم بدعاء الخلق إلى الطاعة ، كما لا يجوز أن يدعوهم إلى الخروج من صورهم وألوانهم ، فإذن كان اعتقادهم لذلك يؤدي إلى أن تكون بعثة الرسل عبثاً .

(١٣) الشامل : ٤٠/١ ب .

(١٤) الشامل : ١٧٤/٢ أ ب .

ثالثاً : إنهم متى قالوا إن هذه الخبائث والمعاصي من خلق الله في العصاة ، كان في ذلك أعظم وجوه الأغراء بها لكل من جالسهم وسمع كلامهم من الجهال التي تتوق أنفسهم إلى هذه المعاصي الشهية ، لأنهم إذا اطلعوا من قولهم على أنهم متى أطاعوا أنفسهم في طلب شهواتهم ونيل لذاتهم ، فذلك شيء ليس منهم ، وإنما هو من الله تعالى ، خلقه وأراده منهم .

رابعاً : إنهم متى قالوا إن هذه الطاعات ليست من فعل العباد ، وإنما هي من الله خلقها فيهم ، وسمع ذلك من جالسهم من العامة ما يعلمه من مشقة الطاعة وأنها كريهة على النفس ، فإنه لا يعزم على تحمل مشقتها ولا يواطن نفسه على الصبر على كلفها ، بل يقول : إذا كانت هذه الأفعال من الله ، فمتى خلقها فيّ وجدت ، شئت أو أبيت ، ومتى لم يخلقها فيّ لم توجد ، فلا معنى لعزمي عليها ، ولا لمجاهدتي نفسي فيها ، وبذلك صارت مجالستهم أضر على الإنسان من تناول السموم المهلكة .

خامساً : إن من جالسهم من العصاة وسمع مقالتهم : إن هذه المعاصي من الله تعالى لا من العصاة ، وقد ثبت ذلك في نفسه ، لم تصح له توبة منها أصلاً ، لأن أحد شرائط التوبة الاعتراف بالذنب ، والاعتراف هو قول القائل : جنيت أو أسأت أو أذنبت فاغفرني واغفر لي . وذلك لا يصح ممن يزعم أن جميع المعاصي من الله تعالى ، فتكون مجالستهم سادة لباب التوبة[15] .

ويخلص الإمام الزيدي من هذا النقد لعقيدة المجبرة ، وما يلزم عنها من آثار سلبية تظهر في سلوك المؤمنين بها ، إلى عقيدة مخالفة فحواها أن الإنسان خالق لأفعاله ، ولا غضاضة في هذا القول ، ففي قوله تعالى : ﴿ **فتبارك الله أحسن الخالقين** ﴾[16] إثبات خالق سواه بخلاف مقالة المجبرة القدرية[17] .

(15) الشافي : ٢/١٧٥ أ .

(16) سورة المؤمنون : ١٤ .

(17) الشافي : ٢/١٨٢ أ .

موقفه من المعتزلة :

يذكر عبد الله بن حمزة أن للمعتزلة تصانيف جمة ، ويقول : « وخلافهم لنا قليل ، إنما يخالفون في الإمامة ، ويقولون بإمامة أبي بكر وعمر وعثمان ، وينكرون أن يكون النص على علي عليه السلام يوجب الإمامة بعد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم »[18].

ولكن ماذا عن علاقة المعتزلة بالمرجئة ؟ يبين الإمام عبد الله بن حمزة أن المرجئة طوائف شتى ، فمنهم جبرية وعدلية ، ومنهم من يقول : مرتكب الكبيرة من أهل الصلاة لا وعيد عليه ، إذ يغفر له لا محالة ، ولا تضره معصيته ، ولا يستحق العقاب بسبب الإسلام ، ومن المرجئة من يجوز كلا الأمرين : الغفران والعقاب وترك القطع ، ولم يرو عن أحد من السلف ترك القطع إلا عن مقاتل بن سليمان ثم اتبعه طائفة من الحشوية . « واختلفت الإمامية فمن قائل بالإرجاء ، ومن قائل بالوعيد وهم الأقل . وفي العدلية من يقول بالإرجاء ... وأما الزيدية فلم يرد عن أحد من أئمتهم القول بالإرجاء »[19]. إن لقب العدلية يطلقه عبد الله بن حمزة في العادة على المعتزلة ، ومن المعلوم أن المعتزلة أنفسهم يحبون أن يطلق عليهم هذا الاسم ، فإذا ثبت هذا كان من الغريب قول عبد الله بن حمزة « وفي العدلية من يقول بالإرجاء » ، ذلك أن قصة نشأة المعتزلة تدل على أن ظهور مذهبهم إنما كان نتيجة رفض المؤسس الأول (واصل بن عطاء أو عمرو بن عبيد) لكل من مذهبي الخوارج والمرجئة ، وما قولهم بالمنزلة بين المنزلتين إلا لمخالفتهم للفرقتين جميعاً ، فكيف يقول أحد من المعتزلة بالإرجاء ؟

مذهبه الزيدي :

الزيدية هي أحد مذاهب الشيعة ، هكذا يعلن عبد الله بن حمزة ، ويشير إلى أن الشيعة فرق كثيرة ، ويذكر أن الشيعة تنقسم إلى ثلاث عشرة فرقة ، ثم

(١٨) الشافي : ١/٤١ أ ـ ب .

(١٩) الشافي ١/٤٠ ب .

يقول « والعمدة فى التشيع مذهب الزيدية » ، إنه العدل والتوحيد ، وهو مذهب أهل البيت عليهم السلام عموماً إلا من خرج من بنى العباس لما ضعفوا وتوددوا إلى العامة[٢٠].

ويخصص الإمام الزيدى فى كتابه الشافى فصلاً « فى أن علياً عليه السلام وصى رسول الله » حاول فيه أن يقدم أدلة على أن علياً أفضل هذه الأمة بعد نبيها صلى الله عليه وسلم[٢١]. وفى إحدى مخطوطات المكتبة الغربية بجامع صنعاء مسائل سئل عنها عبد الله بن حمزة جاء فى بعض إجابته « مذهبنا أن عترة الرسول صلى الله عليه وسلم هم : علي عليه السلام وفاطمة والحسن والحسين وأولادهما فى جميع الأعصار » ، ومن الأدلة التى يوردها فى هذا الصدد قوله تعالى : ﴿ ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا ﴾[٢٢]. ويزعم أن المقصود هنا بأهل البيت علي وفاطمة والحسنين وأولادهما[٢٣]. وينسى الإمام الزيدى أو يتناسى أن الآيات القرآنية الخمس السابقة على الآية الكريمة التى استشهد بها وكذلك الآية التالية لها ، إنما الخطاب فى هذه الآيات جميعاً موجه إلى نساء النبى[٢٤]، ومع ذلك يصر الشيعة على مفهومهم الضيق لأهل البيت ، فيستبعدون من يستبعدون بغير مبرر .

ولكن ما موقف الإمام عبد الله بن حمزة من الصحابة رضوان الله عليهم ؟ لقد أفرد بعده يحيى بن حمزة رسالة خاصة فى الدفاع عن الصحابة وبخاصة الشيخين أبى بكر وعمر ، وهى « الرسالة الوازعة للمعتدين عن سب صحابة سيد المرسلين » ، كما دافع عنهم فى كثير من كتاباته الأخرى على نحو ما بين أستاذنا الدكتور أحمد صبحى[٢٥]. ولكن ماذا عن موقف الإمام نفسه ؟ يقول ابن الزحيف فى مخطوط مآثر الأبرار : « ونقلت من كتاب الرياض المستطابة للفقيه يحيى بن أبى بكر العامرى الحرضى المحدث ما لفظه : ومن كلام المنصور

(٢٠) الشافى : ١/٤٢ ب .

(٢١) الشافى : ١/٢٧ وما بعدها .

(٢٢) الأحزاب : ٣٣ .

(٢٣) مجموعة رسائل مخطوطة بالمكتبة الغربية رقم ٣٩ مجموع ، ص ٢٣٥ وما بعدها .

(٢٤) راجع سورة الأحزاب : ٢٨ - ٣٤ .

(٢٥) راجع كتابه الفيء الزيدية ، ص ٣٨٢ وما بعدها .

بالله فى جواب المسائل التهامية[٢٦]، فإنه رضى الله عنه - يعنى المنصور - أثنى عليهم - يعنى كبار الصحابة - وعدد من آثارهم على غيرهم . قال فيهم : وهم خير الناس على عهد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وبعده ، فرضى الله عنهم وجزاهم عن الإسلام خيراً . ثم قال : فهذا مذهبنا ، لم نكتم سواه تقية ، ومن هم دوننا مكاناً وقدراً يسب ويلعن ، ويذم ويطعن ، ونحن إلى الله سبحانه من فعله براء ، وهذا ما يقضى به علم آبائنا إلى علي عليه السلام ... »[٢٧]. ويقول فى كتابه الشافى : « إنا لا نكره الثناء على أصحاب الرسول صلى الله عليه وآله وسلم »[٢٨].

إلا أنه لا يعدهم فى مكانة علي بن أبى طالب ، فما يقال عن أبى بكر من أنه ثانى اثنين فى الغار ، فهو صحيح بنص العزيز الجبار[٢٩]، ولكن أفضل منه من بات على فراش النبى وفداه بمهجته ، أما القول إن أبا بكر صديقه فهو الصديق الأصغر ، وإن كان أكبر سناً ، وعلي عليه السلام الصديق الأكبر ، وأما ما يقال إنه ضجيعه فى تربته فذلك بعض ما نقم آل الرسول ، لأنه دخل بيت النبى بغير إذنه[٣٠].

ولكنه يغلو فى ذم بعض الصحابة فيقول : « ولسنا نلعن معاوية وعمر إلا لما صح بنقل صحيح عن آبائنا عليهم السلام وأشياعهم رضى الله عنهم أن علياً كان يلعنه وأتباعه كعمرو بن العاص وأبى موسى الأشعرى فكانت لعنة علي من لعنة النبى ، ولعنة النبى من لعنة الله ، ومن يلعن الله فلن تجد له نصيراً »[٣١].

(٢٦) الرسالة الإمامية فى الجواب على المسائل التهامية ، منها نسخة مخطوطة ضمن مجموعة بمكتبة الشعب البريطانى رقم ٣٨٢٨ على ما يذكر الحبشى .

(٢٧) مآثر الأبرار ، ص ٢٥ أ .

(٢٨) الشافى : ٢/١٩٠ أ .

(٢٩) يقصد ما ورد فى سورة التوبة - ٤٠ .

(٣٠) الشافى : ٢/١٨٦ ب - ١٨٧ ب .

(٣١) الشافى : ٢/١٨٨ أ .

إن علياً عليه السلام مولى كل مؤمن ومؤمنة ، فدخل فيهم أبو بكر وعمر وعثمان ، وحصل من ذلك معاداة الله لمعاوية وحزبه[٣٢].

أما العباس – سلام الله عليه – فهو أهل لكل فضيلة ، ومحل لكل رفعة ، وكيف لا يكون وهو عم الرسول صلى الله عليه وسلم ، وقد أسعده الله بالإسلام ، ففضائله لا تنكر ، وشرفه لا يغمر . أما أولاد العباس ، ومنهم الخلفاء العباسيين فهم أعداء لأهل البيت ، يعلم ذلك ضرورة من ظهور دولتهم إلى يومنا هذا . وفقهاء العامة – رحمهم الله تعالى – كأبي حنيفة ومالك والشافعي وابن حنبل ، وفضلاء أتباعهم ، فيعلم من عرف أخبارهم واقتفى آثارهم نبذهم لبني العباس ، وكل ذي دين يعلم أن تولي بني العباس – على ما هم عليه من المعاصي – ضلال في الدين ، وذلك في الإسلام ، فكيف من يجعلهم له أئمة ؟ ولا يعلم أحد يدين بذلك إلاّ الراوندية ومن حذا حذوهم من الحشوية . إن الحشوية يسوون بين بني العباس وبين عدوهم ، لأنهم يقولون إن الإمامة بالقهر والغلبة ، فمن غلب كان إماماً ، ويكفيه الإقرار بالإسلام ، وإن عمل ما عمل ، وهذا انسلاخ من الدين كما ترى .

فإن قيل إن الملك فيهم إلى يومنا هذا فسلم ، وأما إلى يوم الدين فلا يسلم ذلك ، لأن دولة أهل البيت لابد من ظهورها وعمومها ، وقد علمنا ذلك بالإسناد الموثوق به : إن الملك فيهم ، وفينا النبوة . والمراد خلافة النبوة .

ويستطرد عبد الله بن حمزة في هجومه العنيف على الخليفة العباسي في عصره وهو – كما ذكرنا – الناصر أحمد بن المستظهر ، ويبين ما ساد حكمه من ظلم ، ظهر في خراب البلاد ، وهلاك العباد ومصادرات الأغنياء وتعذيبهم بأنواع العذاب ، ومنع الناس في دار هجرته بغداد من إصلاح منازلهم إلا بشيء من المال يسلم إلى الإمام ، ولا يزال سيفه رطباً من دماء المسلمين ، وسيرته إنما هي سيرة الجبارين المتكبرين العتاة المتردين[٣٣]...

(٣٢) الشافي . ٢/١٩٠ ب .

(٣٣) الشافي : ٢/ ١٩٢ أ - ١٩٤ ب .

زبـــد الأدلـــة :

كنا فيما سبق نقلب بعض صفحات موسوعة المنصور الضخمة « الشافى » التى لا تشبه موسوعة ابن سينا « الشفاء » فى الاسم فحسب ، بل التشابه قائم بينهما أيضاً فى الضخامة والتنوع . والآن ننتقل من أكبر مؤلفات الإمام إلى أحد مؤلفاته الصغيرة ، بل لعله أصغر مؤلفاته على الإطلاق ، وهو كتابه « زبد الأدلة » ، وعلى الرغم من صغر هذا الكتاب إلا أنه على جانب كبير من الأهمية ، لأنه محاولة فريدة فى تلخيص المذهب الزيدى كله فى أقل عدد ممكن من الكلمات الموجزة ، الدالة فى نفس الوقت على عقائد كبرى أفاض فى شرحها وتحليلها فى مصنفاته الأخرى الكبيرة ، وفى مقدمتها « الشافى » .

نحن إذن بإزاء رسم تخطيطى لمعالم بيان العقيدة الزيدية ، تظهر فى شفافيته القواعد الأساسية ، وتبدو الدعائم الجوهرية فى صورة نقية ، تختفى فيها ظلال التفاصيل الكثيفة ، ومن ثم فإن قارىء كتاب زبد الأدلة ، يدرك مباشرة أنه يسير فى طريق مستقيم يصل فى أقصر وقت ممكن إلى المبادىء العامة للزيدية ، لا يلوى على شىء من المقارنات بالفرق الأخرى ، ولا ينشغل بدحض الآراء المخالفة ، والتفتيش عما يلزم مذاهب الخصوم من نتائج متناقضة فاضحة ، ولا يشغل نفسه بغير الوقوف على « زبد » المذهب الزيدى .

ويعرض عبد الله بن حمزة المبادىء الأساسية لمذهبه الزيدى فى هذا الكتاب فى صيغة أسئلة وأجوبة ، فيفترض أن سائلاً يطرح على القارىء أسئلة تمس صميم المذهب الزيدى ، ثم يقدم الإجابة الموجزة لكل سؤال ، ويراعى فى ترتيب الأسئلة والأجوبة نفس ترتيب عناصر المذهب ، والكتاب يتكون من ثلاثين سؤالاً وجواباً .

ولم يوضح الإمام المنصور بالله الغرض الذى من أجله كتب هذا الكتاب ، إلا أننا نرجح أن يكون هدفه من تأليفه إما أن يكون بمثابة « مفكرة » للدعاة الزيدية تعينهم على الترويج لمذهبهم ، وإما أن يساعد فى تعليم الأتباع ما لا غنى عنه من مبادىء المذهب .

وتبدو النزعة العقلية واضحة جلية من بداية الكتاب ، وتسرى فيه حتى نهايته ، تلك النزعة التى ضمت تحت جناحها المعتزلة والزيدية ، وألفت بين قلوبهم ، وسلكتهم جميعاً تحت شعار أهل العدل والتوحيد .

ويتكون كتاب زيد الأدلة من بابين : باب فى التوحيد ، وباب فى العدل ، ويستهل المنصور بالله كتابه بإعلان أن أول ما يجب على المرء النظر العقلى المؤدى إلى معرفة الله ، وهذا الاستهلال يذكرنا بمصنفات المعتزلة ، فقد بدأ القاضى عبد الجبار بن أحمد (ت . سنة ٤١٥هـ) كتابه شرح الأصول الخمسة بقوله « إن سأل سائل فقال : ما أول ما أوجب الله عليك ؟ فقل : النظر المؤدى إلى معرفة الله تعالى ، لأنه تعالى لا يعرف ضرورة[٣٤] ، ولا بالمشاهدة[٣٥] ، فيجب أن نعرفه بالتفكر والنظر[٣٦] .

ويتضمن باب التوحيد دليلاً على وجود البارى ، وهو دليل السببية الذى يستند إلى فكرة حدوث العالم ، وبياناً بصفات الله تعالى ، فيثبت المصنف الصفات الثلاث التى يثبتها المعتزلة : القدرة والعلم والحياة ، ثم يضيف إليها صفتى السمع والبصر ، متفقاً فى ذلك مع شيوخ المعتزلة البصريين ، ومخالفاً شيوخ المعتزلة البغداديين ممن ينفون عن الله تعالى أنه سميع بصير ، ويؤولون هاتين الصفتين الخبريتين بأنهما تدلان على أنه تعالى مدرك للمدركات السمعية والبصرية على معنى أنه عالم بها[٣٧] . وينفى الإمام الزيدى مع المعتزلة رؤية المؤمنين لله تعالى يوم القيامة ، ويختتم باب التوحيد بدليل عقلى على وحدانية الله تعالى وقدمه .

أما الباب الثانى فيخصصه للقول فى العدل ، ويتفق مع المعتزلة أيضاً فى إثبات أنه تعالى عدل حكيم ، ويلزم عن ذلك نفى خلق الله لأفعال العباد ،

(٣٤) العلم الضرورى هو العلم الذى لا يمكن نفيه عن النفس بوجه من الوجوه ، وقد حد القاضى عبد الجبار العلم الضرورى بأنه العلم الذى لا يمكن للعالم نفيه عن نفسه بشك ولا شبهة . (شرح الأصول الخمسة ، ص ٤٨) .

(٣٥) المشاهدة هى الإدراك بالحواس الخمس ، وتستعمل فى الأغلب للدلالة على الإدراك بحاسة البصر . (شرح الأصول الخمسة ، ص ٥١) .

(٣٦) شرح الأصول الخمسة ، ص ٣٩ .

(٣٧) راجع شرح الأصول الخمسة ، ص ١٦٨ .

وردها إليهم وحدهم ، وأنه سبحانه لا يكلف أحداً من عباده مالا يطيق ، وأن الآخرة استحقاق وأعواض ، ويثبت أن القرآن كلام الله محدث .. وهذا الأصل الثانى : العدل لدى عبد الله بن حمزة – كما هو الشأن لدى المعتزلة – يتضمن الأصول الثلاثة الباقية من أصولهم الخمسة :

يتضمن القول بالوعد والوعيد ، وأن شفاعة النبى صلى الله عليه وسلم لا تشمل أهل الكبائر .

ويتضمن القول بالمنزلة بين المنزلتين ، فأهل الكبائر يسميهم فساقاً ، وهم لا يندرجون تحت طائفة المؤمنين ، ولا تحت طائفة الكفار .

ويتضمن أيضاً القول بوجوب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر .

ثم يتجاوز أخيراً هذه الأصول الخمسة التى قالت بها المعتزلة ، فيضيف إليها إثبات الإمامة لعلى بن أبى طالب ثم من بعده للحسنين وأولادهما من بعدهما .

تحقيق الكتاب :

أورد عبد الله الحبشى[٣٨] فى قائمة مؤلفات عبد الله بن حمزة المصنف رقم ٤٢ « زبدة الأدلة فى معرفة الله سبحانه وتعالى » ، هكذا « زبدة » ، وذكر أن منه نسخة مخطوطة سنة ١٣٠١ بمكتبة جامعة الرياض (جامعة الملك سعود حالياً) برقم ٢/٢٦١٣ ، ومنه نسخة أخرى ضمن مجموعة برقم ١٠٢ بمكتبة جامع صنعاء « الكتب المصادرة » .

أما النسخة الثانية ، وهى من الكتب المصادرة ، فلم يكن بالطبع فى الإمكان الاطلاع عليها ، بيد أننى فى إحدى زياراتى المتعددة للمكتبة الغربية بجامع صنعاء عثرت على نسخة من الكتاب بعنوان « زبد الأدلة فى معرفة الله سبحانه وتعالى » ضمن مجموعة رسائل فى مخطوط رقم ٣ مجموع ، ويقع الكتاب فى أربع صفحات من صفحة ٨٣ إلى صفحة ٨٦ فى المخطوط المذكور ، إلا أن هذه النسخة للأسف ناقصة من البداية ، وعلى وجه التحديد

(٣٨) حكام اليمن ، ص ٩٢ .

بنقصها الباب الأول كله ، وتبدأ هكذا : « فإن قيل لك : ما الدليل على أنه تعالى عدل حكيم ... » ، وقد نقلت هذه النسخة الناقصة فيما نقلت من مخطوطات جامع صنعاء واحتفظت بها .

وعندما انتقلت من جامعة صنعاء إلى جامعة الملك سعود بالرياض تمكنت من الحصول على ميكروفيلم للنسخة الموجودة بمكتبتها ، وهي نسخة كاملة للكتاب ، بعنوان « كتاب زبد الأدلة للإمام المنصور بالله ... » ، والكتاب ضمن مجموعة رسائل زيدية برقم ٢/٢٦١٣ ، ويقع الكتاب ما بين صفحة ٨٦ وصفحة ٩٠ من المخطوط ، وعدد سطور الصفحة الواحدة ٢١ سطراً ، ومتوسط عدد الكلمات في السطر الواحد ١٤ كلمة ، والمداد المستخدم لونان : الأسود والأحمر .

وقد رمزت لنسخة جامعة الملك سعود بالحرف أ ، ورمزت لنسخة جامع صنعاء بالحرف ب .

كتاب زبد الأدلة[39]

للإمام المنصور بالله عبد الله بن حمزة ، ابن رسول الله ، صلى الله عليه ، وآله وسلم .

بسم الله الرحمن الرحيم

قال مولانا أمير المؤمنين المنصور بالله عبد الله بن حمزة بن سليمان ، عليه السلام :

[باب القول في التوحيد][40]

- إن قيل لك : ما أول ما أوجب الله عليك ؟

قلت : النظر المؤدى إلى معرفة الله ، لأن معرفته واجبة ، ولا تصح إلا بالنظر والاستدلال .

فإن قيل لك : ما الدليل على أن للعالم صانعاً صنعه ، ومدبراً دبره ، حتى توجب معرفته أو لا توجبها ؟

قلت : لأن هذه الأجسام محدثة ، والمحدث[41] لابد له من محدث[42] ، ومحدثها ليس إلا الله سبحانه وتعالى .

- فإن قيل لك : ما الدليل على أنه قادر ؟

قلت : لأن الفعل قد صح منه ، والفعل لا يصح إلا من قادر .

- فإن قيل لك : ما الدليل على أنه عالم ؟

(٣٩) في ب : زبد الأدلة في معرفة الله سبحانه وتعالى .

(٤٠) هذا العنوان إضافة من عندنا ، غير موجود بالمخطوطة أ ، والباب برمته ناقص في المخطوطة ب .

(٤١) والمحدث : بفتح الدال .

(٤٢) محدث : بكسر الدال .

قلت : لأن[43] الفعل المحكم قد صح منه ، والفعل المحكم لا يصح إلا من عالم .

- فإن قيل لك : ما الدليل على أنه حي ؟

قلت : لأنه قادر عالم ، والقادر العالم لا يكون إلا حياً .

- فإن قيل لك : ما الدليل على أنه سميع بصير ؟

قلت : لأنه حي ، لا آفة به ، وكل من كان حياً لا آفة به فهو سميع بصير .

- فإن قيل لك : ما الدليل على أنه قديم ؟

قلت : لأنه لو لم يكن قديماً لكان محدثاً ، ولاحتاج إلى محدث ، والكلام في المحدث كالكلام فيه ، فإن احتاج إلى محدث آخر ، أدى إلى الانقياد إلى ما لا نهاية له ، وذلك محال ، فثبت أنه قديم .

- فإن قيل لك : ما الدليل على أنه يستحق هذه الصفات لذاته ، من دون مؤثر من فاعل أو علة ؟

قلت : لأن الفاعل سواه ، لا يخلو : إما أن يكون قديماً أو محدثاً . ولا يجوز[44] أن يكون محدثاً ، لأن القديم سبحانه وتعالى متقدم عليه ، ومن حق المؤثر أن يسبق ما هو مؤثر فيه ، ولا يجوز أن يستحق هذه الصفات لعلة ، لأن العلة لا تخلو : إما أن تكون موجودة أو معدومة . والموجودة لا تخلو : إما أن تكون محدثة أو قديمة . ولا يجوز أن يستحقها لعلة معدومة ، لأنه معه ومعها على سواء ، فلو أوجبت له ، لأوجبت لها ، ومعلوم خلافه ، ولا يجوز أن يستحقها لعلة قديمة ، لأنه لا قديم سواه ، على ما بيناه . ولا يجوز أن يستحقها لعلة محدثة ، لأن من حق العلة أن تتقدم على معلولها ، فلو تقدمت عليه نقضت كونه قديماً ، وقد ثبت قدمه ، ولو تقدم عليها نقض كونها علة . فبقي أن يستحقها لذاته سبحانه وتعالى .

- فإن قيل لك : ما الدليل على أنه لا يشبه الأشياء ؟

قلت : لأنه لو أشبهها لجاز عليه ما جاز علينا من التغير والزوال والتنقل من حال إلى حال ، وذلك من امارات الحدوث .

(٤٣) من هنا تبدأ من ٨٧ ق المخطوطة أ .

(٤٤) في الأصل : لا يجوز بدون الواو

- فإن قيل لك : ما الدليل على أنه سبحانه غنى ؟
قلت : لأن الحاجة لا تجوز إلا على المحدث ، وقد ثبت أنه قديم .
- فإن قيل لك : ما الدليل على أنه لا يرى بالابصار ؟
قلت : لأنه لو جاز رؤيته فى حال من الأحوال ، لرأيناه الآن لأن لا مانع بيننا وبينه ، فلما لم نره مع ذلك ، علمنا[٤٥] أنه لا يجوز عليه الرؤية فى الدنيا ولا فى الآخرة .
- فإن قيل لك : ما الدليل على أنه سبحانه وتعالى واحد ، لا ثانى له معه فى القدم والإلهية ؟
قلت : لو كان معه ثان ، لأدى إلى التمانع بينهما ، فلا يوجد أحدهما ما يكره الثانى ، وذلك يدل على عجزهما . وقد ثبت كونه سبحانه وتعالى قادراً .

باب القول فى العدل

- فإن قيل لك : ما الدليل على أنه سبحانه[٤٦] عدل حكيم ؟
قلت : لأنه لا يحمل على الجور والعبث إلا ذو[٤٧] الحاجة والجهل ، وقد ثبت أنه تعالى[٤٨] عالم غنى ، فثبت أنه سبحانه[٤٩] عدل حكيم ، لأن من علم قبح القبيح وكان عنه غنياً[٥٠]، لم يفعله أصلاً شاهداً أو[٥١] غائباً .
- فإن قيل لك : أفعال العباد منهم أو[٥٢]من الله سبحانه[٥٣]؟
قلت : بل[٥٤] منهم لأنه سبحانه وتعالى[٥٥] أمرهم ببعضها ونهاهم عن

(٤٥) من هنا تبدأ ص ٨٨ ق المخطوطة أ .
(٤٦) ق ب : تعالى .
(٤٧) ق ب : ذو ناقصة .
(٤٨) ق أ : تعالى ناقصة .
(٤٩) ق ب : تعالى .
(٥٠) ق ب : وكان غنياً عن فعله .
(٥١) ق ب : ولا .
(٥٢) ق ب : أم من .
(٥٣) ق أ : سبحانه ناقصة .
(٥٤) ق ب : بل ناقصة .
(٥٥) ق ب : لأن الله سبحانه .

بعضها ، ولا يجوز أن يأمرهم بفعله ولا ينهاهم عن فعله[٥٦]، لأنه عدل حكيم .

- فإن قيل لك : ما الدليل على أن الله تعالى[٥٧] لا يقضي إلا بالحق ؟

قلت : لأن القضي[٥٨] بالمعاصي باطل ، والقضي بالباطل باطل[٥٩] قبيح . وقد قال تعالى : ﴿ **والله يقضي بالحق** ﴾[٦٠].

- فإن قيل لك : ما الدليل على أنه لا يعذب أحداً[٦١] إلا بذنبه ، ولا يثيبه[٦٢] إلا بعمله ؟

قلت : لقوله تعالى : ﴿ **وأن ليس للإنسان إلا ما سعى** ﴾[٦٣]، ولقوله تعالى : ﴿ **فكلا أخذنا بذنبه** ﴾[٦٤].

- فإن قيل لك : ما الدليل على أن الله سبحانه[٦٥] لا يكلف أحداً[٦٦] من عباده[٦٧] مالا يطيق ؟

قلت : لأن تكليف مالا يطاق قبح ، والله تعالى لا يفعل القبيح[٦٨]، ولقوله تعالى : ﴿ **لا يكلف الله نفساً إلا وسعها** ﴾[٦٩].

- فإن قيل لك : لم قلت إنه لا يحب الظلم ، ولا يريد الكفر ، ولا يرضى الفساد[٧٠] ؟

(٥٦) في ب : وهو لا يأمرهم وينهاهم عن فعله

(٥٧) في أ : على أنه سبحانه .

(٥٨) في ب : القضي ناقصة .

(٥٩) في أ : باطل ناقصة .

(٦٠) سورة غافر : ٢٠ .

(٦١) في ب : أحد .

(٦٢) في أ : يثيب .

(٦٣) سورة النجم : ٤٠ .

(٦٤) سورة العنكبوت : ٤٠ .

(٦٥) في ب : تعالى .

(٦٦) في ب : أحد .

(٦٧) في أ : من عباده ناقصة .

(٦٨) في ب : ... قبح والله تعالى لا يفعل ... ناقصة .

(٦٩) سورة البقرة : ٢٨٦ .

(٧٠) في أ : إن الله تعالى لا يريد الظلم ، ولا يرضى الكفر ، ولا يحب الفساد .

قلت : لأن جميع ذلك راجع إلى الإرادة ، وإرادة القبيح قبيحة ، والله تعالى لا يفعل القبيح .

فإن قيل لك : لم قلت إن الآلام[٧١] من الله سبحانه وتعالى ؟ ولم قلت لابد من العوض عليه[٧٢] ؟

قلت : لأن جميع الآلام خارجة من مقدورات العباد[٧٣]، فلا فاعل له إلا الله ، والله غنى عن ظلم العباد ، وعالم بقبح القبيح[٧٤]، وغنى عنه ، ولابد من العوض والاعتبار .

- فإن قيل لك : لم قلت إن القرآن كلام الله تعالى ؟

قلت : لأن النبى ، صلى الله عليه ، وآله وسلم ، كان يدين بذلك[٧٥]، ويخبر به ، وهو لا يدين إلا بالحق ، ولا يخبر إلا بالصدق ، لكونه رسولاً حكيماً عدلاً[٧٦].

- فإن[٧٧] قيل لك : لم قلت إن القرآن محدث ؟

قلت : لأنه مرتب منظوم ، يوجد بعضه فى إثر بعض ، وذلك دلالة الحدوث ، ولقوله تعالى ﴿ **وما يأتيهم من ذكر محدث إلا استمعوه وهم يلعبون** ﴾[٧٨].

- فإن قيل لك : لم قلت إن محمداً[٧٩]، صلى الله عليه ، وآله وسلم ، نبى صادق ؟

قلت : لأنه جاء بالمعجز الذى شهد بصدق دعواه[٨٠]، ولا يجوز ظهور المعجز[٨١] إلا على نبى صادق فيما ادعاه .

(٧١) فى ب : الألم .

(٧٢) فى ب : عليه ناقصة .

(٧٣) فى ب : لأن الألم على ذلك الوجه خارج مقدور العباد .

(٧٤) فى ب : العبث .

(٧٥) فى أ : به .

(٧٦) فى أ : ولكونه عدل حكيم .

(٧٧) من هنا تبدأ ص ٨٩ من المخطوطة أ .

(٧٨) فى ب : ولقوله تعالى ... ناقصة . والآية المذكورة هى الآية ٢ من سورة الأنبياء .

(٧٩) فى أ : النبى .

(٨٠) فى ب : دعوته .

(٨١) فى أ : المعنى .

- فإن قيل لك : ما الدليل على أن الله تعالى[82] يخلد أهل الجنة فى الجنة ، وأهل النار فى النار[83] ؟

قلت : لأن الله تعالى وعد أولياءه بالجنة ، وتوعد أعداءه بالنار ، واخلاف الوعد والوعيد قبيح[84]، والله تعالى لا يفعل القبيح .

فإن[85] قيل لك : ما الدليل على دخول الفساق النار ، وخلودهم فيها ؟

قلت : لقوله تعالى : ﴿ **ومن يعص الله ورسوله فإن له نار جهنم خالدين فيها أبداً** ﴾[86]، والخلود هو الدوام . واخلاف الوعيد كذب ، والكذب قبيح .

فإن قيل لك : لمن يقضى الله بشفاعة النبى ، صلى الله عليه ، وآله وسلم[87] ؟

قلت : لا يقضى بها إلا لمن يستحق الجنة ، دون من استحق النار ، لقوله تعالى : ﴿ ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع ﴾[88]. والفاسق ظالم بالإجماع .

فإن قيل لك : ما يسمى المرتكب للكبائر من أهل[89] الشهادتين ، ولا يقدم على شىء من الكفر[90] ؟

قلت : اسميهم فساقاً ، لأن للكفر أفعالاً مخصوصة ، لها أحكام مخصوصة[91] ، ولا أسميهم منافقين ، لأن المنافق من أظهر الإسلام ، وأبطن الكفر ، وليس هذه حال الفاسق ، ولا أسميهم مؤمنين ، لأن الإيمان اسم

(٨٢) فى ب : أنه تعالى .

(٨٣) هذا السؤال فى ب ينقسم إلى سؤالين ، تقابلهما إجابتان .

(٨٤) فى ب : واخلاف الوعيد كذب ، والكذب قبيح .

(٨٥) فى أ : سقط هذا السؤال وإجابته .

(٨٦) سورة الجن : ٢٣ .

(٨٧) ثمة تحريف فى صيغة السؤال فى كل من النسختين ، فلزم التنسيق بينهما .

(٨٨) سورة غافر : ١٨ .

(٨٩) فى ب : ممن مر .

(٩٠) فى أ : ولا يقدم ... ناقصة .

(٩١) فى أ : لأن للكفر أحكاماً مخصوصة .

شريف ، والفاسق يستحق الإهانة ، فلم يبق سالماً من هذه الموانع وأحد الموانع[٩٢]. الإجماع على تسميته فاسقاً .

- فإن قيل لك : لم قلت إن[٩٣] الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر واجب ؟

قلت : لقوله تعالى : ﴿ **ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون** ﴾[٩٤]. وهذا هو أمر ، والأمر يقتضي الوجوب .

- فإن قيل لك : لم قلت إن الإمام بعد رسول الله ، صلى الله عليه ، وآله ، وسلم ، علي بن أبي طالب ، كرم الله وجهه في الجنة[٩٥] ؟

قلت : لقول النبي ، صلى الله عليه ، وآله ، وسلم « من كنت مولاه فعلي مولاه » إلى آخره[٩٦]، وهو لا يريد بذلك إلا إثبات[٩٧] الإمامة ، فثبت بذلك[٩٨] كونه إماماً عليه السلام .

- فإن قيل لك : لم قلت إن[٩٩] الإمام بعده ولده[١٠٠] الحسن ، ثم بعده الحسين ، عليهما السلام ؟

قلت : لقول النبي صلى الله عليه ، وآله ، وسلم « الحسن والحسين إمامان قاما أو قعدا ، وأبوهما خير منهما » ، وهذا نص صريح[١٠١] على إمامتهما[١٠٢].

- فإن قيل لك : لم قلت إن الإمامة بعدهما[١٠٣] في أولادهما ؟

(٩٢) كذا (ا) في ب ، وفي أ : واحد والموانع .
(٩٣) في أ : إن ناقصة .
(٩٤) سورة آل عمران : ١٠٤ .
(٩٥) في ب : صلوات الله عليه .
(٩٦) في ب : إلى آخره ناقصة .
(٩٧) في ب : إثبات ناقصة .
(٩٨) في أ : ذلك ناقصة .
(٩٩) في أ : إن ناقصة .
(١٠٠) في أ : ولده ناقصة .
(١٠١) في ب : وهذا تصريح .
(١٠٢) في ب : عليهما السلام .
(١٠٣) في أ : بعدهما ناقصة .

قلت : لإجماع الأمة والعترة عليهم السلام على ثبوتها فيهما[104] ، واختلافهم فيمن سواهم .

تمت زبدة الأدلة ، والحمد لله رب العالمين ، وصلى الله وسلم على سيدنا محمد ، وآله الطيبين الطاهرين ، وأن يجعلنا في ذلك من العالمين ، والحمد لله أولاً وآخراً ، وظاهراً وباطناً ، وصلى الله على محمد ، وآله ، وسلم تسليماً .

* * *

(١٠٤) في ب : لإجماع الأمة على ثبوتهما .

(١٠٥) في ب الخاتمة هكذا : تمت الزبد بحمد من له الحمد والمجد ، وبركة نبيه صلى الله على مؤلفها عدد أفلاك السماء ، وبصرنا بعلوم أهل بيت نبيه صلى الله عليه ، وآله ، وسلم ، وأذهب عنا العمى ، وحشرنا في زمرتهم ، إنه على ما يشاء قدير ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم ، وصلى الله وسلم على محمد ، وعلى آله ...

المراجـــــع

أولاً : المخطوطـــات

- ابن الزحيف ، محمد بن على بن يونس بن فند : مآثر الأبرار فى تفضيل مجملات جواهر الأخبار . رقم ١٦٥ تاريخ وتراجم . المكتبة الغربية بجامع صنعاء .
- المنصور بالله : عبد الله بن حمزة : الشافى ، ٤ مجلدات : نسخة رقم ٧٧ علم الكلام ، وأخرى رقم ٨١ علم الكلام . المكتبة الغربية بجامع صنعاء .
- المنصور بالله ... : زبد الأدلة ، ضمن مجموعة رسائل . رقم ٣ مجموع . المكتبة الغربية بجامع صنعاء .
- المنصور بالله ... : زبد الأدلة ، ضمن مجموعة رسائل . مخطوط مصور برقم ٢/٢٦١٣ بمكتبة جامعة الملك سعود بالرياض .
- المنصور بالله ... : مسائل سئل عنها ومن إملائه عليه السلام . ضمن مجموعة رسائل برقم ٣٩ مجموع . المكتبة الغربية بجامع صنعاء .

ثانياً : المطبوعـــات

- أحمد محمود صبحى (دكتور) : الزيدية . الإسكندرية ، منشأة المعارف ، ١٩٨٠ .
- بدر الدين محمد بن حاتم اليامى الهمدانى : كتاب السمط الغالى الثمن فى أخبار الملوك من الغز باليمن ، تحقيق وكس سمث . لندن ، ١٩٧٤ .
- عبد الجبار بن أحمد : شرح الأصول الخمسة ، تحقيق دكتور عبد الكريم عثمان . القاهرة ، مكتبة وهبة ، ١٩٦٥ .

- محمد عبد العال أحمد (دكتور) : الأيوبيون فى اليمن . الإسكندرية ، الهيئة العامة للكتاب ، ١٩٨٠ .

- محمد بن محمد زبارة : أئمة اليمن ، جـ ١ . تعز ، مطبعة النصر الناصرية ، ١٣٧٢ - ١٣٧٥هـ.

- محمد يحيى الحداد : تاريخ اليمن السياسى ، ط ٣ . القاهرة ، دار الهنا للطباعة ، ١٩٧٦ .

بسم الله الرحمن الرحيم

حالة القلق وسمة القلق
لدى عينات سعودية ذهانية وعصابية

دكتور أحمد محمد عبد الخالق
قسم علم النفس - كلية الآداب
جامعة الإسكندرية

دكتور أحمد خيري حافظ
قسم علم النفس - كلية الآداب
جامعة عين شمس

حالة القلق وسمة القلق
لدى عينات سعودية ذهانية وعصابية

دكتور أحمد محمد عبد الخالق
قسم علم النفس - كلية الآداب
جامعة الإسكندرية

دكتور أحمد عبوى حافظ
قسم علم النفس - كلية الآداب
جامعة عين شمس

مقدمـــــة

يواجه الطب النفسى صعوبات بالغة فى مجال تشخيص Diagnosis الاضطرابات النفسية (العصاب) والأمراض العقلية (الذهان) وكذلك تصنيف Classification كل منهما ، ذلك أنه ليس وراءهما كائنات حية مسببة يمكن أن نرجع إليها كما هو الحال فى الأمراض المعدية ، ولا توجد إصابات عضوية محددة كالتى توجد فى أنواع الأمراض التى تنسب إلى جهاز معين من أجهزة الجسم .

وترجع أهمية التصنيف فى الطب النفسى وضرورته إلى أن تصنيف المريض فى زملة Syndrome معينة أو مرض Disease تحدد أمر أساسى ليس بالنسبة إلى شفائه فحسب بل كذلك لفهم أسباب مرضه Etiology والتنبؤ بمآله Prognosis أيضاً .

ويعتمد الطب العام فى التشخيص والتصنيف على معونة علم الأمراض Clinical pathology والفحوص المعملية المعتمدة على التقديرات الحيوية ، بينما يفتقد الطب النفسى مثل هذه المعونة ، فلم يتوصل الباحثون فيه إلى أن تسهم تحليلات كل من الدم والبول وإفرازات الغدد الصماء وفحص مختلف وظائف الجسم والمخ وغيرها فى تشخيص الاضطراب أو المرض فى المجال السيكياترى (الطبى النفسى) بدرجة مرتفعة من الدقة .

ومن ناحية أخرى تبدو الأمراض فى مجال الطب بعامة أكثر تحديداً ، والأعراض أقل تداخلاً . بينما الأمر على النقيض فى مجال الطب النفسى ، فإن الأمراض والاضطرابات وخلل الوظائف أقل تحديداً ، والعلاقات والأعراض أكثر تداخلاً .

ولقد نجم عن ذلك صعوبات جمة فيما يختص بوضع نظام دقيق للتصنيف ، مما تسبب فى الانخفاض الملموس فى ثبات التشخيص السيكياترى وبالتالى صدقه ، وأدى إلى ارتفاع فى نسبة الخطأ فى التصنيف Misclassification .

ويرجع الخلل فى التشخيص السيكياترى إلى أسباب عديدة منها : عدم الدقة فى نظام التصنيف ، واعتماد الطب النفسى على النموذج الطبى أو نموذج الوحدات المرضية Disease entities ، إلى جانب الذاتية فى الحكم ، واعتماد أحكام الممارسين على الخبرة والبصيرة والمهارة الإكلينيكية .

ولقد بذلت محاولات كثيرة - منذ وقت مبكر - لرفع صدق التشخيص السيكياترى وبالتالى ثباته ، ومنذ ابتدع كريبلين Kraepelin طريقته فى التصنيف فما تزال هى أكثر الطرق شيوعاً من حيث جوانبها الإجرائية ، إذ تعتمد على تحليل مركبات الاضطرابات النفسية والأمراض العقلية ثم إعادة تركيبها بنوع من النظام ، وهى تمثل نسقاً متكاملاً للملاحظة الإكلينيكية للحالات المرضية فيما يتصل بتعليلها ، وبدايتها ، وأعراضها ومسارها ، ومآلها (٨ ص ص ٨٧ - ٨٩) .

كما استمرت بعد ذلك المحاولات التى تمخض عنها فى وقتنا هذا عدة نظم فى التصنيف : أمريكية وأوربية ومصرية ، كما أن هناك تصنيفاً دولياً أصدرته هيئة الصحة العالمية WHO ويعد النظام الذى وضعته الجمعية الأمريكية للطب النفسى APA أبرزها وأهمها .

وإلى جانب هذا جرت محاولات أخرى لاستخدام التحليل العاملى للوصول إلى عوامل أو فئات تصنيفية أكثر ثباتاً ، على أساس النظرة الأبعادية Dimensional ، وتطوير موازين تقدير للأعراض ، واستخدام الحاسب الالكترونى فى التشخيص ، والاهتمام بالتصنيفات الأساسية الكبرى وليس

بالفئات الفرعية الصغرى ، حيث إن ثبات الأولى أعلى ، والابتعاد عن التصنيف بطريقة البطاقات التشخيصية Diagnostic Labels ، والتصنيف على أساس درجة الاختلال فى الوظائف المعرفية والنفسحركية والإدراكية وغيرها (انظر : ٤) .

ولقد سعى علماء النفس فى إطار هذه المحاولات للمساهمة فى حل « أزمة التشخيص » إن جاز التعبير ، وذلك بإعداد اختبارات ومقاييس نفسية يمكن أن تسهم فى التشخيص ، وقد طبق علماء النفس الإكلينيكى هذه الأدوات على مجموعات مرضية مختلفة ، وذلك لتحديد أبرز معالم استجابة الفئات المختلفة لها .

وبرغم ثراء المحاولات الأجنبية فى هذا الصدد وتعددها ، فما تزال الجهود محدودة فى الوطن العربى فى مجال إعداد المقاييس وتقنينها بهدف استخدامها بوصفها أدوات للتمييز الإكلينيكى فى المجال السيكياترى ، وبخاصة الأمراض العقلية والاضطرابات النفسية واختلال الوظائف العقلية .

وأثمرت جهود الباحثين العرب فى علم النفس مجموعة من الاختبارات والمقاييس المترجمة والمؤلفة ، وكان لمصر الدور الأول فى هذا المجال ، فما تزال معظم الاختبارات والمقاييس التى تم تقنينها فى مصر تطبق فى شتى أنحاء الوطن العربى ، وإن كانت ثمة محاولات تسعى إلى إعادة تقنينها على عدد من البيئات المحلية العربية ، نظراً للاختلافات النوعية فى اللهجات والعادات والظروف ومستوى التحضر وغير ذلك من أسباب .

ولقد قامت عدة محاولات جادة فى المملكة العربية السعودية لإعادة تقنين كثير من الاختبارات النفسية على البيئة المحلية . وكان لمركز البحوث التربوية بجامعة الملك عبد العزيز (جامعة أم القرى الآن) فضل الريادة فى تقنين عدد من المقاييس النفسية ، هذا عدا جهود أخرى فى جامعات سعودية مختلفة .

ففى مجال الذكاء والقدرات قننت عدة اختبارات هامة مثل اختبار المصفوفات المتدرجة من وضع « ريفين » ، واختبار رسم الرجل لـ « جود انف ، هاريس » ، وكل من اختبار ذكاء الشباب المصور واختبار ذكاء

الشباب اللفظى لحامد زهران ، والمرواز العربى الميسر فى اختبار حاصل الذكاء لفايز الحاج .

وفى مجال الشخصية وعلم النفس الاجتماعى قنن عدة اختبارات أخرى أهمها : قائمة السلوك الاجتماعى ، ومقياس اتجاهات الطلاب نحو مادة الرياضيات ومقياس مكة لأساليب المعاملة الوالدية ، والمقاييس الثلاثة من وضع فاروق عبد السلام ومحمد جميل منصور ، وقائمة مشكلات الشباب الجامعى من وضع على خضر ، كما قامت آمال صادق بتقنين البروفيل الشخصى وقائمة الشخصية لـ « جوردون » أيضاً (٦ ، ٧) .

أما فى المجال الإكلينيكى - مجال دراستنا هذه - فلا نجد سوى سلسلة المقاييس الفرعية الإكلينيكية لقائمة « مينسوتا » للشخصية متعددة الأوجه MMPI التى قام بإعدادها فايز الحاج .

ولا يعد ذلك حصراً شاملاً لكل المقاييس التى تم تقنينها أو تطبيقها على عينات من البيئة السعودية ، إذ يصعب الحصر الدقيق لها جميعاً نظراً لعدم توافر المعلومات الأساسية فى هذا الصدد .

ولعل أبرز الملاحظات على حركة « تقنين » الاختبارات النفسية فى المملكة العربية السعودية تتلخص فى أنه على الرغم من أن محاولات تقنين المقاييس على البيئة السعودية قد بدأت منذ أكثر من عشر سنوات فإن ما أنجز منها يعد محدوداً ، كما أن معظم المقاييس تتركز فى المجال المعرفى ، فقد لقيت اختبارات الذكاء والقدرات العقلية الاهتمام الأول بالمقارنة إلى بقية المجالات . كما كان الاعتماد على جهود فردية ، برغم حاجة عمليات التقنين الماسة إلى فريق بحثى يضم عدداً من المتخصصين . أما أهم ما يؤخذ على تلك الجهود فهو عدم تمثيل العينات للمجتمع ، فمعظم المقاييس التى تم تقنينها بجامعة أم القرى على سبيل المثال طبقت على عينات مسحوبة من المنطقة الغربية فقط ، برغم اتساع رقعة المملكة ، واختلاف عيناتها من منطقة إلى أخرى ، كذلك عدم استخراج معايير متنوعة لمعظم هذه المقاييس ، إذ يكتفى عادة بالمتوسطات الحسابية والانحرافات المعيارية فحسب .

أهمية الدراسة وهدفها

تسعى دراستنا هذه إلى تقديم إسهام متواضع في المجال الإكلينيكي ، وذلك ببيان الفروق بين عدد من المجموعات الإكلينيكية السعودية في الاستجابة لمقياس من مقاييس القلق .

ونظراً لندرة المقاييس التي أجريت عليها بحوث في البيئة السعودية والتي يمكن استخدامها بوصفها أدوات مساعدة في التمييز الإكلينيكي ، وحيث إن الحاجة ماسة إلى تقديم مثل هذه الأدوات ، فقد وقع اختيارنا في هذه الدراسة على مقياس للقلق ، بهدف بيان مدى قدرته على الإسهام في إجراء التمييز الإكلينيكي بين عدد من الفئات السعودية المرضية .

ويرجع اختيارنا لأحد مقاييس القلق إلى أن القلق مفهوم مركزي في بحوث الشخصية وعلم النفس المرضي ، والأخير هو الأساس النظري لعلم النفس الإكلينيكي الذي يعد بمثابة علم النفس المرضي التطبيقي : التشخيص والعلاج والوقاية والمآل والبحوث في هذه المجالات . والقلق هو محور العصاب ، وأحسن ممثل لقطب الدسثيميا Dysthemia (عصاب المنطوى) والعرض الجوهري المشترك في الاضطرابات النفسية بل وفي أمراض عضوية شتى ، وأكثر فئات العصاب شيوعاً .

وقد ميز علماء النفس بين أنواع فرعية أو مجالات خاصة في القلق ، من بينها تقسيمه إلى حالة State وسمة Trait . وتشير حالة القلق إلى قطاعات مستعرضة مؤقتة أو عابرة في تيار حياة الفرد ، أما سمة القلق فهي خاصية مستقرة وثابتة نسبياً لدى الفرد (انظر للتفصيل : ٩) ومن أكثر مقاييس حالة القلق وسمة القلق ذيوعاً وانتشاراً القائمة التي وضعها « سبيلبيرجر » وزملائه (٩) والتي ترجمت إلى أكثر من ثلاثين لغة . وقام عبد الخالق (٣) بترجمة الطبعة الأخيرة والمنقحة منها والصادرة عام ١٩٨٣م إلى اللغة العربية ، واختبر بها عينات مصرية ، واستخرج معاملات ثباتها وصدقها . كما قام عبد الخالق وحافظ (٥) بإجراء دراسة بهذه القائمة ذاتها على عينات سعودية .

وحسبت معاملات ثباتها وصدقها ، واستخرجت المتوسطات والانحرافات المعيارية لمقياسي القائمة الفرعيين على أربع عينات سعودية . وقد أشارت نتائج هذه الدراسة بوجه عام - إلى أن قائمة القلق : الحالة والسمة أداة واعدة ومأمولة ، ويوصى باستخدامها فى البحوث على العينات السعودية .

وتهدف هذه الدراسة – والتى تعد امتداداً للدراسة التى قام بها المؤلفان (٥) على عينات سعودية – إلى بيان مدى كفاءة قائمة القلق : الحالة والسمة ، فى الإسهام فى التمييز الإكلينيكى بين مجموعتين من الذهانيين والعصابيين السعوديين من الجنسين ، وذلك تمهيداً لاستخدام هذه الأداة فى المجال الإكلينيكى فى المملكة العربية السعودية .

المنهج والإجراءات

العينات :

أجريت هذه الدراسة على ١١٥ ذهانياً وعصابياً ، منهم ٧٥ ذهانياً (٥٣ ذكراً ، ٢٢ أنثى) وكلهم من المرضى المقيمين بمستشفى الصحة النفسية بالطائف ، بالإضافة إلى أربعين عصابياً (١٩ ذكراً ، ٢١ أنثى) من المترددين على العيادة الخارجية لكل من مستشفى الصحة النفسية بالطائف ومستوصف خشم العان بمدينة الرياض . وتجدر الإشارة إلى أن مستشفى الصحة النفسية بالطائف هو المستشفى العقلي الأول بالمملكة العربية السعودية للمرضى العقليين ويضم أقساماً داخلية ، ومن ثم يتردد عليه المرضى من مختلف مناطق المملكة . أما مستوصف « خشم العان » فيتردد عليه العصابيون من مدينة الرياض وما حولها . ويبين جدول (١) أحجام وأعمار هذه العينات .

جدول (١) : حجم العينات (ن) والمتوسط (م)
والانحراف المعياري (ع) للأعمار

العينة	ن	العمر	
		م	ع
ذهانيون ذكور	٥٣	٣٣ر٠٣	١١ر١٢
ذهانيات	٢٢	٣٥ر١٣	١٤ر٩٥
عصابيون ذكور	١٩	٢٨ر٤٢	١٢ر٩٣
عصابيات	٢١	٢٣ر٠٠	٠٧ر٥٥

، نلاحظ من الجدول (١) أن أقل الأعمار للعصابيات وأكبرها للذهانيات ، وأن متوسط أعمار العصابيين من الجنسين أقل من نظرائهم الذهانيين ، كما أن

أقل تشتت للأعمار (كما يقاس بالانحراف المعيارى) لدى عينة العصابيات ، وأعلى تشتت للأعمار لدى عينة الذهانيات ، وتجدر الإشارة فى هذا الصدد إلى أن الذهانيين فى هذه الدراسة مرضى مقيمين إقامة داخلية Inpatients ، أما العصابيون فمرضى مترددون على العيادة الخارجية Outpatients .

المقيـــــاس :

طبقت ترجمة عبد الخالق (٣) لقائمة القلق : الحالة والسمة من وضع « سبيلبرجر » وزملائه (٩) ، وهى الطبعة المنقحة الصادرة عام ١٩٨٣م (الصورة ى) . وتضم هذه القائمة مقياس الحالة ومقياس السمة ، ويشتمل كل مقياس فرعى على عشرين بنداً ، يجاب عن كل منها بالاختيار بين أربعة بدائل . وقد ظهر أن لهذه القائمة ثباتاً وصدقاً مرتفعين على عينات أمريكية وأوربية (٩) وعلى عينات عربية : مصرية (٣) وسعودية (٥) . وقد تم تطبيق القائمة فى موقف قياس فردى ، سواء أكان ذلك فى مستشفى الصحة النفسية بالطائف أم مستوصف خشم العان بالرياض .

التحليل الإحصائى :

تم استخراج المتوسطات والانحرافات المعيارية للدرجات الخام ، كما استخدم اختبار «ت» لبيان دلالة الفروق بين المتوسطات ، وحسب معامل ارتباط « بيرسون » بين الدرجات الخام .

النتـائج ومناقشـتها

يبين جدول (٢) معاملات ارتباط بيرسون بين المقياسين الفرعيين :

حالة القلق وسمة القلق لدى الذهانيين والعصابيين من الجنسين .

جدول (٢) : معاملات الارتباط (ر) بين حالة القلق وسمة القلق
لدى أربع عينات سعودية

العينة	ذكور		إناث	
	ن	ر	ن	ر
ذهانيون	٥٣	٠,٧٧١**	٢٢	٠,٤٨٣*
عصابيون	١٩	٠,٣٢٩	٢١	٠,٤٧٥*

* جوهرى عند مستوى ٠,٠٥ .
** جوهرى عند مستوى ٠,٠١ .

بالنظر إلى جدول (٢) نلاحظ أن ثلاثة من معاملات الارتباط الأربعة جوهرية ، مما يشير إلى نوع من الاتساق بين إمابقيه مقياسا الحالة والسمة ، ولا غرو فهما مقياسان للقلق . ويتفق ذلك مع الدراسات السابقة على عينات سوية أمريكية (٩) ومصرية (٣) وسعودية (٥) . وبالمقارنة إلى نتائج الدراسة السعودية على عينات سعودية سوية (٥) نلاحظ أن معاملات الارتباط بين المقياسين الفرعيين أعلى من نظيرتها المستمدة من العينات غير السوية فى هذه الدراسة ، وهذا أمر متوقع ، إذ يلاحظ عادة انخفاض الارتباطات فى العينات غير السوية ، ويرجع ذلك إلى عوامل عدة ، قد يكون أبرزها عدم الاتساق فى استجابات العينات غير السوية من مقياس إلى آخر . وعلى كل حال تشير هذه النتيجة على العينات السعودية غير السوية إلى أن استخدام القائمة فى هذا السياق أمر مسوغ ومقبول إلى حد كبير .

ومن ناحية أخرى قمنا بحساب المتوسطات والانحرافات المعيارية لمقياسى القلق : الحالة والسمة ، ويبين الجدول (٣) نتيجة هذا التحليل .

جدول (٣) : المتوسطات (م) والانحرافات المعيارية (ع) لكل من حالة وسمة القلق لدى العينات السعودية المرضية

المجموعات	ن	حالة القلق		سمة القلق	
		م	ع	م	ع
ذهانيون ذكور	٥٣	٤٠٫٢٨	١١٫٤٥	٤١٫٢٠	١٠٫٥١
ذهانيـــات	٢٢	٤٥٫٨٦	٠٧٫٣٨	٤٩٫٩٥	١٠٫٣٣
عصابيون ذكور	١٩	٤٦٫٠٥	١١٫٥٣	٤٨٫٦٣	١٣٫٣١
عصابيـــات	٢١	٥١٫٠٠	١٤٫٠١	٥٠٫٥٢	١٤٫٧٨

ويلاحظ من جدول (٣) أن هناك فروقا جنسية فى المقياسين الفرعيين للقلق ، إذ ترتفع درجات العصابيات والذهانيات بالنسبة إلى درجات نظرائهما الذكور ، فبينما وصل متوسط درجات الذهانيات فى مقياس حالة القلق إلى ٤٥٫٨٦ كان نظيره لدى الذهانيين الذكور ٤٠٫٢٨ . وفى سمة القلق حصلت الذهانيات على متوسط درجات قدره ٤٩٫٩٥ ، على حين كان متوسط درجات الذهانيين الذكور ٤١٫٢٠ . ومن ناحية أخرى حصلت العصابيات على متوسط درجات قدره ٥١٫٠٠ مقابل ٤٦٫٠٥ للعصابيين الذكور فى حالة القلق . وبلغ متوسط درجات العصابيات ٥٠٫٥٢ فى سمة القلق مقابل ٤٨٫٦٣ للعصابيين الذكور . وتؤكد دراسات سابقة عديدة (انظر : ١ ، ٢) هذه الفروق الجنسية فى القلق والعصابية كما يقاسا بالاستخبارات ، إذ ظهر أن للإناث درجات أعلى من الذكور المقابلين لهم .

كما يتضح من جدول (٣) أن متوسط درجات العصابيين - على اختلاف الجنس - أعلى من درجات الذهانيين المقابلين لهم فى مقياسى الحالة والسمة ،

فبينما وصل متوسط درجات الذهانيين الذكور إلى ٤٠ر٢٨ بلغ متوسط درجات العصابيين الذكور ٤٦ر٠٥ فى حالة القلق . وعلى حين بلغ متوسط درجات الذهانيين الذكور فى سمة القلق ٤١ر٢٠ وصل نظيره للعصابيين الذكور ٤٨ر٦٣ . وفى مقابل متوسط درجات قدره ٤٥ر٨٦ للذهانيات عند ٥١ر٠٠ للعصابيات فى حالة القلق . وبينما وصل متوسط درجات الذهانيات إلى ٤٩ر٥٩ فى سمة القلق بلغ متوسط درجات العصابيات ٥٠ر٥٢ . وتشير هذه النتائج إلى ارتفاع متوسط درجات العصابيين - من الجنسين - بالمقارنة إلى الذهانيين . ولا غرو فالمقياس الذى أجريت به هذه الدراسة مقياس للقلق ، ويتوقع أن يحصل العصابيون على درجات مرتفعة على مثل هذه المقاييس بالنسبة إلى الذهانيين (انظر : ٢) .

جدول (٤) : الفروق بين متوسطات المجموعات المرضية ودرجات الحرية (د. ح.)

المجموعات	د.ح.	قيمة «ت»	
		حالة القلق	سمة القلق
ذهانيون / ذهانيات	٧٣	٢ر٠٨**	٣ر٢٥**
ذهانيون / عصابيون	٧٠	١ر٨٥	٢ر٣٢*
ذهانيون / عصابيات	٧٢	١ر٧١	٣ر٠٠*
ذهانيات / عصابيات	٤١	١ر٤٧	٠ر١٤
عصابيون / عصابيات	٣٨	١ر١٨	٠ر٤١
ذهانيات / عصابيون	٣٩	٠ر٠٦	٠ر٣٨

* جوهرية عند مستوى ٠ر٠٥ .

** جوهرية عند مستوى ٠ر٠١ .

وبالنظر إلى جدول (٤) نلاحظ أن هناك مقارنة جوهرية واحدة فقط فى مقياس حالة القلق ، وهى بين الذهانيين من الجنسين (متوسط درجات

الذهانيات أعلى) . أما بقية المقارنات فى مقياس حالة القلق فهى غير جوهرية . وعلى الرغم من أن هذا المقياس الفرعى يمكن أن يكون عرضة لتغيرات وقتية كثيرة ، كما أن المتغيرات التى يمكن أن تؤثر فى الدرجة عليه قد تكون عديدة ، فإن كل الفروق (ما عدا واحداً) بين المجموعات المرضية من الجنسين غير جوهرية ، إشارة إلى اتساق عام فى استجابة المرضى لمقياس حالة القلق ، بما يعنى - بوجه عام - أن الانعصاب Stress الذى تسبب فيه موقف القياس كان واحداً تقريبا لدى معظم المجموعات .

أما مقياس سمة القلق (انظر جدول ٤) فنلاحظ أن هناك ثلاث مقارنات جوهرية ، وثلاث غير جوهرية . والمقارنات الجوهرية هى بين الذهانيين والذهانيات (الأخيرات أعلى) ، وبين الذهانيين والعصابيين وكلاهما من الذكور (الأخيرون أعلى) وبين الذهانيين الذكور والعصابيات (الأخيرات أعلى) .

النتيجة العامة لهذا التحليل إذن هى ظهور عدد من المقارنات الجوهرية بين مختلف المجموعات المرضية الأربع وبخاصة فى مقياس سمة القلق ، مما قد يحدو بنا إلى القول بأن هذه القائمة يمكن أن تستخدم للإسهام فى التمييز الإكلينيكى . وعلى الرغم من الصدق الجزئى لهذه النتيجة فإن التوصية بذلك أمر ليس له ما يسوغه ، ذلك أن التداخل بين توزيع درجات المجموعات يعد كبيراً ، ويترتب على هذا التداخل عدم إمكان إقامة التمييز بين المجموعات - على أساس هذه القائمة - بدرجة مرتفعة من الدقة .

وهناك - فى مجال الدراسة الإكلينيكية - عدد من أساليب المقارنة الهادفة إلى التمييز بين المجموعات ، من بين هذه الأساليب معيار تحديد مدى الدرجات النمطية فى كل مجموعة إكلينيكية ، بمعلومية المتوسط والانحراف المعيارى لهذه المجموعة حيث :

$$ق = م \pm ١ ع$$

أى أن مدى (ق) الدرجات النمطية لمجموعة إكلينيكية معينة عبارة عن : متوسط (م) درجات هذه المجموعة ، مطروحاً منه انحراف معيارى (ع)

واحد ، ومضافاً إليه انحراف معيارى واحد . وإذا ما طبقنا هذا المعيار - على سبيل المثال - على مجموعتين فى مقياس سمة القلق نجد ما يلى .

مدى درجات الذهانيين الذكور = من ٣١ إلى ٥١ .
مدى درجات العصابيين الذكور = من ٣٥ إلى ٦٢ .

ومن الجلى أن نتيجة تطبيق هذا المعيار على مجموعتين من مجموعات هذه الدراسة ترتب عليه تداخل فى الدرجات ، مما ينتج عنه - بالضرورة - خطأ فى التصنيف Misclassification بالنسبة لكل من الأفراد والفئات التشخيصية .

ومن ناحية أخرى تكشف المقارنة بين العينات السعودية التى يفترض أنها سوية (انظر : ٥) ونتائج هذه الدراسة على العينات السعودية غير السوية عن عدد من الفروق الجوهرية بين النوعين من العينات . وأبرز هذه الفروق ما يلى :

أولاً : مقياس حالة القلق : ارتفاع متوسط درجات جميع العينات غير السوية عن متوسط جميع العينات السوية .

ثانياً : **مقياس سمة القلق** : ارتفاع متوسط درجات الذهانيات والعصابيين والعصابيات بالمقارنة إلى متوسط درجات العينات السوية جميعاً .

نخلص من هذه الدراسة إذن إلى أن قائمة القلق : الحالة والسمة يمكن أن تعد واعدة ومأمولة عندما تستخدم فى البحوث الإكلينيكية ، أو للتمييز بين الأسوياء وغير الأسوياء ، ولكن لا يوصى بها لتكون أداة مسهمة فى التمييز الإكلينيكى العملى بين المجموعات المرضية ، فالتداخل كبير بين المجموعات ، ونسبة الخطأ فى التصنيف لن تكون صغيرة . من أجل ذلك نقترح استخدام هذه القائمة فى البحوث الإكلينيكية ، ، أو لتحديد مستوى القلق لدى غير الأسوياء بالمقارنة إلى الأسوياء ، مع التوصية بإجراء بحوث عليها تهدف إلى تنقية بنودها .

ملخـــص

هدفت هذه الدراسة إلى بيان مدى إسهام قائمة القلق : الحالة والسمة من وضع « سبيلبرجر » وزملائه فى التمييز الإكلينيكى بين أربع مجموعات سعودية من الذهانيين (٥٣ ذكراً ، ٢٢ أنثى) والعصابيين (١٩ ذكراً ، ٢١ أنثى) . وطبقت الصورة العربية من قائمة القلق تطبيقاً فردياً . وظهرت ارتباطات موجبة جوهرية بين مقياسي الحالة والسمة لدى ثلاث من المجموعات الأربع ، إشارة إلى اتساق استجابة معظم المجموعات المستخدمة فى الاستجابة لمقياس القائمة . كما أسفرت الدراسة عن فروق جنسية فى الاستجابة للقائمة : درجات الإناث أعلى من الذكور . وبرزت كذلك فروق جوهرية بين الذهانيين والذهانيات فى مقياس حالة القلق (متوسط درجات الذهانيات أعلى) ، أما فى سمة القلق فكانت الفروق جوهرية بين المجموعتين الأخيرتين ، وبين الذهانيين والعصابيين الذكور ، وبين الذهانيين والعصابيات ، أما بقية المقارنات فغير جوهرية . وعلى الرغم من ظهور عدد من المقارنات الجوهرية بين العينات فى هذه الدراسة ، وبينها وبين الأسوياء فى دراسة سعودية سابقة ، فإنه لا يوصى باستخدام هذه القائمة للإسهام فى التمييز الإكلينيكى بين الفئات المضطربة ، ومع ذلك ترشح هذه الأداة للبحوث الإكلينيكية .

ABSTRACT

The aim of the present research was to test out the efficiency of Spielberger et al. State-Trait Anxiety Inventory (STAI) in clinical discrimination between 4 Saudi groups of psychotics (53 male, 22 female) and neurotics (19 male, 21 female). The Arabic version of the STAI was administered in an individual testing situation. Correlation coefficients between the state and trait anxiety were statistically significant in 3 out of the 4 groups, which indicates response consistency of the 2 subscales of the inventory. Results revealed sexual differences on the STAI, i.e. mean score of females excelled males. On the other hand, there were significant differences between male and female psychotics in state anxiety scale (mean scores of females was superior). Regarding anxiety state scale, significant differences emerged between the following groups : male and female psychotics (females were more anxious), male neurotics and psychotics (the former gained the higher mean score), and male psychotics and female neurotics (the last mentioned group had the highest mean score). Therefore, a number of significant comparison emerged between the 4 abnormal groups, and between them and normal Saudi samples in a previous research which had been caried out by the present authors. However, the present tool is not recommended as an aid to clinical discrimination between psychotics and neroties. It is concluded that the STAI can be used as a research tool in the Saudi context.

المراجـــــع

١ أحمد عبد الخالق (١٩٨٠م) ،
استخبارات الشخصية : مقدمة نظرية ومعايير مصرية ،
الإسكندرية : دار المعارف .

٢ - أحمد عبد الخالق (١٩٨٣م) ،
الأبعاد الأساسية للشخصية ،
الإسكندرية : دار المعرفة الجامعية .

٣ - أحمد عبد الخالق (إعداد) (١٩٨٤م) ،
كراسة تعليمات قائمة القلق : الحالة والسمة ، سبيلبيرجر وزملاؤه .
الإسكندرية : دار المعرفة الجامعية .

٤ - أحمد عبد الخالق (١٩٨٥م) ،
الفروق بين الأسوياء والعصابيين والذهانيين فى الأثر اللاحق لبريمة أرشيدس ،
(تحت الطبع) .

٥ أحمد عبد الخالق ، أحمد خيرى حافظ (١٩٨٥م) ،
حالة القلق وسمة القلق لدى عينات من المملكة العربية السعودية ،
الإسكندرية : دار المعرفة الجامعية .

٦ آمـــال صـــادق (١٩٧٧م) .
تقنين البروفيل الشخصى لجوردن على البيئة السعودية ، فى : فؤاد أبو حطب (محرر) **بحوث فى تقنين الاختبارات النفسية ،**
القاهرة : مكتبة الأنجلو المصرية ، المجلد الأول ، ص ص ٨٥ - ١٢٠ .

٧ - آمـــال صـــادق (١٩٧٧م) ،
تقنين قائمة الشخصية لجوردن على البيئة السعودية ، فى : فؤاد أبو حطب (محرر) **بحوث فى تقنين الاختبارات النفسية** ،
القاهرة : مكتبة الأنجلو المصرية ، المجلد الأول ، ص ص ١٢١ - ١٤٧ .

٨ - هانـز أيزنـــك (١٩٨٥م) ،
التصنيف ومشكلة التشخيص فى ميدان سيكولوجية الشواذ ، فى : مصطفى سويف (محرر) **مرجع فى علم النفس الإكلينيكى** ،
القاهرة : دار المعارف .

٩ - Spielberger, C.D., Gorsuch, R.L., Lushene, R., Vagg, P.R. and Jacobs, G.A. (1983).
Manual for the State - Trait Anxiety Inventory (form Y), Palo Alto: Consulting Psychologist Press.

CONTENTS

Dr.M.A.Bayyumi

The Sociology of World Religions 7

Dr.F.A.Raddy

Structure-Control of Some Geomorphic Properties of Drainage Network 45

Agriculture and Water Resources in Saudi Arabia

M.R.Mohammad

Al-Harra'at and Like Phenomena in Saudi Arabia and Yemen Territories

The Sociology of World Religions*:
Part One
The Similarities and Contrasts Between the Religions of the East.*

By
Dr. Muhammed Ahmed Bayyumi
Sociology Dept., Alexandria University

* It is a series of three parts. Part Two on the Divine person and as a revelation Buddhism and christianity. Part three on the prophet and the christ.

1 Methodological Considerations

This paper is concerned with the religions of the East, more precisely it is concerned with the similarities and contrasts between Zoroastrianism, Judaism, Christianity, and Islam.

There can be no doubt that this subject is a very important and are the most difficult subject in the fields of the sociology and parative religion today. Its importance lies in the fact that if we can put our fingers on these points of similarities and contrasts between these religons, then we will come to the conclusion that, each religion in the geographical area had adopted many religions and cultural doctrines from the preceding religions. This means that the classical theological theories of the origin of these religions are not sufficient to explain these similarities and contrasts; and these theological theories cannot explain the appearance or the rise of these religions. Then, how can we explain the existence of these similarities and these contrasts between these religions ? And from where each of them came from ? And Why ? It is true that these religions, in spite of its contrast in some doctrines and its similarity in other doctinres, came from one God ? Or can we accept that this similarity came from the cultural contact between the peoples of this area; and on the other hand, we can explain this contrast by saying that it is the new elements which gave special characteristics to the new religion; and which reflected the view of the founder of this religion towards the ol religions and his attitudes towards the new problems of his days. In fact, there is no one answer for this problem, that would be universally accepted as correct.

On the other hand, its difficulty lies in the fact that all the founders of these religions claimed that God revealed these religions to them. Thus, unless we have enough documents, it is clear evidence that it is impossible for any scholar to give a final statement about the fact that the founders of these religions influenced by the old religions and cultures. Here I want to mention that many theological attempts had been done to speak about the origin of these religions, but most of these attempts aimed to defend their religions an to refute the other religions and did not give any importance for the similarities and the contrasts between these religions.

However, to escape from all these problems, I will not make comparison between the Avesta and the Old and New Testaments and the Qur'an, but I will deal with religion as a culture and not as a Sacred Book and a Prophet. It seems to me that we cannot speak about similarities and contrasts unless we mention the religious and cultural contacts between these religions.

2 The Religious and Cultural Contacts

As a matter of fact that Zoroastrianism was not the first religion of the Near East. But the fact is that, the Near East exhibited a complex fabric of religions and cultures. It was an area which give rise to the ancient Egyptian religion and the ancient Babylonian religion. In fact, these old religions had left a great direct imprint on Zoroastrianism. Furthermore, as L. H. Mills mentioned that for the historical connection we should notice the influence of the Buddhist scriptures and the theologies of Greek and Rome on this ancient Persian religions[1]. Thus, in persia, the Iranian, Greek, and Indian religions lived side by side and their gods were represented[2].

It was till 569 when Zoroaster appeared on the scene to reform and reshape the Iranian fold religion. Before him, the persians had worshipped a variety of ancient Iranian gods and practiced the "Haoma cult". Zoroaster's creative act was the establishment of monotheism in ancient Persia by replacing these cults by worship of Ahura Mazda, the 'wise lord'. On these there pillars, pure thought, pure words, and pure deeds, Zoroaster reared the stately edifice of his ethical code. The creed of Zoroastrianism therefore, described as "the Religion of the good Life."[3] Within a few centuries, Zoroastrianism was the offical religion of the Persian Empire, which had developed a flourishing culture that embraced the whole area from Turfan to Abyssinia, from the Indus to the Aegean Sea; and so remained untill it was overthrown by the victory of the Arabs over the Sassanid Kingdom in 642[4]

However, through the conquest of Alexander and through the Roman army, which at that period occupied a large part of the Near East, Zoroastrian ideas spread through all the Near East[5]. Also after the Exile of the jewish people and later through contacts with «jews of the Diaspora» many doctrines of Zoroastrianism influenced jewish thought[6]. As we shall see later, certain beliefs about last things, Salvation Satan, the angels and the Messianic Deliverer sterm from Zoroastrianism.

Some writers used to deny all connection of jews with Persia – especially the religious influence and they believed that "the Creed of the Stage Iran was borrowed from jewish faith". Furthermore, they went as far as to suggest that the Zoroastrianism was a copy of judaism and Zoroaster was as to his origin a jew[7].

In fact this theory had been denied by many scholars. According to Max Muller that when the jews, who were carried away, as captives to Babylon, were in constant contact with Iranians. They borrowed from the Zoroastrian faith various doctrines, such as the belief in the immortality of the soul, the resurrection of the body and future reward and punishment. These doctrines were entirely absent from the oldest phase of religion among the jews[8]. Moreover, some scholars emphasized that "Psalms and prophets, the Book of Job, and the New Testament, all written after the jews had become acquainted with Persian traditions"[9]. This view went far and considered that the book of Job has some appearance of being a translation, or adaptation from a Persian, or Assyrian text[10].

L.H. Mills Also draws attention in his article on **'Zoroaster and Bible'** to how extent that the religion of the mazad gave point and body to many loose conceptions among the jewish religious teachers, and introduced many ideas, which were entirely new especially the doctrine that "virtue is chiefly its own reward and vice its own punishment"[11]. Also Mills asserted that the Avesta in no sense depends upon the jewish Greeks. But on the contrary, it was Philo who was in debted to it[12]. As we shall see later, that Philo has great influence upon Christianity, especially on the doctrine of "logos", and some of the Muslim thinkers.

Christianity had in common with the cult of Zoroastrianism and judaism the idea that man could "get right with God"[13]. There was a Saviour God who had become a man to teach mankind a way of life, who had died who had been resurrected, and through whom those who had faith would save.

It had been said that "Christ built up his teaching upon the foundation of judaism and it was as a sect of judaism that Christianity first emerged"[14] However, this reflect to us the influence of Christianity by judaism, which by its turn influenced by Zoroastrianism.

From judaism Christianity adopted the idea of the fatherhood of God and the brotherhood of man, and the idea of later Saviours who would help mankind. From Greek came many philosophical ideas "the word;" the "logos," the "Godhead". In fact, the Hellenistic influence on judaism reached its height at Alexandria in the writings at the jewish philosophers, Philo who tried to synthesize Greek and jewish thought by identifying the wisdom of jewish theology with the "logos" of Grek philosophy[15]. As a matter of fact, Philo's doctrine of "logos" is combination of the platonic ideas and stoic universal causality. As a fact, Philo's "logos" had direct influence upon the early Christian Father. But the question whether St. Paul and the author of the Fourth Gospel had read Philo, this question has not been decided[16]. Also Persian religions left their marks on Christianity through Mithraism,[17] and Gnosticism,[18] especially in the problem of salvation and the problem of the source of evil in our World.

The third and latest comer to the chain of the Near East religions is Islam. The prophet Muhammad made it clear that the religion had preached was the same religion God willed for Abraham, Moses, and jesus. However, it has been said that Muhammad based his religion on the biblical revelation and tradition. From judaism, it has been said, the prophet took the monothestic concept of God. Jewish influence in Yman and Medina had beconsiderable since ancient times. During that period the prophet acquired a number of ritualistic concepts from them; and much narrative material from the Bible had come to Mohammad by oral tradition[19]. The same thing with Christianity, especially the Nestorians sets, with which Muhammad became acquainted on caravan journeys[20]. As we mentioned that Mohammed answered these claims by emphasieing that he did not bring a new religion but it is the religion of Abraham, Moses, and jesus, and he considered himself to be perfecting the work of these prophets.

However, for our subject here, I will leave the problem or origin and will give important to the religious cultural contacts. Before the advent of Islam, some places in the Near East were noted for Hellenic culture, such as "jundi-shapur" in Persia, "Harran" in Mesopotamia, and Alexandria in Egypt. It was from these places that hellenic culture passed to the Eastern people[21]. After the rise of Islam and its spread throughout the

Near East, Islam as a religion and culture faced not only the other religions but also the Hellenistic influences. Between juddiaism and Islam, in that period, there were many polemical problems. Islam emphasized that the old revealed religons had been superseded by later revelations. Islamic polemic claimed that the text of the Bible had been falsified at later time. The Muslim theologians advanced the argument that the Talmudic idea of God was anthropomorphic. On the other hand, jewish theology had to refute the claim that the revelation given to Israel had been abrogated by Christianity and Islam. Moreover, they considered Muhammad a false prophet[22]. Islamic theology sought to bring proofs for the divine origin of Islam and jewish theologians replied in kind.

In the day of Abaasid Caliphs, Islam had contacted with Christianity and Christian teachers were welcomed at the Muslim courts at Bagdad. During this contact, the problem of the Qur'an as revelation of the word of God is eternal or created, was arose by the influence of the Christian doctrine of "logos". The discussions between Muslims and Christians were influenced by the Philo's doctrine of the "logos" and the Neoplatonic theory of "emanation". As opposed to the Christian Trinity, the Muslim theologians were consistent defenders of the doctrine of the Divine Unity.

The same thing had happened after the conquest of the Sassanied empire by the Arabs and the establishment of Islam in Persia; the Persian religion and its dualistic conception and the Gnostic systems continued a vigorous struggle with Islam[23]. These religions, although Muslims treated them like jews and Christians, "the people to whom a Book has been given," survived only in conventicles, secret, underground gatherings. And naturally these secret religions survived in a subtle fashion in the sufi and Shi'ate literatures, especially their doctrines that God is a "Light," and the Messiah "al Mahdi" and his Second Advent. Thus, there is no doubt that Islam contacted with Zoroastrianism, Judaism, and Christianity, and of course, the exchange of idea had been done during this contacts.

Thus, it is clear that in this geographical area, many religious and cultural contacts had happened, and naturally, the exchange of ideas had happened in two ways. Directly by the contact during the exile or invasions or the theological discussions. Indirectly by Greek philosophy, Gnostic systems, the secret movements, the acceptance of the new faith by those movements only to destroy it. Finally, I like to end this point by this

quotation "Through Christianity, Israel had stepped outside its own boundaries and had arrived among the Greeks. In the same way one might describe Islam as the form which judaism took when, stepping outside itself once more, it broke into the Arab world"[25]. And we already mentioned that through judaism, Zoroastrianism had stepped outside its won boundaries and had arrived among Christians and Muslims.

3. Similarities and contrasts between the religions of the east :

We can say that, although Zoroastrianism and the Semitic religions, judaism, Christianity and Islam, have many features in common, they differed fundamentally in some doctrines. Let us then see the similarities and contrasts between those religions negarding these conceptions :

A. The Conception of God

No doubt that, fundamental to any religion, is its conception of the divine. For the peoples and religions of the Near East, we can say that, all the aspects of life : religious, social, cultural, are rooted in their understanding or their conception of God.

Generally speaking, the religions of the Near East teach that there is one God who is to be thought of as personal, and whose laws men must obey. Although the religions of the Near East have many features in common, but in their conception of its nature they differ much. Let us then see what are the similarities and contrasts in their conception of the divine.

In fact, the religion which Zoroaster taught was a unique ethical monotheism. As we mentioned that before Zoroaster, the Persians had worshiped a variety of ancient Iranian gods. Zoroaster replaced these cults by worship of Ahura Mazda. From the ancient religion, Zoroaster took the name of Mazda, which means "the wise" or the "full of light;" and to that name he prefixed the adjective Ahura, which means Lord, making the combined word, Ahura Mazda, the Wise Lord, the Creator-Governor of the Universe[1].

Ahura Mazda is, to Zoroaster, supreme, and therefore, He is one. "There can be but one greatest of the gods who made the others, with this earth and yon Heaven, who made man, and amenity for him[2]". But according to Mills, He is a moral God. His supremacy is limited by His own

character for He is not logically responsible for the existence of evil. In other words, there were at the beginning of the world two spirits, the good spirit Ohrmazd and the spirit of evil or Ahriman. "Between them the wise chose the good, not so the fools. And when their spirits met, they estalished in the beginning life and the absence of life that the end the evil should meet with the worst existence, but the just with the Best Mind[3]".

Thus, we can say that this kind of dualist system is spiritual or ethical, and not a metaphysical one; that is to say, it is a dualism of two rival spiritual and moral forces, good and evil, light or darkness, okrmazd and Ahriman; but the classic problem of spirit and matter does not essentially enter into the question at all[4]

However, Zoroaster himself sovled this problem by making the supreme Good God at last completely victorious, all evil being eliminated in the final restorations. This is what Zoroaster meant by Supreme God. "He was one in adoration as well as in definition, supreme because His 'goodness' makes Him great, His unity being that of His truth, Benevolence, Authority, and sacred Energy[5]".

Also, Zoroaster taught that by the will of the one Supreme Lord, Mazda, all things come into being. "Who is by generation the Father of Right at the first ? Who determined the path of Sun and stars ? Who is it by whom the moon waxes and wanes again ? Who upheld the earth beneath and the firmament from falling ? Who made the water and the plants ? Who yoked swiftness to winds and clouds ? .. What artist made light and darkness, sleep and waking ? Who made morning, noon and night, that call the understanding man to his duty ? ... I strive to recognize by these things thee, O Mazda, crator of all things through the holy spirit[6]. In fact we will find the same conception of God in the religions of the Near East.

Zoroaster had spoken of the Attributes of God in a half personal way[7]. Mazda has about him six angelic beings who can be regarded as his various aspects and functions. These are "Vohu Manah, Good Mind; Asha Vahista, Righteousness or Truth; Khshatra Vairy, the Realm of Divine will; Spenta Armaita, Humility or Piety; Haurvatat, perfection; Ameretat, Immortality. Also, Ahura Mazda was supported by Mithra, light, and other gods, but he is only one of very many[8] Ahura Mazda also has holy names; Hedefined Himself in twenty different names, such as,

"I am"; strong "one", "perfect Holiness;" "Understanding;" "Knowledge;" "Most Beneficent;" "All-Seeing;[9]" and so on.

It may be said that judaism can be defined as the discovery of one God, who act in nature and the social and historical process. But as a matter of fact, "the early Hebrews were similar in every respect to their neighbors. They believed in the same supernatural beings, in holy trees, holy wells, holy stones, and other fetishes[10]. Also, the Old Testament contains references to gods other than Yahweh, or jahveh[11]. But in fact, all these do not upset the familiar claim that the basic contribution of judaism to the religious thought of ancient Near East was monotheism. Although the text shows that there are other gods than Yahweh, yet the texts show that these other gods differed from Yahweh in two respects : First they owed their origin to him. Second, unlike Yahweh, they were mortal. These differences are sufficient to place Yahweh in a category that differs in kind from that of other gods[12].

Thus, Yahweh or 'Elyon, or Shaddai,' Adon, Ba 'al, Melek,'. Elohim, came to be regarded not only as national god, but also as the one and only God of the Universe. Yahweh is a God of righteousness whose loving kindness is from everlasting to everlasting and whose tender mercies are over all his works[13]. In fact, this belief that yehweh's actions are guided by the will to bring righteousness, is very marked in jewish conception of God. As we shall explain later, Yahweh is the guide of history. The tradition speaks frequently of Him as the God of the Patriarchs, of the Exodus, and of Sinia: that is of the part; or in terms of His Kingdom to come, of the future, in sum, as the God of the cosmic and the human adventure[14]. It is clear here, that there is a nationalistic tendency of which could connect with Yahweh only the idea of the expectation of salvation for His chosen people[15]. .

Besides from this spiritual conception of God, we can also say that the anthropomorphism is very clear in the Old Testament. The early jews imagined the ultimate reality as a person "walking in the Garden of Eden... He comes to Abraham in the shape of man and speaks to him ... we also hear of a direct meeting between God and Moses. God is represented as having eyes, ears, hands, feets. Also the fact that man was created in God's image presupposes that to some extent, God is thought of as being human in shape[16].

According to L.H. Mills, all theseideas which we can find in the Old Testament about Yahweh, such as : He is surrounded by spirits, angels and among them there is also the spirit of levil, He is one; He is transcendant, He is a jeulous God; He is a Holy, He is a living and an eternal Being; He is the Creator, and He is the Saviour, are the same attributes of Ahura Mazda. Furthermore, he claimed that Yahweh Elohim is another name for Ahura Mazda.

It has been said that Christian faith is faith in Christ; "it is faith in God as known in Christ"[18]. In the words of St. paul "God was known to him the Father of our Lord jesus Christ... God was in Christ reconciling the world unto himself... God commendeth his love towards us, while we were yet sinners, Christ died for us"[19]. Also the conception of God, has a relation with the Christian idea of love, of the Cross, and Christ. "The glory of God had been seen in the face of jesus Christ. God is a jesus was. The holy love of the Cross is the holy love of God"[20]. In St. John's writings, we find the same conception of God. "No man has seen God at any time. Yet God may now be known. The only-begotten Son, has shown us what He is, we know God's glory in the glory of the Son... because of the same, we can be sure that God is love"[21]. Briefly, the writers of the New Testament Believed that in Christ they knew God to be a God of love and Grace; it was through the Son that they knew the Father. Christ is the image, the portrait of the invisible God. To see Him is to see the Father"[22]

In fact, we can say, we can not find in Christianity a conception of God, but what we can find is a faith, in other words, God in Christianity is not only a person who has given to men commands, but the conception of God is the faith that He has revealed Himself in jesus Christ, and in Him we may know the character of God.

However, during the first three centuries, Christian thought was influenced by philosophy of Philo. According to him, God made the world as an expression of his goodness to His creation, but between God and the world, the uniting links are a group of divine powers. The highest of these divine power is the "logos"[23]. To him, the "logos" was the divine mediator of creation and revelation. Philo considered the "logos" in his relation to God's first of all Wisdom[24]. God through the logos created the ideal man of whom actual man is a poor copy"[25]. The "logos" stands

between God and man partaking of both natures. Finally, the "logos", according to Philo, "is the Mediator, the Heavenly Man who represents in The eyes the eyes of God the whole family upon earth"[26].

As a matter of fact, the Philos "logos" has direct influence upon the church, especially upon St Paul and St John. According to St. john, before Christ was born, "there was a preexistent Christ; an ideal Christ, an idea of Christ"[27]. This idea of pre-existence of Christ is called by St. Paul, Wisdom or Spirit, or sometimes described in the biography of jesus by the term logos or Word. The idea is very clear in the opening verse in the Gospel of St. John. "In the beginning was the Word, and the Word was with God, and the Word was God"[28]. Thus, like the "logos" of philo, which became immanent in the created world, the "logos" of john became incarnatd in the birth of christ[29].

However, what is important to us here is the doctrine of Trinity. God as the ultimate divine reality exists or can be conceived in three persons : Father, Son and Holy Spirit. In other words, the Christian conception of God is : "One God, the Father-God, the Son-God, the Holy Spirit God"[30]. God the Father is the supreme Being in the universe, the just judge and the gracious Father of man. God the Son is the redeeming Christ in whom the divine love for man becomes incarnated. God the Holy Spirit is Christ as continuing to live in the heart of each Christian and also within the followship ofthe church.

Mills declares that we can find a similariry between the Christian Trinity and the Trinity of Zoroastrianism[31]. According to Guillemin, Ahura Mazda is "the Father"... "the holy spirit proceeds from the Father as a Son. If the Father and this Son are regarded as one, then a trinity emerges, composed of the wise lord, justice, and God Thought"[32].

Islam, like the monothelstic religions, stresses on the conception of one God the creator, of resurection and judgement, and revelation. Although Islam accepted many ideas about the conception of God from Judaism and Christianity, but as we shall see, Islam differed with them in many aspects.

There is no doubt that the cornerstone of Islamic belief is "La Illah illa Allah". There is no god but Allah. Allah here means "the God" not a God", for according to Islam, there is only one, The God. In fact, oneness

is the key-note to the conception of the divine Being in Islam. It denies the plurality of Godhead and participation of any being in the affairs of the world. According to Islam, unless a man believes in the oneness of Allah, he cannot be a Muslim. This doctrine of Divine unity is a standing protest against polytheism, dualism atheism and idolatry and it generally means that God is one in His person (Zât), one in His attributes (Sifât) and one in his works (af âl)[33]

Also, God in Islam is one and utterly transcedant, he is never been a Father, and no one can be his son. "The jews call 'U Zair a son of God, and the Christians call Christ the Son of God. That is a saying from their mouth... Yet they were commanded to worship but one God; there is no god but He"[34]. Against Christianity, Islam rejected the doctrine of Trinity. "They do blaspheme who say God is Christ, the Son of Mary... "They do blaspheme who say God is one of three in Trinity : for there is no god except One God[35]". Also against jewish and Christian's anthropomorphism Islam emphasizes that "Say : He is God, The One Only; God the eternal, absolute; He begotten not, nor is He begotten, and there is none like unto Him"[36].

Islam also emphasizes on the universal conception of God. According to Islam, all the people of the world are the creation of the Creator, who takes equal care of all and who has created them alike. He is the Rabb ul-'Alamin, "the lord of all nations", and the creator of all the words. He is the lord of all, the lord of the heavens and the earth, the lord of the east and the west and the lord of the Muslims and non Muslims[37].

God in Islam possesses the attributes and acts of "High God". He is the all mighty, judge of the universe and master of the Day of judgment. He knows, sees, and hears everything, visible and invisible. He is the creator of heaven and earth. The world and all that is in it came into existence when he uttered his creative word «Be». In relation to both nature and men, He is almighty will, the Lord and controller of all that happens. There is no natural law except so far as God has imposed orderly ways upon the phenomena in the world[38].

The most important elements in Islam's conception of God is that "God is depicted not only as the sole God, but as the Sole Reality[39]". "The East and West is God's, therefore, whichever way you turn there is the face of

God[40]". Matter, time, space, all the laws of nature, the movement of the stars, the rise and fall of nations, in all these we can realize the unity of purpose and therefore the unity of the originator

According to Muslims, Allah has Ninety-Nine Beautiful or excellent name; more than seventy of these are found in the Qur'an, and the rest are derived from the passages in it. These names testyfy God's power, knowledge, justice, and mercy

But, according to Sufis, God is the only Reality. He is not the high God, but they looked to Him as the God of love, and they hoped of Union with Him; and for that we hear al Hallaj after he reached unity with the Reality declares : "I am He whom I love, and Whom I love is I . We are two spirits dwelling in one body"[41]. Also Jala al - Din al - Rumi writes ?.

"Ye who in search of God, of God, Pursue,
Ye need not search, for God is you, is you"[42].

Or again :

"In the world of Divine Unity is no room for Number,
But number necessarily exists in the world of Five and Four;
You may count a hundred thousand sweet apples in your hands;
If you wish to make one, crush them all together"[43]

4. Revelation and History

As we mentioned that God in these four religions is conceived as personal and active. He created the world and he will destroy it one day. However, according to judaism, and christianity, history is a creation of God. God had manifested himself to humanity either in historical events as in judaism, or in human shape, namely, jesus Christ. On the other hand, Zoroaster and Mohammad are in no sense regarded as manifestations of God. God in Zoroastrians and Islam, had revealed his will and his divine words in shape of Divine books. However, let us see how each of these religion understands the conception of revelation and history.

In the Gathas Zoroaster is depicted as the prophet of Ahura mazda, the supreme God, and as such he summoned men to obey "the truth and to shun the lie."[1] Zoroaster spoke of himself as sthe friend and prasier of

mazdah[2], and claimed to be a deliver in the sense that he and those who obeyed his teachings were hasteners of that time when Gods will would triumph and His kingdom come[3].

According to Zoroastriansm, God had revealed himself to Zoroaster and commissioned him to be his prophet[4]. The Gathas again and again set forth his claim that he had been called to his prophetic mission by Ahura mazda himself, and that religion he taught was the final and perfect religion[5]. In fact, Zoroaster wished to be the messenger of God to all mankind.

As we mentioned, Ahura Mazda was conceived as the Lord of creation and universe; He was the Worker, through whom everything comes into life and exist. It is He who decides victory between the rival hosts of good and evil. Everything comes from Him and through Him, the Lord of all[6]. Moreover, He is the one who will be the final judge and redeemer of history[7].

In fact, the meaning of history in Zoroastrianism lies in the history of the conflict between the forces of good and the forces of evil. Therefore, the Gathas refers to "a period when the present cycle of the world will be completed, the process of creation will cease, and the evolution of the universe will have reached its destined goal[8]". In other words, the history will come to its final goal as contemplated and ordained by Ahura Mazda at the dawn of creation. As we will discuss later, Zoroastria nism claimed that in the end of history the last of the saviours will avise. "he will consummate the work of purifying and regenerating the world and completely removing every trace of the evil work of Angro Aainyu"[9]. Thus, what Zoroaster would like to say here is that, "in the endless chain of Boundless Time, human beings can contributed their share towards the establishment of the kingdom of Righteousness of earth"[10] That is to say, in the end of history, the final curtain will be drawn on the conflict between good and evil, and there, the ultimate triumph of good over evil will be secured, the kingdom of Righteousness will be established, and men will enter into the everlasting joy of Ahura Mazda[11].

As a matter of fact, one of the most characteristic elements of the Old Testament teaching concering God is the great stress laid on God's activityh in history. According to judaism, God who delivered the people at

a certain point in its history and adopted them as his own people. In a word, he is the God of the miracle, of history and of the covenant[12].

According to jewish faith, Israel derives its knowledge of God from His activityh in history on behalf of his people, particularly in Egypt and in desert. In fact this fact that God intervened in history was emphasized by the jewish prophets. As they reported in history by his activity for the good of His people, God has revealed Himself as the living Good who is near to His people[13]. Throughout the course of history, Yahweh intervenes at critical moments, "He follows his people, saving as well as judging them, and He controls their destiny. The whole life of the people passes under His eyes in times of disaster and prosperity; both are signs of His activity[14]".

Moreover, the jews had set their hopes on the doctrine of kingdom of God which will be the final acts of revelation of God in human history[15].

Thus, God according to judaism, is the God who reveals Himself in history or the ruler of history, nothing, therefore, happened by accident. His hand was at work in every event in Eden, the Flood, the Tower of Babel, the years in the wilderness- all these are signs of His activity in human history[16].

However, besides God's activity in history, in Judaism there is also direct relationship between God and men through prophecy. It is found throughout the history of Israel and it is the most characteristic element of the structure of judaism[17]. Here, God is not only the God of history, but "He is also the God who allows the man whom He has called to share in his activity by His Spirit of Word[18]".

Thus God's will according ot judaism is shown in his direct revelation to man through prophecy, and also by his works in history and nature. These two things go hand in hand.

Christianity, like judaism, believes that all human history, past, present, future, is under God's control. That is to say, God in Christianity is the God of History, and that history has meaning and purpose. Let us briefly explain how christianity explains this doctrine

According to Christianity, God is self revealing in his works, in his word, and in his son[19]. In other words, God reveals himself in nature, in history, and in jesus Christ. According to Christianity, all these revelation can be only understood by faith[20].

According to Christian thought, in the beginning was God, the original and ultimate power. God then created the world, and later man, at certain time. From that point on, evolution works according to inherent natural laws. After the gradual evolution of man, is the beginning of what is called human history[21]. So, according to Christianity, the world is "a time process because it is created according to the purpose of God[22]."

The period from the earliest first man to the birth of judaism, under Moses, is calld the "preparation of stage" of history[23]. This means that judaism was preparing the world for the Incarnation. To explain this we say, according to Christianity, God revealed His commandments through the jewish prophet in the forms of human thought and in terms of the actual conditions of history. According to Christianity, God through those jewish prophets seemed to be saying to men that He would reveal Himself"[24].

Thus, according to Christian thought, when jesus appeared, God incarnate appeared, in human history[25]. That is to say, God come into human history in the person of jesus Christ;" and God was in Christ reconciling the world to Himself[26]". Here God does not reveal a book containing the truth he wants men to believe, but he reveal Himself. According to the Christian thought, since God has always taught men's loving response, God demonsrated clearly His own love for men by giving Himself at least[27]". Thus, when jesus appeared, God Incarnate appeard in human history. Therefore, according to Christianity, the life and teachings and the cross and resurrection of jesus are the fulfillment of God's promise to judaism and mankind. Thus for Christianity, Christ is the center of history[28]. That is to say, Christ's life was no other than the life of God in man. At time and place in history, God did his full work of love and grace and performed his act of redemption[29]. All these explain to us why Christianity emphasized that Christ is the key to the understanding of history and its future and ultimate end.

The Christian view of history form the period of Christ until the end of history is that the process is a gradual realization of God's sovereignty, or

the fulfillment of the kingdom of God. That is to say, triumph of love and justice and good will not be complete until the end of history. The end of history thus means the fulfillment of God's purpose and the final establishment of His kingdom[30]. In fact, the Christian view that the end of history means the final battle between good and evil, is very closed to that of Zoroastianism. Both believe that in this final battle evil will be defeated and the triumph of good will be completed, and man will enter into the everlasting joy of God.

As we mentioned, God in Islam, like judaism and Christianity created the world and He is its ruler and He is the controller of all what happens. Accroding to Islam, Muhammad was the last in a line of prophets, and was the "seal of prophets," for in him God's revelation reached finality. Here revelation is not Incarnation nor a historical event through which God enters in relation with man. But it is a book. The Qur'an revealed to Muahmmad, is the final work of God to mankind. According to Islam, this book, the Qur'an, is identical with a word of God which is written on "a heavenly scroll," the Qur'an is identical exactly with the heavenly original. Here Islam differs from judaism and Christianity in emphasizing the divine original of the Qur'an.

According to Islamic view, Islam is the religon of God. In fact this statement reflects to us the Islamic conception of history. As God organized the world in the beginning he did also with man. For man there are laws which he ought to follow. According to Islam when God created man, ordained how men ought to behave both individually and in community. But man was given the faculty of choosing to conform or not to conform[31]. Those who accept these divine commands will find their reward in hereafter, while for those who reject it, there is punishment for them.

However, God according to Islam, has not left mankind without guidance on this matter how mankind should live and follow the commands of God. According to Islam thought, Adam was the first man and the first prophet. That is, God set men in the universe and at once revealed to him how he should live. This means, "human history opens with man knowing what he ought to do"[32]. But Adam proved disobedient and his successors neglected, or forgot the message. But God, as act of justice, sent down the message again. There was thus another revelation to humanity of what the eternal demands are. But this story repeated itself.

And God through Abraham, Moses and jesus sent his revelation so that humanity might be reminded of the divine commands[33]. But this story repeated itself again and again.

Once and for all, a final revelation was sent down; a messenger was chosen who deliver it to all mankind. It is Islam and the messenger was Muhammed. In this way, then Islam which had existed form all eternity came down into history in the sevent century A.D. and began its final, full career among men[34]. As a fact, the main aim of Islam is to create a society or Ummah where justice and unization are its base. Therefore, Muslims through all the ages marched forward to historical achievement[35].

However, the conception of history in Islam can be summarized as follows :

1. Unlike judaism and Chrisrianity, Islam treats the entire history of mankind as one whole[36].
2. According to Islam, the historical process takes account only of the practical conduct of affairs in human society. In other words, history is man's made.
3. According to Islam, God does not destroy any social group unjustly, while they are in a state of unawareness nor does He destroy any community while its moral conduct remain on an adequately satisfactory level[37]. The conclusion which follows that "the course of history itself is a moral agency through which the morally superior elements rise to the top, while those who are morally inferior sink to the bottom. The historical process is, therefore, selective in the moral sense of the world[38]."

C. MAN

As for their attitude towards men, generally speaking, we can say that all of these religions agree that man has been created by God and man is fundamentally different from his Creator. Man is formed by a union of two natures : the flesh, which he shares with all the animals, and the spirit which renders him a vicegerent of God. At death the soul, or the spirit, leaves the body. But in hereafter body and soul reunited to receive the judgement of God. The high place given to man by God in His world order. Man is the highest presence in the universe. On the other hand, all of these religions accepted the story of the "Adam's Fall, and his disobe-

dience to God". The punishment was the existence of man in this earth. But man is not alone in the earth. with him there are the forces of evil and Devil. Therefore, all these religoins emphasized that man ought to take sides with good against evil. All these religons did not attributed evil to God directly, but they attributed evil to the Devil. This Devil is one of God's creatures, but he was a rebellious one. Let us now discuss how does each religon differ from other seligions in their conception of man.

According to Zoroastrianism, the main problem of life is the problem of evil. On its solution begins the destiny of mankind[1]. The physical world which men inhabits, is full of evil; therefore, man's life is steeped in sorrow and suffering. Hence Zoroaster called upon his followers to accept the challenge of the principle of evil and to enherit themselves as comrades in arm with the good God. If man does his duty, good, according to Zoroaster, will prevail at last.

As for the origin of evil in this world. Zoroaster taught that there was rebellion against that true God whose will he proclaimed. The late pahlavi texts tells how the first couple were led astray, as the story of Adam and Eve, by evil thoughts and began to worship the evil god rather than Ahura Mazdah[2]. However, the Zoroastrianism furnished a salvation of the existence of evil in this world by positiag two primeval powers at war with each other. One of these principles is called prince of Darkness, Angra Mainyu, or the Druj, the evil spirit, and Ahura Mazda, the Beneficent spirit as the prince of Light Everything that exists are dualistically split and assigned either to Ahura Mazda or Angra Mainyu[3].

Man's salvation is to be found in obediance to the will of Ahura Mazda'i as it was revealed and taught by his prophet, Zoroaster. Man has to share in the struggle between good and evil, right and wrong, light and darkness, to affirm and improve the world. not to deny and escape it[4]. Here we can notice that this kind of evil is positive one. In other words, Zoroaster, "striks the heart of his followers to positive hatred of evil, spurs them to join the crusade against the spirit of evil, and exhorts them not to evade the fight, or turn their back on the arch enemy[5].

Finally, man according to Zoroaster is born pure, not as is taught in Christianity, defiled with original sin. 6 In fact Zoroaster emphasized the fact that we must work out our own salvation. Accordingly man is

responsible for the ultimate outcome of his struggle against evil and for the triumph of the good. In a word, according to this religion, man has freedom of choice, and he can choose between good and evil, and he is the master of his fate.

It has been said that the influence of Zoroastrian doctrines of man's Lab dualism and the conception of evil, on jewish, Christian, and Muslim literatures were very considerable[7]. As L. Mills appointed out, there is very close relation between the jewish satan in those exilic prechristian and christian times and to persian satan, namely Angra Mainyu[8]. In fact, the transformation of Satan and the rebel angels into figures not very different from those of Ahriman and his demonic host in the judaic-Christian literature had appeared after the Iranian contacts[9].

Also we find another influence in the Dea Sea Scrolls, where God is said to have "created man to have dominion over the world and made for him two spirit, that he might walk with them until the appointed of his visitation, they are the spirit of truth and error"[10]. Sources of light is the origin of truth, and the sources of darkness is the origin of error. Moreover, in the hand of the price of light, is dominion over all sons of righteousness in the way of light they walk. And in the hand of the angel of darkness is all dominion over the sons of error; and in the way of darkness they walk. And the angel of darkness is the stirring us all the sons of right-cousness. ... but the God of Israel and his angel of truth have helped all the sons of light"[11].

This dualism of spirit at flesh, light and darkness is clear in Fourth Gospel and in the First Epistle of St. John in the New Testament. However, at the end of the first century, A.D., the evil world was set against the world of light, and they became two opposed realms. This was clear in Gnostic view, which claimed that the world is controlled by the good, light, and evil, darkness, deities, respectively. And as we mentioned, Gonsticism was of Iranian origin[12]. Let us now see how the three other religions look to men and what are the new attitudes that they produced to the doctrine of Man.

Man, according to judaism, was originally created "in the image of God". This phrase denoted man in his peculiar relationship to God, in his

vacation to be God's viceregent on earth, but most of all "to reflect in his nature the nature of God, just as the child is the image of the father[13]".

However, although man is God's creation and therefore essentially good, he is endowed with two principles or tendencies; a good impulse and an evil impulse. Each struggle to control man's desires and choices. In this sense, as in Zoroastrianism, man participates in the cosmix struggle between God and Satan[14]. According to judaism, God's creation has gone astray because of Satan's rebellion and disobedience of men. Man, according to judaism has to obey Yahweh and also has freedon to choose. He can choose to serve Yahweh, or to disobey.

According to jewish faith, Yahweh made a covenant with his people. Israel, and as creator and lord of history, he controls all that happens Therefore, the jews explain such evils as defeat in battle, famine, disease, as a result of the failure to fulfill Yahweh's will.

Salvation of both individual and society, can be achieved according to judaism by strict obedience to the Torah. Both individual and nature have to please Yahweh by fulfilling his covenant. therefore jewish prophets and priests, called for a return to Yehweh and his righteousness. All jewish troubles were attributed to failure to follow the Torah. Briefly, salvation, according to jews, had an historical dimension They believed that just as the Fall occurred in the earliest period, so redemption would occur at the end of history[15].

According to Christianity, Man (Adam and Eve) disobeyed God's command and thereby committed original sin. In fact this doctrine of original sin is considered to be the cornerstone of the Christian attitude towards man and his salvation. In Christian attitude towards man and his salvation. In Christianity, to believe that man can save himself seems to contradict the whole of human history and experience. Man, according to Christianity, cannot save himself; man is need of help of redemption from the various forces such as Devil, Sin and death, which would enslave and destroy him. That is to say, unless man receives supernatural help, those forces of evil will engulf him[16].

Man's salvation is only to be found in faith in Christ, that is, in acceptance of Jesus resurrection form the dead as proof that God has power over

the forces of sin and death. For the Christian, the meaning of life has been revealed in jesus Christ. "We shall be like him for we shall see him as he is"[17]. The Christian should live a life of obedience out of gratitude to God and also as proof of the fact of his faith. This life of obedience is possible with the help of the Holy Spirit, the true guide for Christia Living. Man according to Islam, is the vicegerent of God on the earth. Man's purpose in life is to realize the will of God in this world. According to the Qur'an, man accepted to carry the Trust, which the heavens and the earth refused to carry its responsibility and they were afraid to carry it. This Trust is the divine gift of Choice.

According to Islam, Adam's disobedience was forgiven, and therefore, man does not bear the fall of Adam. In spite of Adam's fall, if man follows the guidance, he is free from any fear from the present or the future. In Islam, the relationship between God and man is without any mediation. There are no mediators or priests between man and God. God is very close to man.

The responsibility of man is very clear in Islam; that is to say, all evils and sorrows are created by man's hands. Then, man must bear personal responsibility for his own dees and not throw the blame on the others. On the other hand, besides men's responsibility, Islam emphasized God's justice. This means that there is no injustice that can be done to anyone either in this world or in the day of judgment.

As we mentioned that Islam means submission to God's will, therefore, man's salvation is to be found in complete submission of God's will. Man has to follow the laws of God which are also the laws of his own pure nature as made by God.

D. COSMOLOGY

In Zoroastrianism, the universe is the creation of Ahura Mazda, the creator, "but it has not come from nothing"[1]. The stars, the sun, the moon, the sea, all things high and low are created by Ahura Mazda and they function in consonance with His own laws, but the growing act of His creation is man[2]. The aim of the creation is the bliss and welfare of man; it was the desire of Ahura Mazda that His might, wisdom, and goodness should be utilized in promoting the happiness and enjoyment of mankind in this world"[3].

According to the later Avesta, at first the sky was created with all the celestial bodies, then water, the earth, the vegetable kingdom and the animal kingdom, and finally man[4]. The whole creation is bound by the law of production and destruction. "Ahura Mazda's might has two poles, one of which, the Spenta Mainyu, prospers and maintains everything, whereas the other, the Ahra Mainyu, is the destructive force"[5].

Also in Avesta, we can find many cosmological ideas, which we find in the later religions of the Near East, such as the Seven skies and earth; the order of creation, the seven immortals, angels or attributes, the water as the origin of every existant, and the cult of fire[6].

Also we find in Zoroastrianism, the destinction between the two worlds, before the creation of the material world. "In the beginning Ohrmazd was on high and dwelt in the Endless light, he was characterized by omniscience and wisdom... Ahriman was in the depths and dwelt in the Endless Darkness, he was slow in knowledge and his will was to do harm. Between the kingdom of light and darkness was the void which some call Vay"[7]. This briefly would seem to be a Mazdean view of the universe before Ahriman's attack on the kingdom of light and the creation consequent on it. This is the Zoroaster's view about cosmology; and it is clear that it reflects their metaphysic of morals

Generally speaking, in semitic cosmolgy, we find that God alone created the heavens and the earth, and he gives breath to the people. He controls human history, forms the light, and created darkness; makes peace, and created evil. Heaven was His throne and the earth his footstool, for He transcended the whole creation. "He had stretched out the sky as a curtain, spreading it as a tent. .. and He made the clouds his chariot and the winds his messengers who laid the foundations of the earth"[8]. From Water God created everything; and the process of creation occupied six days of creative activity and followed by the rest of the creator on the seventh day. Many scholars mentioned that the creation story in semitic religions derived form Assyro-Babylonian and Zoroastrianism cultures.[9]. However, these Semitic religions speak of two worlds, this world and the world to come; here I will discuss their conceptions of this world and in the next point I will deal with their conceptions of Hereafter and 'last things'

The jewish cosmology starts with the first words of the Old Testament, "In the beginning God created the heaven and earth...; what is important

here is that God said, "Let there be..." this creative order does not in itself contain nor does it struggle against dark, or evil force; but creation here is described as good[10]. Here we can notice that judaism against Zoroastrianism, who claimed that the world divide into mutually hostile principles, light and darkness, good and evil; but judaism proclaimed God as the creator of both. God by his own unconditional choice brought it into existence. Also judaism against Zoroastrianism, mentioned that there was no pre-existent matter that God used to fashion the world; in other words, God reated the world out of nothing or "ex nebilo"[11] In judaism, time was created with the celestial world, and timelessness remained an attributed of the uncreated God[12]. Naturally, the ideas of creation out of nothing and creation of time, support and confirm jewish monotheism.

In judaism, the world is good, since goodness is its creator and its final aim. The story of creation expresses the perfect harmony between Gods purpose and His work in the world, God himself spoke at the end of each day's creation "And behold, it was good[13]. This idea gives the impression that this world is good, there is no figthing between good and evil but nature or the world by original is good. Also, the theological idea of the Sabbath derived from the story of creation.

In fact, in judaism, we can notice that the activity of God in nature and the activity in history are parts of a single process; therefore, miracle by the old testament regarded as a "sign or proof" of the power of God, to whom nothing is impossible[14]. Accroding to judaism, God made a special covenant with the work of creation that "at the appointed time, the Dead Sea should divide before Israel; the sun and moon should stand still at the bidding of joshua; that fire should not consume the three youths, Hanael, Mishael, and Azariah; that the sea monster should spit forth john alive, and so on"[15].

There is no doubt that the Persian influence gave jewish angelology and demonology a different character. After the exile, became the belief that the demons were organized, they had a leader; this leader was Stan or ('Shaitin"[16]. In judaism also different orders of angels arose, the number seven was adopted from the persians and therefore, in judaism, we have seven head angels[17].

In general the angels carry out good or evil designs according to their commands from the Lord of Hosts. What is important here is that, the belief in angels served two functions in the development of monotheism. First of all, "it was a stage in the concentration of the divine forces, beginning with polytheism, continuing through belief in angels, and culminating in the one and only God of heaven and earth"[18]. Also, in the vision of God, certain elements had to be removed in the spiritualization of God, and it was found easier to transform these into separate beings, related to Deity Himself. "Thus, the fiery appearance of God to the eye or the voice which was manifested to the ear were often personified as angels of God"[19].

In addition to the angels, who carried out Gods will in the universe, in judaism, there are other divine powers which mediate between God and the world of man and have coming power such as "the glory" of "the Name"; "the divine World," which will be the logos in Christianity; "Wisdom," "Spirit of God" or the Holy Spirit..."[20].

Christianity, like judaism, accepted that God creats the world, all things visible and invisible. Also Christianity believed that creation means the free and unconditioned act of God; in other words the creation act of God is not conditioned by anything other to Himself. Like judaism, Christianity emphasized on the doctrine that the world was created by God, ex nihilo or "out of nothing." The world, according to Christianity could not exist of itself; its existence depends upon the eternal creative act of God[21].

According to Christianity, God could not directly produce a world so unlike himself; hence, there must be an intermediate step in the process from the absolute unity and created universe. Under the influence of philo's doctrine of "logos", most of Christian thinkers believed that this intermediate step is the "logos," who appeared in Christ, who is the Word or Son of God, He is the Truth and life of all things which are exist[22]. This idea of the production of the world, of another being who is not God, is attained through the idea of the prosuction of another being who is like God[23]. Thus, Christ is a divine being and God's agent in the original creation of the world, so that God might not be conceived of as indirect contact with matter. Also in Christianity, we can find some thinkers who accepted the idea of meanation to explain the existence of the world. According to Platinus, "the world represents an outgoing from the One. Some inner

rebellion or disturbance within the one caused a 'fall' or an emanation from that complete and otherwise perfect one. This fall or emanation continued to lower and lower levels until it encountered the dark element of matter and the visible world came into being"[24]. Also, Gnosticism, under the influence of Zoroastrianism, accepted this separation between Matter and Spirit, and it considered the world of matter is evil, its creator and ruler is not the good God, but inferior and imperfect being[25].

In Islam, Allah created the world in six days. The world and all that is in it came into existence when God uttered his creative word "Be". Also in Islam, Allah created the world out of nothing. The nature; sun, moon, earth, sky, rain, clouds, and its laws under God's control.

Also in Islam there are other types of divine powers, the "word" (amr) from which derives the spirit (ruh) or "holy spirit" (ruh al qudus)[26]

According to Islam, faith in angels is one of the principles of Islam. In Islam, God is surrounded by angels, pure, sexless being, some of whom bear the throne while other engaged in praising his holy or beautiful names. Angels also serve as His messengers who are sent of fight with the believers against the heathen[27]. Angels, according to Islam, can take any form; they surround men from all sides and are always in their company. They keep record of every action of man in this world and they will produce it on the day of judgment. Of these, the chief is Gabriel, the agent of revelation, who communicated the Divine message to the prophet.

Midway between angels and men are jinn (genii). Some of them have submitted to Allah and become believers; but many of them have rebelled against him, like their chief, Iblis, who is also called (shaitin); who and his assistants are busy tempting men to go astray[28].

E. ESCHATOLOGY

We can say that for first time in human thought, the conception of "last things" or the end of the world came into being in Zoroastrianism. According to Zoroasters teachings, a general resurrection will take place at the end of the present world. This will happen when Ahura Mazda will triumphantly overthrow all evil and set up right-eousness on earth[1]. Also, we can mention here to the Iranian theory of the world ages. According to them, "the world-ages is divided into four periods; each of these periods is

a period of 3000 years. Towards the beginning of the final 3000, Zoroaster was born. Towards the beginning of the second millennium of this period, evils increase, there are signs in heaven and earth and now Hûshêtar is born; and he brings back the creatures to their proper state. Towards the beginning of the final millennium, Hûshêtar-màn is born. In this time, creatures become more rogressive and men do not die. But now evil again increase..., and at the close of the period Soshyant, the persian Messiah who makes the evil spirit impotent and causes the resurrection and future existence, is born. Now begins the new order of things... Ahriman and his hosts are defeated by Ahura and his angels, and perish in the conflagration... The earth is renewed and made immortal and extends to heaven...."[2].

In fact, we can say this passage reflects two things : first of all, here the idea of "the end of the world" has an ethical meaning. "The end of the world is connected with struggle between good and evil and how evil in the end will be conquered by the spirit of goodness. Also we can notice how this conception has a great influence upon judaeo-Christian eschatology, especially in their doctrine of "the Messiah" and "the future life". According to jewish eschatology, the doctrine of the end of the world has an ethical and political conception. According to them, the end of the world is related to the "Day of jahweh," and on that day jahweh will punish and destroy the enemies of Israel, who now take the place of the hostile evil power. Also Israel must also be judged and suffer on the Day of jahweh, a day of darkness, sorrow, and fear because she has neglected the ethical side of His religion[3].

The jewish eschatology emphasized the belief in the coming of the Messiah, who also like God, will destroy the enemies of Israel, and its spiritual foes[4]. Then after the final judgment, the earthly kingdom will come to an end; and the world will be annihilated, and heaven will give place to a new heaven. After this renewal, the world will become everlasting, incorruptible, and invisible[5].

From Zoroastrianism and judaism, the doctrine of the end of the world passed over to Christianity. According to them, "Christ will return on the clouds of heaven as the promised Son of Man who will be the judge of the Last Day"[6]. Also they believed that, his mission on earth had been to prepare the way for his second coming and when he will come the new

kingdom will start. According to Christian eschatology, at the last judgment earth and heaven flee away, or they will pass away along with the sea, and give place to a new heaven and earth, after the judgment. Like Zoroastrianism, most of the Christian thinkers believed that the destruction of the world will be by fire[7].

As a matter of fact we find the same doctrine of the annihilation of the world in Islamic thought. In the Qur'aN God will destroy or annihilate the world before the Day of judgment. Also we find in Shi'ism that the Mahdi will appear before the Day of Judgment.

As for the doctorine of the Day of Judgment, we mentioned that Zoroaster taught that men must work out for his elevation and he has the freedome to choose between good and evil. Therefore, man will receive reard or punishment after death according to his deeds in this earthy life[8]. In fact, Zoroaster emphasized the hope for a better world; for to him God is just and He will not allow wickedness to triumph over goodness[9].

However, at the end of this world, when good gained victory over the forces of evil, all men would be resurrected to receive their reward or punishment. Besides this general judgement, we find also in Zoroastrism the doctorine of individual judgment. Briefly, individual judgment follows shortly after death of the body. Each soul, good or bad, must face judgment at the Chivat Bridge which crosses the Ahura Mazda's paradise[10]. At this bridge the record of the record of the soul is read. "The balance of merits and demerits is cast. If good deeds predominate over evil, the pointing of the hand will be towards paradise; but if evil overbalance good, the hand will point to the abyss below the bridge"[11]. As we mentioned that this bridge extended over hell and led to paradise. For the soul of the righteous it widened, but for the wicket it narrowed to the breath of a thread and they fell into hell[12].

As L. Mills mentioned, these ideas of the day of judgement, the immortality and resurrection, reward and punishment and the Chinvat Bridge and paradise and hell, had left great influence on the judaeo-Christian eschatology and Islam[13]. Many scholars have pointed out that the doctrine of resurrection of the body, and the hope for rewards in a future life were derived from persian influence. After the exile, She'al, the shadowy land of the bead, was replaced by heaven and a hell[14]. Also we find after exile,

some jews began to speak of a resurrection form the bead at the last day and of a last judgment, a final reward of the good and condemnation of the evil[15].

According to jewish eschatology there are certain signs "the sings of the end," the day of judgment. At last moment, with the sounding of "last trump," the Messiah would appear in the clouds, with all the heavenly angles round him; and he will be "the Righteous judge"[16]. At his appearance "the righteous on earth would be caught up to him in the air, and the dead would rise from their graves"[17]. Before the Messiah's seat all men would be judged. The bad would be sent away into everlasting hellfire, and good would enter a state of blessedness with their Lord and King[18].

As a matter of fact, jewish and Christian eschatologies are based upon the doctrine of the coming of Messiah. Although the Gospels speak about the father as judge, who will reward the righteous men and punish the sinners, yet Christ is considered as the judge, who will exercise this function on all men[19]. Jases also will return again as Son of Man, when the dead will be resurrected. At this time he is to judge the world and establish the Kingdom of God by bringing God's rule to earth[20]. Briefly, most of the doctrine of resurrection, the future life, heaven and hell, and immortality were inherited from jewish eschatology, which in turn influenced by Zoroastrianism.

In the Qur'anic conception of the day of judgment, we find that the coming of the day of judgment, (Youm al din) is a prove of the existence of God and his justice, on one hand, and man's responisbility on the other. Therefore, the future life, in Islam, is not a new life but only a continuation of this earthly one. During this day, the books in which each man's deeds have been recorded will be read, and eternal judgment will be passed accordingly[21].

If we examine the Islamic culture, we find many ideas about the day of judgment were derived from the persian, jewish and Christian eschatology. After death all persons are visited in the grave by two angels, who examine them as to their faith. Accordingly, with the answer there will be special peace or punishment in the grave. In fact this idea is very closed to the individual judgment in Persian eschatology. Also in Islam culture and myths

there will be many wonderful signs that precede the last day. The Mahdi will establish a reign of righteousness, and "addajjal," or antichrist, will appear and be slain by jesus, who will become a Muslim. It is clear that most of these ideas came after the cultural contact between Muslims and other religions.

4. CONCLUSION

The most obvious question that suggests itself at the end of this survey is : What have we gotten out of it ? Can we go with Arnold Toynbee in claiming that there are common ground that exists between the great religions of the World ? This common ground according to Toynbee is human nature, namely "the Original Sin in human nature"[22]. Or can we accept the view that all religions are one ?.

In fact, these views can not explain to us either the nature of religion nor the existence of those similarities and contrasts in the religion of the Near East. As a matter of fact there are some common functions between all religions. All religions display a unity of function in the service they perform in the lives of individuals and societies. All religions are trying to give answers for one's quest for the Divine and His relation to him. All religions are trying to teach man how to live better, and all religion are trying to give man a hope for living another life.

There are no doubt that there are great similarities between these religions of the Near East. But this similarity can be explained by saying it was the result of historical and cultural contacts. Similarity between religions does not mean the forgetting of differences. These religions like differing languages through which man has been seeking to express his faith in the Divine and his hope in future life. Each religion expresses in its own symbolic language and actions, this common quest for the Divine and this hope for future life. Each religion possesses not only characteristic symbols, belief, and practice of its own, but each has its own distinctive religious insight, and each has its own interpretation of religious values.

NOTES AND BIBLIOGRAPHY

2 The Religions and Cultural Contacts

1. Mills, L., **Our Own Religion in Ancient Persia**, U.S.A. Open Court Publishing Company, 1913, p. 30.
2. Jacques Duchesne-Guillemin, **Symbols and Values in Zoroastrianism, their Survival and Renewal**, N.Y. Harper and Row Publishing, 1966, p. 9.
3. Masson, R., **Zoroastrianism, the Religion of the Good Life**, U.S.A. the Macmillan Company, 1969, p. 8.
4. Schopes, H.J., **The Religions of Mankind**, trans. by Richard and Clara Winston, N.Y. Anchor Books, 1968, pp. 79-80.
5. Smart, N., **The Religious Experience of Mankind**, N.Y.: Charles Scribner's Son, 1969, p. 249.
6. Ibid.
7. Masson, R., op. cit., p. 18.
8. Ibid.
9. Ibid., pp. 18-19.
10. Ibid., p. 9.
11. Ibid.,
12. Mills, L.H., **Zarathushtra and the Greeks, Part I; Zarathushtra, Philo, The Achaemenids and Israel**, Chicago: The Open Court Publishing Co., 1960, pp. 136-208.
13. Berry, G.L., **Religions of the World**, N.Y., Booksellers Publishers 1956, p. 68.
14. Hilliard, F., **Man in Eastern Religions**, London: The Epworth Press, 1946, p. 75.
15. Noss, J.B., **Man's Religions**, N.Y.: The Macmillan Company, 1968, p. 555.
16. **Encyclopeedia of Religion and Ethics**, N.Y., 1917, Vol. I, p. 15.
17. See Berry, G.L., op. Cit.,
18. See: Walker, W., **A History of the Christian Church**, N.Y. 1959, p. 17.
19. More details about this claim see:
    a) Tarrey, C.C., **The Jewish Foundation of the Islam**, N.Y. Knox Publishing House, 1967;
    b) Jacques, J., **The Dible and the Kor'ân**, tr. by E.P. Arbez, U.S.A., 1967.

e) Schoeps, H.J., op. cit., p. 243.

20. Schoeps, H.J., op. cit., p. 243.
21. O'Leary, D.L., **Arabic Thought and its Place in History**, London, 1922, p. 81.
22. Guttmann, J., **Philosophies of Judaism**, tr. by D.W. Silverman, N.Y. : Anchor Book, 1966, pp. 56-57.
23. **Ibid.**, pp. 57-58.
24. Jacques Duchesne-Guillemin, **op. cit.**, pp. 157-162.
25. Van Leeuwen, A.T., **Christianity in World History, the Meeting of the Faith of East and West**, tr. by H.H. Hoskins, N.Y. : Charles Scribner's Sons, 1964, p. 221.

3. The Similarities and Contrasts :

A. The Conception of God

1. Massani, R., **op. cit.**, p. 35.
2. Mills, L., **Our Own Religion in Ancient Persia**, pp. 4-5.
3. Zaehner, R.C., **Zurvan, A Zoroastrian Dilemma**, Oxford : The Clarendon Press, 1955, p. 4.
4. **Ibid.**
5. Mills, L., **Our Own Religions in Persia**, p. 5.
6. Quotation in Noss, J.B., **op. cit.**, p. 472.
7. Cave, S., **Christianity and Some Living Religions of the Near East**, London : Gerold Duckworth Com. 1949, p. 55.
8. Massani, R., **op. cit.**, pp. 38-39.
9. Schoeps, H., **op. cit.** p. 81.
10. Berry, G. L., **op. cit.**, p. 31.
11. Smith, H., **The Religions of Man**, N.Y. 1950, p. 257.
12. **Ibid.**
13. **Ibid.**, p. 259.
14. Steinberg, M., **Basic Judaism**, N.Y. 1947, p. 47.
15. Vriezen, T.C., **An Outline of Old Testament Theology**, Oxford, Charles, Branford, Com., 1958, p. 158.
16. **Ibid.**, pp. 171-172.
17. Mills, L., **Our Own Religion in Persia**, pp. 7, 36, 39, 40, 41, 45, 46, 49, 58, 63, 65.
18. White, H.V., **Truth and the Person in Christian Theology**, N.Y. : Oxford University Press, 1963, p. 145.
19. Cave, S., **op. cit.**, pp. 69-70.

20. Ibid., p. 70.
21. Ibid., p. 71.
22. Ibid.
23. Walker, W., A History of the Christian Church, N.Y. : 1959, p. 17.
24. Bigg, Charles, The Christian Platonists of Alexandria, Oxford : 1913, pp. 41-44.
25. Ibid.
26. Ibid.
27. Wolfson, H.A., Religious Philosophy Harvard University Press, 1961, p. 38-39.
28. Ibid.
29. Ibid.
30. Schoeps, H., op. cit., p. 292.
31. Mills, L., op. cit., pp. 11-12.
32. Noss, J.B., op. cit., p. 473.
33. Hanifi, M.A., A Survey of Muslim Institutions and Culture, Lahore : 1962, p. 101.
34. The Holy Qur'an (tr by A. Yusuf Ali) IX : 30-31.
35. Ibid., V : 75-76.
36. Ibid., cxii : 1-4
37. Hanifi, op. cit., p. 103.
38. Farah, C., Islam, N.Y. 1968, pp. 107-109.
39. Cave, S., op. cit., p. 62.
40. The Holy Qur'an, 11 : 109.
41. Noss, J.B., op. cit., 155.
42. Cave, S., op. cit., p. 63.
43. Noss, J.B., op. cit., p. 756.

B. Revelation and History

1. Cave, S., Christianity and Some Living Religions of the East, London, 1949, p. 94.
2. Ibid.
3. Ibid., p. 95.
4. Bradley, D., A Guide to the World's Religion, N.Y. : Englewood Cliffs, 1963, p. 41.
5. Ibid.
6. Massani, R., op. cit., p. 36.
7. Bradley, D., op. cit., p. 41.

8. Massani, R., op. cit., p. 76.
9. Ibid.
10. Ibid.
11. Ibid., p. 76-77.
12. Vriezen, T.C., op. cit., 129.
13. Ibid., p. 136.
14. Ibid.
15. Ibid., p. 351.
16. Smith, H., op. cit., 277.
17. Spurvier, W., op. cit., p. 137.
18. Ibid.
19. White, H.V., op. cit., p. 93.
20. Ibid.
21. Spurnier, op. cit., p. 166.
22. White, H.V., op. cit., p. 103.
23. Spurvier, op. cit., p. 166.
24. Ibid.
25. Ibid., p. 167.
26. White, H.V., op. cit., p. 93.
27. Spurvier, op. cit., 166.
28. Ibid., p. 167.
29. White, H.V., op. cit., p. 95.
30. Spurvier, op. cit., p. 167.
31. Smith, W.C., Islam in Modern History London : Ameritor Book, 1957, p. 19.
32. Ibid.,
33. Ibid., p. 20.
34. Ibid., p. 23.
35. Ibid., p. 42.
36. Siddligi, M., The Qur'anic Concept of History, Karachi, 1965, p. 57.
37. Ibid., p. 17.
38. Ibid., p. 7.

C. Man

1. Massani, op. cit., p. 8.
2. Bradley, D., op. cit., p. 42.
3. Schoeps, H., op. cit., pp. 83-86.
4. Bradley, op. cit., op. cit. p. 43.
5. Massani, op. cit., p. 9.

6. Guillemin, J., op. cit., p. 4.
7. James, E.O., op. cit., p. 281
8. Mills, L., op. cit., p. 60.
9. James, E.O., op. cit., p. 281
10. Quoted in James E.O., op. cit., p. 281.
11. Quoted in James E.O., op. cit., pp. 281-282
12. James, E.O., op. cit., p. 282.
13. Vriezen, op. cit., p. 208.
14. Bradley, D., op. cit., p. 35
15. Smart, N., op. cit., p. 289.
16. Bradley, D., op. cit., p. 54.
17. White, op. cit., p. 54.

D. Cosmology

1. Guillemin, J.D., op. cit., p. 3.
2. Massani, R., op. cit., pp. 40-41.
3. Ibid., p. 41.
4. Guillemin, J.D., op. cit., p. 3.
5. Ibid.
6. Massani, R., op. cit., pp. 42-64.
7. Zaehner, R.C., op. cit., p. 91.
8. James, E.O., **The Ancient Gods**, N.Y.: Capricorn Book, 1960, pp. 216-218.
9. Leeuwen, A., op. cit., pp. 56-61.
10. Smart, N., op. cit., pp. 287-288.
11. Ibid., pp. 288-289.
12. Kohler, L., **Jewish Theology**, N.Y.: Kotar Publishing House, 1968, p. 153.
13. Ibid., p. 150.
14. Ibid., p. 160.
15. Ibid., p. 161.
16. Noss, J., pp. 556-557.
17. Ibid., p. 557.
18. Kohler, K., op. cit., p. 183.
19. Ibid.
20. Kohler, K., op. cit., p. 203.
21. White, H.V., **Truthand the Person in Christian Theology**, N.Y.: Oxford Press, 1963, pp. 95-104.
22. Fairweather, op. cit., p. 153.

23 Feuerbach, D., **The Essence of Christianity**, tr. by G. Eliot, N.Y. Harper Torch Books, 1957, p. 89

24 White, H.V., **op. cit.**, p. 97

25 McGiffert, A.C., **A History of Christian Thought**, New York, 1954, p. 49

26 Latourette, K., **op. cit.**, p. 111

27 **Ibid.**

28 Noss, J., **op. cit.**, p. 734

F. Eschatology

1 Noss, J.B., **op. cit.**, pp. 476-477

2. **Encyclopaedia of Religion and Ethics**, Vol. 5, p. 376

3 **Ibid.**, pp. 377-381

4. **Ibid.**, p. 377

5 **Ibid.**, p. 389.

6 Bultmann, R., **Jesus Christ and Mythology**, N.Y., 1958, pp. 27-34

7. **Encyclopaedia of Religion and Ethics**, vol. 5, pp. 381-391

8. Massuti, R., **op. cit.**, pp. 71-72

9. **Ibid.**, p. 71

10 Smart, N., **op. cit.**, p. 245

11 Noss, J.B., **op. cit.**, p. 37

12 **Ibid.**

13 Mills, L., **op. cit.**, pp. 10, 3-10

14. Noss, J.B., **op. cit.**, p. 580

15 **Ibid.**

16 **Ibid.**, p. 561.

17. **Ibid.**

18. **Ibid.**

19. **Encyclopaedia of Religion and Ethics**, vol. 5, p. 387

20. **Ibid.**, p. 385

21. More details see : Brendon, S.G., **The Judgment of the Dead**, N.Y. Charles Scribner's 1967, pp. 138-148.

22 Toynbee, A. **op. cit.**, p. 85.

STRUCTURE-CONTROL OF SOME GEOMORPHIC PROPERTIES OF DRAINAGE NETWORK : AN ILLUSTRATION FROM THE PLIEGO RIVER BASIN, MULA AREA, SOUTHEAST SPAIN

By

F.A. ABOU-RADDY, Ph.D. (Nott. Univ.)

Department of Geography, Faculty of Arts
University of Alexandria

STRUCTURE-CONTROL OF SOME GEOMORPHIC PROPERTIES OF DRAINAGE NETWORK : AN ILLUSTRATION FROM THE PLIEGO RIVER BASIN, MULA AREA, SOUTHEAST SPAIN

Summary. A part of the Pliego River basin, Mula area, Southeast Spain has been studied in an attempt to relate the structure function to the geomorphic properties of drainage network. Based entirely on field measured data, the relationships and comparisons between variables have been recognised with the aid of two types of statistical analysis : Poisson Distribution Function and Analysis of Variance. The structure-control of some drainage and slope characteristics, as observed in the field and revealed from the analysis, has been demonstrated and discussed.

1. Introduction:

The influence of geologic structure on landforms is widely acknowledged. Not only are the major phenomena on the earth surface predominantly of structural origin, but many of the minor landforms are controlled by geologic structure (bedding, joints, folds and faults) through the action of agents of degradation processes on complex rock masses (Desjardins, 1952; Melton, 1959). In this cotext, it is known that various features of drainage patterns, for example : "preferred orientation" of stream channel, segments of narrowing or local widening of valleys as well as the whole drainage pattern itself may imply strong structural control (Ver Steeg, 1947; Parvis, 1950; Tator, 1960; Howard, 1967). Besides, in the processes of drainage development on an area undergoing dissection, the streams, in general, become adjusted to structure through the differential influence of resistant and nonresistant rocks. In this connection the stage of development of a drainage network is an important factor governing the extent to which underlying structures affect the drainage-pattern properties. As in main drainage lines, it is also known that minor tributary valleys show strong control by structure attributes, mainly joint trends (Hobbs, 1905; Brown, 1969; Aghossy, 1970). The present investigation is based upon this finding, and attempts to establish statistical relationships and comparisons between quantitative geologic structure parameters and geomorphic properties of drainage network based entirly on field measurements and observations.

1.1 The physical Setting

The area under investigation (Lat. N 38° 00, 19'' 38° 01' 34'', Long W 01° 30, - to 33° 50'') lies to the west of the Pliego River which is the southern extension of the River Mula (Fig. 1), and is suitable for such a study as various factors characteristic, mainly of this peculiar area is considerable. It also represents an example of geomorphic pattern typical of fluvially eroded badland terrain, or a region of rapid erosional activity, in a semi-arid environment. Besides a general uniformity in its climatic characteristics, and sparse vegetation as well as bare valley-side slopes are maintained.

Fig. 1 LOCATION MAP

1.1.1 Geology

The bulk of the area comprises clastic sedimentary rocks of Oligocene age (Fig. 2). These rocks are predominantly sandstones and marls which are intercalated in a thinly bedded sequence. The study of the lithotypes and structural features is based upon stratigraphy which is reviewed briefly in Section 1.

The geologic structure of the area reflects a complicated history of tectonic episodes during the late Oligocene and early Miocene periods. Tectonic warping is responsible for the general dip of the sandstone strata, and localised compression caused numerous small anticlines and synclines (Plate 2). Joints constitute an important structural feature, and they are a widely observable phenomenon in the study area. Two main sets of tectonic joints, rather than those "topographic" joints (Ollier, 1969), are in focus in this study. The first set is tension joints (Plate 3) which consist of two types: dip joints (DT) and strike joints (ST), whilst the second comprises a conjugate set of oblique joints called shear joints (Sh).

In the study area, the geometric pattern and genetic nature of the tectonic joints in Oligocene sandstone of the valley side slopes seem to be entirely dependent upon the nature of bedding. To study the orientational distribution of the joints in terms of their genetic types (tension and shear) and spatial variations, the area was divided into six separate units each consisting of beds whose strike orientation is almost similar. In each unit joint data was grouped on the basis of bedding strike orientation, and plotted on Rose diagrams (Fig. 4) from which it is evident that dip tension joints are more common in the area, as compared to strike tension joints. Shear joints have the higher density in the area with major orientational trends of NNW-SSE, NW-SE and N-S.

1.1.2 Geomorphology

The area under investigation has distinct geomorphological characteristics. A valley system occupies the whole extent of the area, comprising two trunk lines with numerous tributary valleys occupied by gullies which are actively extend headwards. The tributary valleys are deep, narrowly confined and relatively youthful trenches. They are characterised by steep, V-shaped slopes (mean angles of valley-side slopes 46.4°), and have many "waterfalls", which may be described as "natural steps", cut-

Table 1. Stratigraphy of the area

Formation	Age	Lithology	Structural Features
Quternary	Recent	Colluvial chips and flacks alluvial gravels, coarse sand.	
Yellowish marl	Upper Miocene	Dominant marl (distinguished by numerous gypsum veins), interbedded with sandstones (highly micaceous, fineagrained and well-cemented).	Dip 25°-30° NW, Joints common, dominantly shear joints.
Reddish Marl	Upper Oligocene	Dominant marl (silty in texture and highly weathered), interbedded with sandstones (often distinguished by limonitic nodules Plate 1 B)	Average thickness 10-30 m. sandstones maintain higher dips up to 75°E; SE. Locally folded. Joints common dominantly tension (dip and strike) joints.
Sandstone sequence	Lower Oligocene	Dominant sandstones (often coarse-grained and well-cemented by calcareous materials), subordinate marl	Moderate dips ranging from 18°-30° SE. Dominant bedding strike ENE-WSW (Fig.3) Local folds with steep inclined limbs recognised.

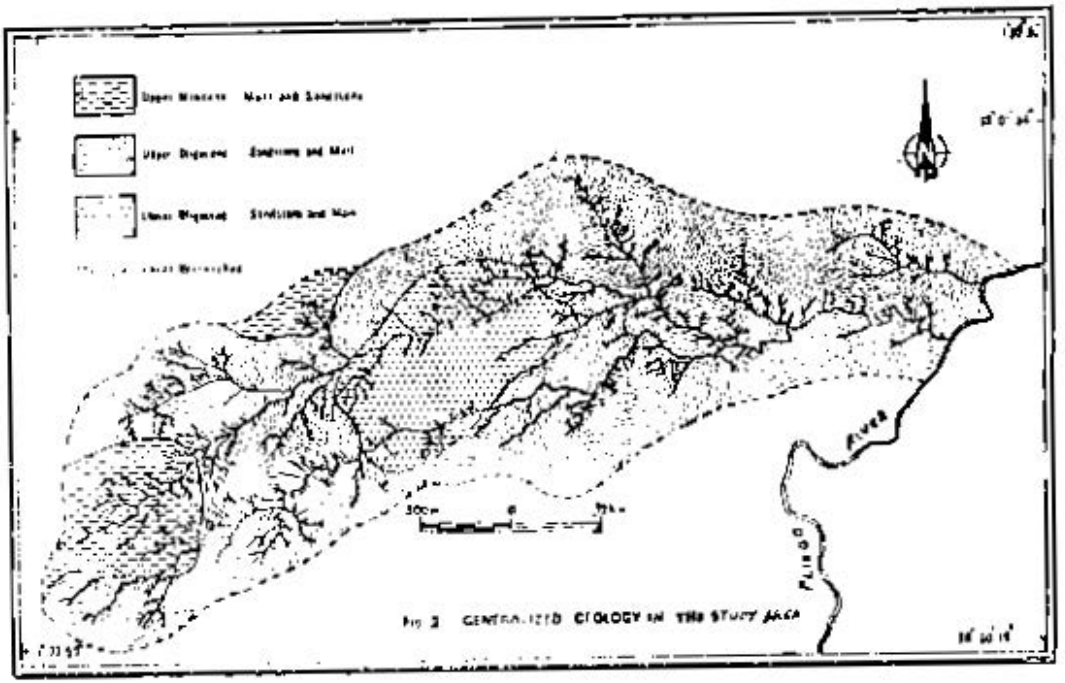

ing down through thick beds of sandstone. Most of these steps are up to 5 m in height and at their base water commonly seeps out as springs.

Valley devides are well-defined in the area and interfluves are narrow. However, because of the present entrenched and actively downcutting gullies system with waterfalls in many tributaries, the morphology of the area is remarkably similar to youthfully dissected areas of high relief. It is possible that regional uplifting in this tectonically-active area, climatic changes which are well-documented in comparable latitudes and relatively recent anthropogenic causal factors are possible factors for consideration in the explanation of the origin of the present morphology.

A variety of degradational and aggradational processes are active throughout the study area. Intensive rainfall storms (about 30% of total annual rainfall) on dry marly surfaces which have low infiltration rates give rise to vigorous denudational processes, such as rock collapse; rock flowage; sheetwash; rilling and gullying, on the valley-side slopes. Some other degradational processes, e.g. debris slide, debris fall and rock fall (Plate 4), are operating on the valleysides throughout the year. The rock

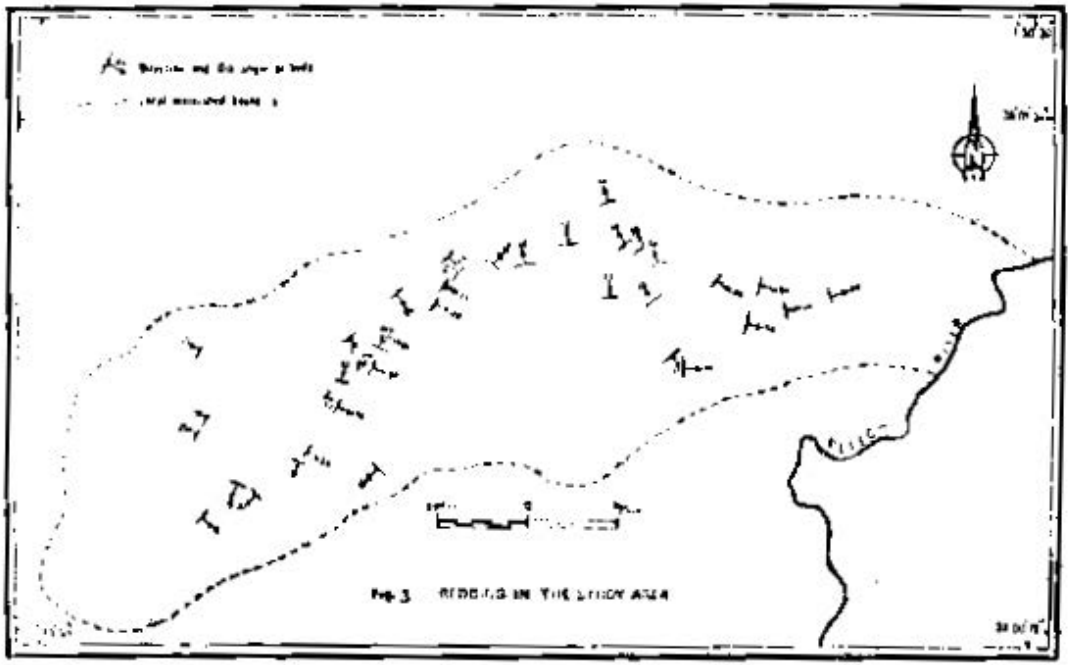

fall process is common particularly when there is an undercutting of dipping beds wherever there are incompetent layers in the sequence. Consequently, tributary channels are often chocked with debris which has moved by sheetwash, and by slumping from the steep adjacent slopes. On the other hand, extensive colluvial deposits mantled many footslopes, reflect the effect of the aggradation process in the study area.

2. The Concept

The geomorphic properties of a landform or a terrain type can be expressed in terms of its genetic relationships as follows :

$$G = f(l\text{-}s, c, b)$$

where G = any geomorphic property,
l-s = lithology and structure,
c = climatic conditions,
b = biotal factor

The advantage of this expression lies not only in its ready characterisation of the controlling factors of any geomorphic property, but also in its

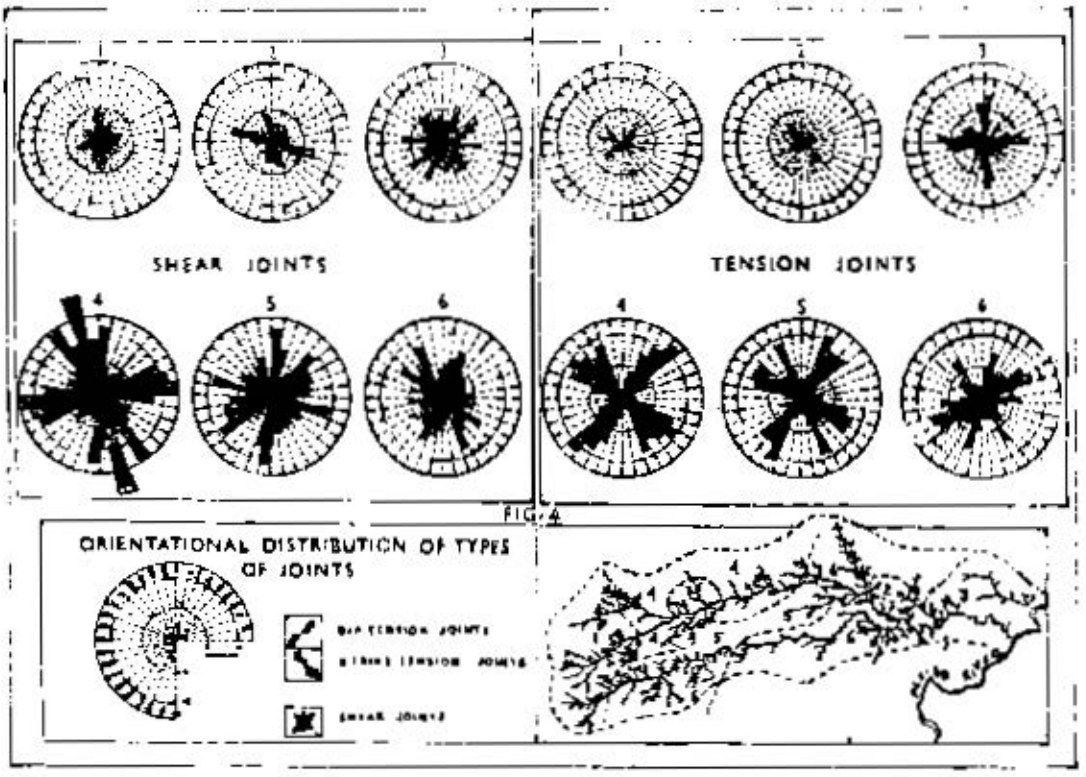
SHEAR JOINTS
TENSION JOINTS
ORIENTATIONAL DISTRIBUTION OF TYPES OF JOINTS

FIG. 4

flexibility to allow the study of each of these factors as an independent variable which would define the state of the geomorphic system. Thus we may isolate :

(1) Lithology & structure function	G = f(l-s)
c,b	constant
(2) Climofunction	G = f(c),
l-s,b	constant
(3) Biofunction	G = f(b),
l-s,c	constant

All the three controlling functions, l-s, c, and b are multiple factors and produce sets of functions. Each individual landform has several properties, an assemblage of which defines the geomorphic complex. Thus,

$$\text{Geomorphic Complex} = G = f(l\text{-}s, c, b,)$$

Variations in this ensemble give rise to the different levels in the characterisation of landforms.

3. Methods and Techniques

The methods and techniques which have been employed to achieve the objective of the present investigation were mainly those of planning the sampling design and measurement procedures in the field. The fieldwork lasted for a period of fifteen days during which all measurements were taken.

For the purpose of this study tributary valleys were restricted to those at least 20 m. long and 2 m. deep which formed part of an interconnected net of drainage lines. A special random method for obtaining representative data to reflect the properties of tributary valleys was designed and used. This method was point sampling where grids were drawn over an enlarged aerial photograph of the area, at scale 1 : 8000, and the random points chosen were plotted on these grids. From each of these points a random orientation was drawn to contact the tributary valley channel in a point being used as a sample locality, whereas sample points which fell on valley heads as well as on the main drainage liens were rejected and replaced by others. The quantitative determination of sample size was not attempted before the field work. It was assumed, however, that not less than fifty sample points were probably sufficient for such a limited fieldwork time. Accordingly, fifty two randomly selected locations were plotted on the

tributary valleys of the area (Fig. 5), and each locality was given a reference number.

The variables selected were assumed to be appropriate for the present investigation. Many structure and geomorphic properties of drainage network can be readily quantified, but the two groups of selected variables and their attributes considered in this study are listed and operationally defined in Table 2.

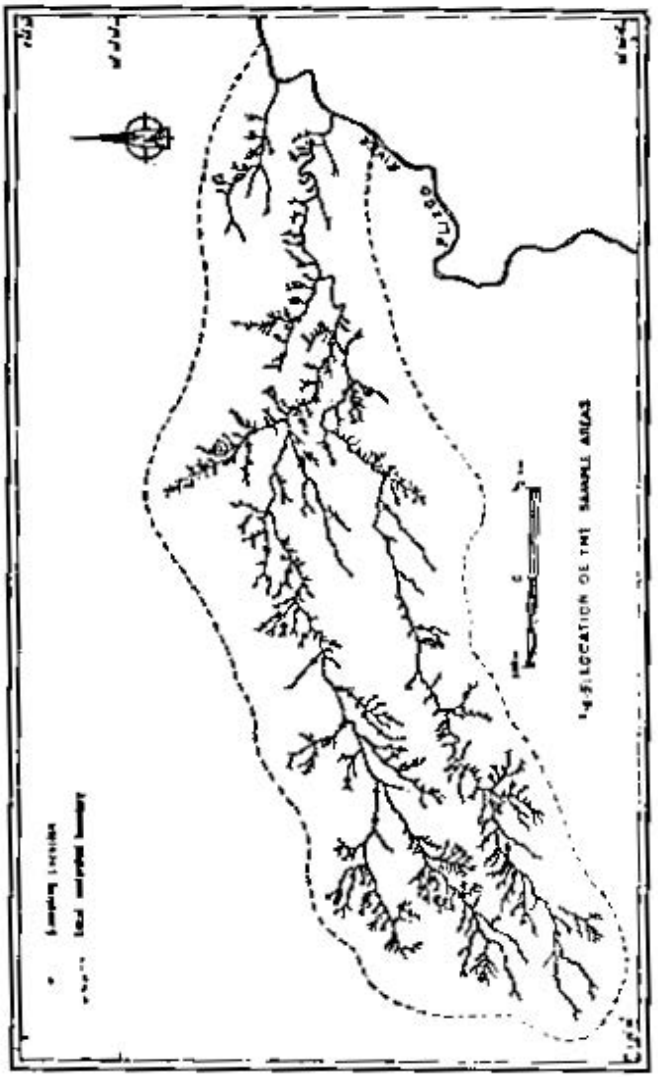

Table 2 : Geologic Structure and Geomorphic Variables

Measured variables	symbol	Unit	Remarks
Structure variables			
1. Dip of bedrock	β	degree	Measured with a clinometer accurate to $\pm$ 1°.
2. Bedding strike orientation	S_{10}	–	Measured with a prismatic compass to the nearest 1°. Always at 90° to true dip direction. Divided into 36 classes each with 10-degrees.
3. Dip tension joints	DT	–	Measured with a primatic compass to the nearest 1° with reference to the direction of true dip of beds. Divided into 36 classes each with 10-degrees. Characterised by rough irregular and mostly open planes.
4. Strike tension joints	ST	–	Measurement and characterisation same as for dip tension joints (DT).
5. Shear joints	Sh	–	Measurement same as for DT & ST. Distinguished by smooth, sharp and closed planes.
6. Total joints	T_{10}	–	T_{10} is maximum frequency of any one type of joints. Originally based on 20 joint orientation readings obtained from the lower valley-side lopes using a prismatic compass. Divided into 36 classes each with 10-degrees.

Geomorphic variables			
7. Lower valley-side slopes	θ	degrees	Measured, above the concavity of the valley side to the major break of slope, with suunto clinometer calibrated to read to $\frac{1}{2}°$. A maximum of ten random measurements, assumed to be sufficient to portray the range of variation within the sample locality, were taken from both sides of the valley looking downvalley.
8. Aspect	A_N	–	Measured with a prismatic compass at the randomly selected points where valley-side slope was also measured. Always at 90° to the trend of valley side. Divided into 8 classes, N, NE, E, SE, S, SW, W, NW.
9. Orientation of valley segment	OV_t	–	Valley-flour segment is defined as a distance not less than one metre in length at the right angle to contour trend of basal portion of valleyside. 20 contiguous measured lengths form a longitudinal transect across a sample area. Orientation of each segment was measured using a prismatic compass and ranging poles. Represented by mode orientation (0-360°) of the most frequent valley segment.

4. Statistical analysis

Data on the structure attributes and genmorphic properties (measured) has been grouped into classes before being fed to the Olivetti 101 desk top computer, by which much of the computation necessary for the analysis of the data was carried out. In addition, the orientation of bedding strike (S_{10}), joint types (DT, ST, Sh) and valley-floor segments (VO_s) has been corrected to true bearing (Magnetic variation, for this part of Spain, is 5°w).

The primary statistics for dip of bedrocks (ϕ), valley-side slopes (θ) and Aspect (A_N) is summarised in Table 3.

Table 3 : Statistical data for measured geological and geomorphological properties

Variables*	Mean ($\bar{X}$)	Standard deviation	Best estimate of S.D. ( )	Variance 2
ϕ	31.00	15.00	15.16	229.82
A_N	43.07	8.00	8.08	65.28
A_{NE}	45.99	6.00	6.06	36.72
A_E	47.33	6.00	6.15	37.82
A_{SE}	50.20	7.20	7.28	52.99
A_S	47.16	10.00	10.13	102.61
A_{SW}	43.94	9.00	9.08	82.44
A_W	52.35	6.00	6.15	37.82
A_{NW}	45.09	9.00	9.12	83.17
θ	46.41	7.63	7.70	59.29

Prior to the application of the two adopted statistical techniques : Poisson distribution function and analysis of variance, the usual frequency distribution was only carried out for the measured variables : dip of bedrocks (ϕ) and valley-side slopes (θ). The frequency histograms (Fig. 6) show that the distribution of the bedding dip angles has a positive skewness as indicated by a preferential right handed symmetry. They also show that angles of the valley-side slopes are quite well distributd and approach

* Definition of variable symbols same as in Table 2.

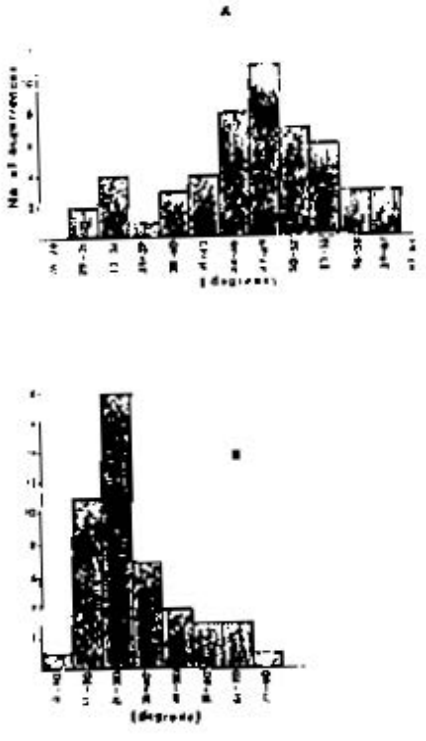

Fig 6 FREQUENCY DISTRIBUTION HISTOGRAMS FOR:
'A' VALLEY-SIDE SLOPES (θ).
'B' ANGLE OF DIP OF BEDS (β)

normalcy. Therefore, the logtransformation method (Gregory, 1968) was used to normalize the data of dip of bedrocks (Fig. 7) so as to enable parametric tests to be carried out

5. Orientational relationships between geologic structure and geomorphic variables

Two main methods, based only on comparing the orientational distribution of two variables, have been usually used to examine the relationship between the orientation of geological variables and orientation of valley

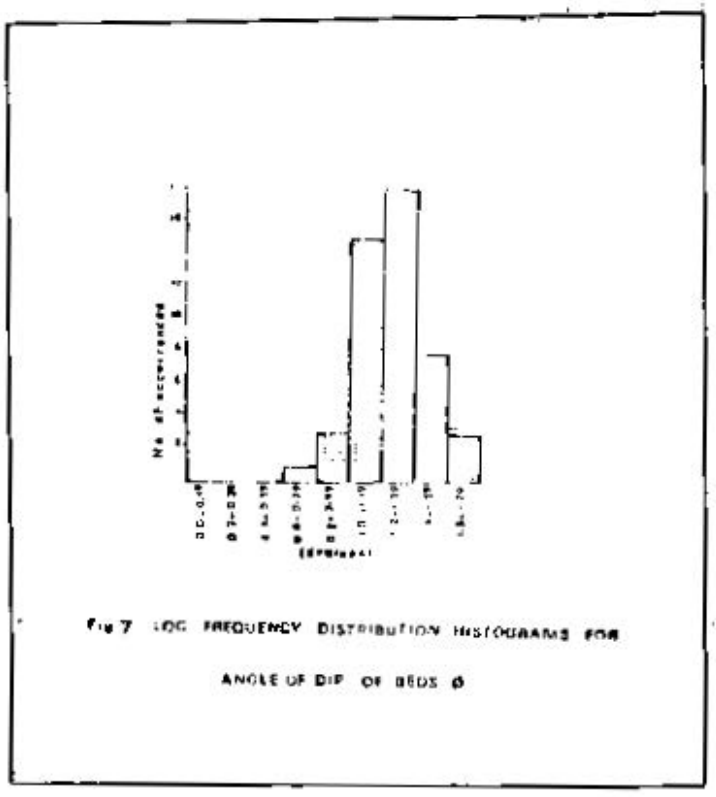

Fig 7 LOG FREQUENCY DISTRIBUTION HISTOGRAMS FOR ANGLE OF DIP OF BEDS Ø

form properties. The first method relies upon visual comparison and inspection of hemispherical frequency diagrams in order to point out the marked peaks and troughs in orientations of joints and valleys. The second method is to test statistically whether the relationship between joint and valley orientations is significant or not using the Chi-square test, or to determine the extent to which the joint and valley orientation frequencies are statistically correlated using the Spearman Rank Correlation method and Product Moment Correlation Coefficient method (Brown, 1969). The procedure in applying either method depends upon the overall joint pattern and not upon the detailed types of joints.

In the present investigation, an attempt is made to assess the degree to which valley-floor segment and valley-side slope orientations are related to joint orientations. The quantitative technique adopted is based on a statistical method which depends on analysing the overall freauency distributions of angular differences between the orientations of the variables, taking two at a time, as measured from various sample localities

in the area studied. Just as important, however, is the semicircular distribution (not direction) of the variables for this particualr method.

5.1 Relationship between orientations of valley-floor segments and structure variables (joint types and bedding strike)

For the purpose of demonstrating this relationship the angular differences between the modal class of total joints, dip tension joints, strike tension joints, shear joints and bedding strike as well as the maximum orientation of valley floor were calculated. Such angular differences between each two variables cannot exceed 90° and could be as small as zero. The frequency of the differences of each pair of variables were calculated between nine (10-degree) angular differences classes from 0 - 90°. In so doing, an assumption was made that if there is no orientational relationship between any one structure attribute and valley floor the angular differences of orientation will have a random distribution.

Therefore it is important to test statistically whether the observed pattern of the angular differences in orientation between each pair of variables departs significantly from the expected pattern of randomness. In order to achieve this test, the poisson distribution function, which is an approximation to binomial distribution when the number of observations is large and the probability is low (Cole and king, 1968), has been adopted to calculate the minimum limit, or permissible limit, within which all observations should fall with a 95% probability level. From the table of the poisson distribution (Lindley and Miller, 1953) the value 11 was taken as the minimum frequency required for a significant peak at 95% level. This was based on the mean of sample areas for each two variables. In our case, the total number of sample localities was 49 (50-1 = 49), and the mean used was 49 ÷ 9 = 5.5. The resulting frequency of angular differences in orientation between valley-floor segment and geologic structure variables is given in Table 4, and illustrated in Figure 8.

Table 4 : Frequency distribution of angular differences in orientation between valley floor segment and geologic structure variables*

Angular differences classes (degrees)	OV$_v$& T_{10}	OV$_v$& DT	OV$_v$& ST	OV$_v$& Sh	OV$_v$& S_{10}
0 - 10	11	-	8	3	6
11 - 20	6	5	6	9	8
21 - 30	4	4	1	11	1
31 - 40	2	5	2	1	2
41 - 50	9	8	9	9	7
51 - 60	9	5	8	5	9
61 - 70	2	3	5	5	3
71 - 80	5	4	8	3	3
81 - 90	2	5	4	1	8

* Definition of variable symbols same as in Table 2.

A preliminary study of the data in the above table reveals the following outcomes :

I The similarity in orientation between the valley floor and other variables is significant only between valley floor and total joints (T_{10}). This can be explained as the peak class in the distribution approaching the permissible limit of "11-values" and since this peak class is in the class 0 - 10°, it is the best indication of significant similarities in orientation as it represents the minimum angular difference between these two variables.

II. Another peak emerges between valley floor and shear joints (Sh), but this peak cannot be considered as an indicator of similarity in orientation between these two variables since it lies in the class 21 - 30° which reflects a high angular difference in orientation.

III. The valley floor orientation and dip tension joints (DT), as well as strike tension joints (ST) and bedding strike (S_{10}), do not behave sympathetically with one another, and each pair of these variables

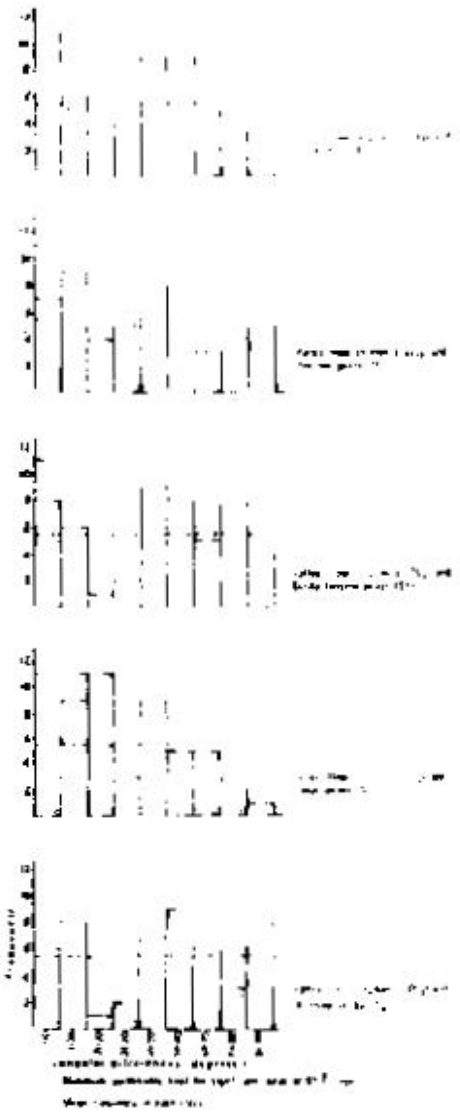

show no similarity i.e., the peaks were absent indicating that the pattern of orientation of valley floor may change randomly with the change in orientation of the other geologic structure variables.

It would appear from the above that the joints have exercised a relatively strong control over the orientation of the tributary valleys in the study area. In other words, as the joints represent the weaker alignments in rocks, they are planar structure along which water may penetrate into the rock mass thus facilitating the creation of valleys

5.2 Relationship between orientations of valley-side slopes and structure variables (joint types and bedding strike)

The orientation of valley-side slopes ($v_{x\,(a)}$) used in this analysis was defined by adding 90° to the slope aspect readings, as corrected to true bearing. The same method procedure, as applied above to the orientational analsyis between valley floor and structure variables, has been adopted. The angular differences between the maximum orientation of slopes in each sample locality and the modal class of orientation of each joint type and bedding strike were calculated. As in the previous test, the mean of sample areas for each of the two variables is 5.5, and the permissible limit within which all observations should fall with 95% probability level, as taken from the table of poisson distribution, is the value of 11. The resulting frequency of the angular differences in the orientation of valley-side slopes and structure variables in nine (10-degree) classes is given in Table 5, and illustrated in Figure 9.

The results in the above table show that the angular difference between the orientations of valley-sideslopes and geologic structure variables (joints and bedding strike) is only significant between valley-side slopes and shear joints. This can be explained as the peak class in the distribution approaches the minimum limit of "11 -values" and in as much as this peak class is in the class 0-10° it is the best expression of significant similarities in orientation since this class represents the minimum angular difference between these two variables. On the other hand, the orientation of valley-side slopes did not exhibit such a similarity with orientations of other joints and bedding strike i.e. the absence of peaks in the frequency idicates that the pattern of orientation of valley-side slopes changes randomly with the change in orientation of the other geologic structure variables. Another

Table 5 : Frequency distribution of angular differences in orientation between valley-side slopes and geologic structure variables.

Angular differences classes (degrees)	V_{N10} & T_{10}	V_{N10}& DT	V_{N10}& ST	V_{N10}& Sh	V_{N10}& S_{10}
0 10	10	8	9	11	7
11 20	7	8	6	8	4
21 30	2	1	5	4	6
31 40	6	7	3	5	2
41 50	2	4	3	3	5
51 60	9	4	8	5	5
61 70	4	6	3	3	7
71 80	4	6	6	5	3
81 90	3	2	4	3	5

explanation based on field examination might account for the result of this test. The shear joints are more common in the study area than tension joints (see Fig. 4), and most of valley-side slopes are oriented along these shear-joint planes

6. Comparison of geological and geomorphological variables (True dip of bedding, valley-side slopes)

For the purpose of comparing various groups of sample mean values of true dip of bedding and valley-side slopes, the analysis of Variance test, has been adopted. Manipulating data of angle of dip and angle of slopes for this test involved the segragation of slope angles, as related to different amounts of dip, according to their position in relation to the direction of true dip within a narrow zone of 20° around the true dip. These slopes are called "Syn-dip slopes", and slopes which are inclined in a direction opposite to the direction of the true dip in the same narrow zone are called "anti-dip slopes" (Fig. 10). In addition, slopes were split up by reference to the orientation of bedding strike into two main groups. Slopes which are conformable with the direction of true dip are called "conformable slopes" and those against the true dip are called "inverse slopes".

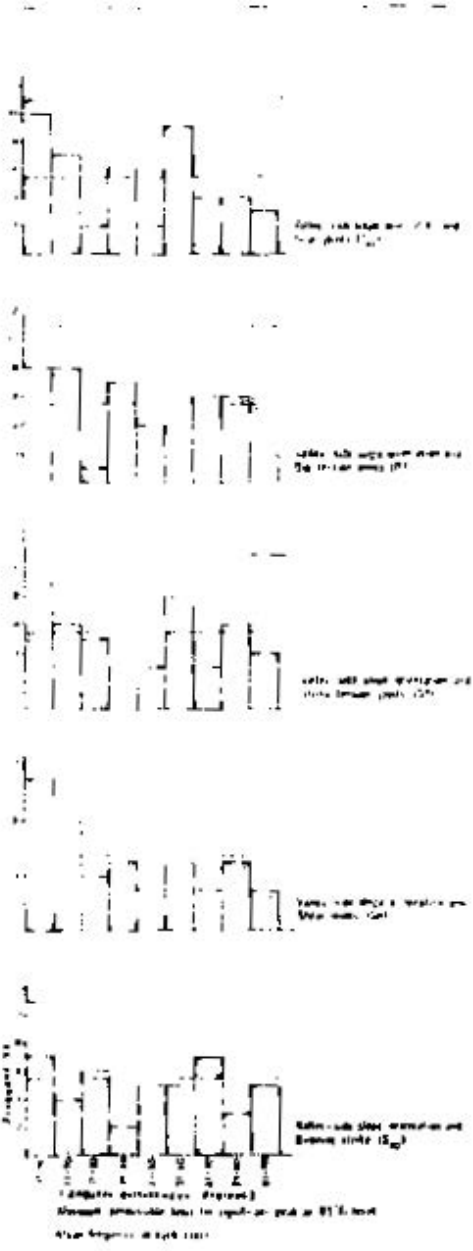

Fig 9 ORIENTATIONAL RELATIONSHIP BETWEEN DRAINAGE NETWORKS (valley-side slopes) AND GEOLOGIC STRUCTURE (joints and bedding strike) VARIABLES

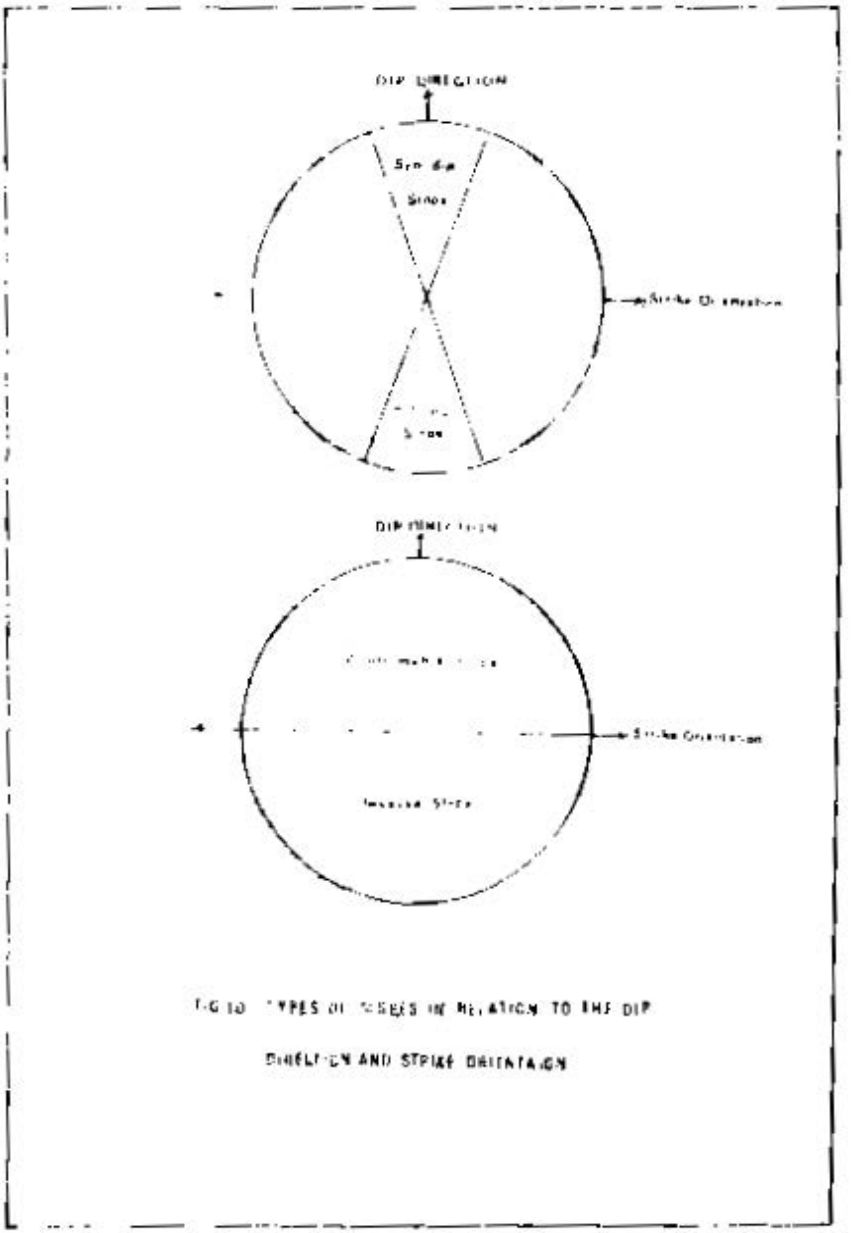

FIG 10 TYPES OF FOLDS IN RELATION TO THE DIP DIRECTION AND STRIKE ORIENTATION

The mean angles of the four types of slopes were subjected to the (one way) analysis of variance to see if there was a significant difference between the mean angles of valley-side slopes with particular reference to their relative position and orientation i.e., along the direction of true dip against the direction of true dip, and along the strike of bedding. The Olivetti programa 101, p. 203 desk top computer was programmed to carry out the test by programme No. ST 1003. The resulting statistics for individual dip class is summarised in Tables 6 and 7 for ready comparison.

Inspection of the output of the analysis of variance in Tables 6 & 7 indicates existance of significant differences in the mean angles of the four types of slopes only in "11 - 20° and 41 - 50°", and "21 - 30°, 41 - 50°" and 51 - 60° dip of bedding classes for "syn-dip and antidip", and "conformable" and "inverse slopes" respectively at 5% significance level. The immediate conclusion is that the samples do not come from the same population, hence that there is a significant difference in mean angles of valley-side slopes. On the other hand, the F-value calculated for the analysis of variance of the same types of slopes in most dip of bedding classes is less than the tabulated-value at 5% level of variance ratio, which is definitely not significant. It is concluded, then, that there is no significant difference in mean angles of syn-dip and anti-dip slopes, and conformable and inverse slopes which cannot be attributed to change in dip of bedding. However, this in contrast to the known measurements of the relations between the dip of underlying bedding and angle of slopes i.e., slopes dipping in the reverse direction of bedding are different from those paralleling the bedding (Leopold and et. al., 1964).

It seems that some other factor (s) other than dip of bedding has a controlling influence on slope-angle variations in the area under study.

Table 6 Analysis of Variance
syn-dip slopes and anti-dip slopes

Dip Classes	0-10°	11-20	21-30°	31-40°	41-50°	51-60°	61-70°	71-80°
X of syn-dip	-	45.25	39.05	44.44	41.75	53.00	50.00	-
X of anti-dip	-	38.6	46.11	39.00	60.50	34.00	44.33	-
Total of sum of squares	-	2070.19	6745.54	870.30	814.87	945.50	450.10	
Sum of squares among sets		315.46	385.52	82.08	703.12	541.50	67.43	-
Sum of squares within sets	-	1754.73	5760.01	788.22	111.75	404.00	382.66	
d.f. among sets	-	1	1	1	1	1	1	-
Mean squares among sets	-	315.46	385.52	82.08	703.12	541.50	67.43	-
d.f. within sets		29	3	11	5	4	8	
Mean squares within sets		60.50	1920.54	71.65	18.62	101.00	47.83	-
F-ratio	-	5.21	2.20	1.14	37.75	5.36†	1.41	
F-table 5% value		4.18	10.13	4.84	5.99	7.71	5.32	-
Significant or not	-	sig.	not	not	sig.	not	not	-

X = Mean of slope angles d.f. = Degree of freedom.

Table 7 Analysis of Variance
(Conformable Slopes & Inverse Slopes)

Dip Classes	0-10°	11-20°	21-30°	31-40°	41-50°	51-60°	61-70°	71-80°
X of conformable slopes	50.00	49.62	43.95	45.97	44.44	55.53	45.53	47.50
X of inverse slopes	48.50	48.41	48.62	50.00	51.28	38.28	43.25	52.66
Total of sum of squares	448.90	11912.70	21374.50	10783.54	1585.36	6430.75	610.00	336.40
Sum of squares among sets	5.40	17.41	957.39	280.57	294.85	2154.16	16.10	64.06
sum of squares within sets	943.50	11895.28	20417.11	10502.97	1290.50	4276.59	591.98	272.33
d.f. among sets	1	1	1	1	1	1	1	1
Mean squares among sets	5.40	17.41	957.39	280.57	2154.16	16.01	64.06	–
d.f. within sets	8	96	175	69	28	27	15	8
Mean squares within sets	117.93	123.90	116.66	152.21	46.08	158.39	39.59	34.04
F-ratio	0.40	0.14	8.20	1.84	6.39	13.60	0.40	1.88
F-table 5% value	239	253	3.89	3.98	4.20	4.21	245	5.32
Significant or not	not	not	Sig.	not	Sig.	Sig.	not	not

X = Mean of slope angles d.f. = Degree of freedom.

7. Conclusions

The main feature of the present investigation is the application of some numberical techniques of analysis to data of selected geologic and geomorphic variables obtained by field measurements. The Plaeo River badlands offered the opportunity to examine the relationship between these selected variables. The area under study is characterised by a dentrid pattern of landform i.e., a deeply incised valley system, in which geologic structure is consistently dominant feature influencing this pattern.

[illegible] statistical symbolisation of the genetic relationships of geomorphic [illegible] is advantageous as it permits the study of the governing factors [illegible]. The geologic structure control of various dynamic and [illegible] morphologies has been demonstrated in the present study. In the [illegible] correlation coefficients between spurs and valley floor segments [illegible] between spurs and valley side slopes, the "Poisson Distribution" [illegible] was investigated. This is an objective and comprehensive method of [illegible] as opposed to the visual inspection method or Chi square, both of [illegible] are conventional methods which have been commonly used in this [illegible]. The orientation of valley floor segments and the alignment of [illegible] slopes showed a distinct response to geologic control, as it was [illegible] that these valleyform elements had significant correlation to the [illegible] of joints and to the most commonly developed shear [illegible] relatively. Thus, it seems possible to conclude that joint patterns [illegible] the form of valley network in the plaeo area. It was also considered [illegible] to ascertain if valley side slopes varied significantly in [illegible] dip or bedding differences. Therefore, a comparison between the quantitative data of these variables was undertaken using the [illegible] of variance characteristics. In comparing the angle of valley-side slopes with dip of bedding, it was found that there were no significant differences in the mean angle of the four types of slopes: syn-dip, anti-dip, conformable; and inverse slopes.

Acknowledgements

The author is greatly indebted to Prof. G.H. GOUDA, Deprtment of Geography, University of Alexandria, for his useful suggestions and critical review of the manuscript. He wishes to acknowledge the directions given by Prof. A.A. Shahin, Department of Geography, Beirut Arab University. To Prof. H.S. Abou El-Enin, Department of Geography,

University of Alexandria for his kind advice and help, appreciation is expressed.

References

AGHOSSY, JACOB (1970) : Jointing, Drainage, and Slopes in a West Africa Epreirogenetic Savanna Landscape, Ann. Ass. Amer Geog. Vol. 60, pp. 286-298.

BROWN, E.H. (1969) : Jointing, Aspect and the Orientation of Scarp-face Dry Valley, Near Ivinghoe, Bukinghamshire, Trans. Inst. Brit. Geog. No. 48, pp. 61-74.

COLE, J.P. & KING, C.A.M. (1970) : Quantitative Geography, Techniques and Theories in Geography, 3rd Ed., Wiley, London.

DESJARDINS, LOUIS (1962) : Aerial Photo of Multiple Surface Faults may locate deep-seated Salt Domes, Oil and Gas Jour. August, pp. 82-84.

GREGORY, S.(1968) : Statistical Methods and the Geographer, 2nd Ed., Longmans, London.

HOBBS, W.H. (1905) : Examples of joint-Controlled Drainage from Wisconsin and New York, J. Geol. Vol. 13, pp. 363-374.

HOWARD, A.D. (1967) : Drainage Analysis in geologic interpretation A Summation, Bull. Americ. Ass. Petrol. Geols. Vol. 51, pp. 2246-2259.

LEOPOLD, L.B., WOLMAN, M.G., and MILLER, J.P. (1964) : Fluvial Processes in Geomorphology, W.H. Freeman, San Francisco.

LINDLEY, D.V. & MILLER, J.C.P. (1953) : Cambridge Elementary Statistical Tables, Cambridge.

MELTON, F.A. (1959) : Aerial Photographs and Structural Geomorphology, J. Geol. Vol. 67, pp. 355-370.

OLLIER, C.B. (1969) : Weathering, Geomorph. Texts 2, Oliver and Boyd, Edinburgh.

PARVIS, MERLE (1950) : Drainage Pattern Significance in Airphoto Identification of Soils and Bed rock, Photogramm. Eng. Vol. 16, pp. 387-409.

TAYLOR, B.A., et. al. (1960) : Photo Interpretation in Geology, Manual of Photographic Interpretation, Washington, D.C., Amer. Soc. Photo., pp. 169-342.

VER STEEG, KARL (1947) : 'The Influence of Geologic Structure on the Drainage Pattern in the Northeastern Minnesota, J. Geol. Vol 55, pp. 353-362.

Plate 1 : Limonitic nodules in the Upper Oligocene formations. Notice the recurrence of small oroidnal shaped depressions in the sandstone bed.

Plate 2 : A sheared sandstone boudin. Notice the deformation along the bedding plane of the thick sandstone beds.

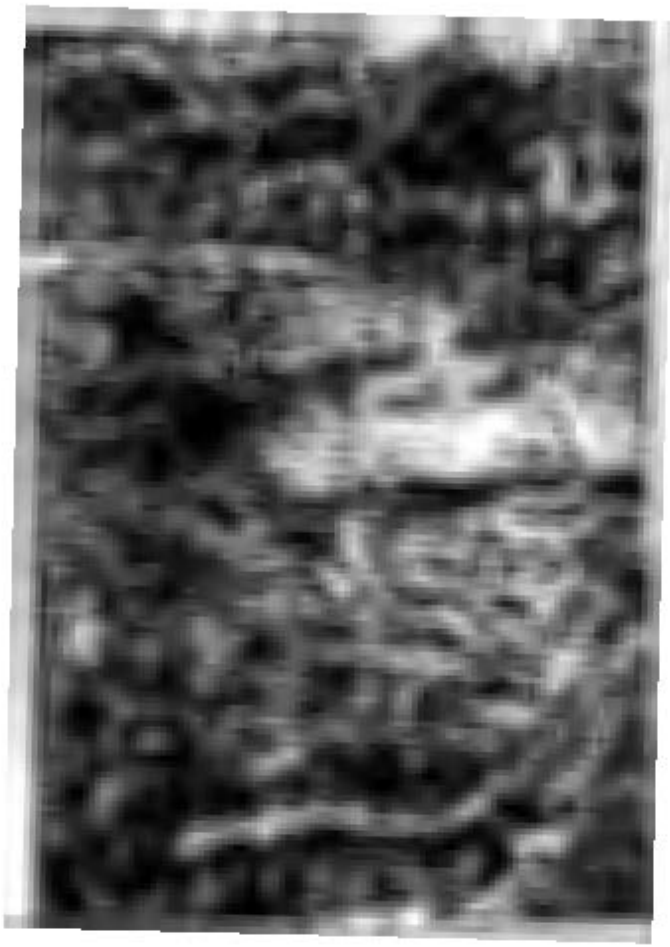

Plate 3 : Types of joints in the pliego area :
Dip tension joints (DT), Strike tension joints (ST), and Shear joints (Sh).

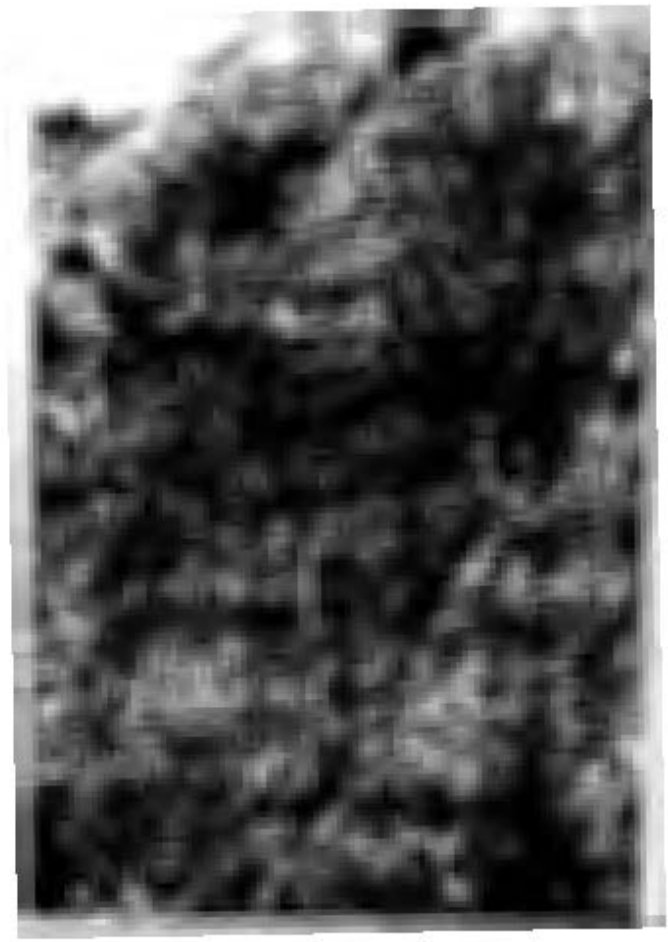

Plate 4 : Differential mass movements (rock fall, debris slides) along bedding planes of the Oligocene sandstone and marl.

Agriculture and Water Resources In Saudi Arabia

By

Dr. Ali Ahmed Haroun

Department of Geography,
Faculty of Social Studies,
The Islamic University of
Imam Mohamed Ibn Saud
Saudi Arabia

Agriculture and Water Resources In Saudi Arabia

Introduction :

Supplying food for a prospective world production will require in the near future a giant increase in cereals production. Production improvement can be achieved by increasing the total area of arable land utilized.

Irrigation is one means of improving the total volume or reliability of agricultural production by managing water for crops. Water continues to be a vital part of food. The requirement for water of plants cultivated for human nutrition are considerable. Not even the most prdgressive agrotechnical achievements can alter the fact that 400-500 litres of water or more are necessary for the production of one kilogram of organic dry matter.

World food may be sufficient in total, but this does not solve the problem, for it cannot be distributed in the required manner due to political, economic and social problems.

Food production must be safe guarded in the area of consumption, and this arises demands on water resources, especially in arid regions as in Saudi Arabia, since water is a major factor limiting the agricultural development.

The aim of this paper is to show how Saudi Arabia tries to face the problem of food supply by having attention to agriculture.

The main objectives of agricultural development are : 1) to raise per capita income and improve the welfare of rural people, 2) to minimize the country's dependence on imported food, 3) to release surplus labour for employment on other sectors, 4) to increase the resources of the country, not to depend on oil resources only as a main sector.

These objectives will be raising productivity in agriculture and bringing more land into production where water resource permit in accordance with a balanced programme of regional development.

The last fgures of area cultivated, production, imports and exports are very important to the sandy, since the agricultural development is going fast in the last years, but to obtain these figures is very difficult and mostly not exist.

1 — Geographical Features of Saudi Arabia

zsaudi zarabia occupies four fifths of the Arabian Peninsula. It is one of the largest and most arid countries of the Middle East. It covers an area of 2.240 km^2. It extends about 1200 km from north to south, and a similar distance from east to west It is boarded to the west by the Red Sea, to the east by the Arabian Gulf, to the north by Jordan, Iraq and Kuwait, and to the south by the Yemen Arab Republic, the People's Democratic Republic of Yemen and Oman.

It's topography has been created by regional tilting and uplift of the western margins of the Arabian Peninsula (Fig. 1).

Along the Red Sea lies a narrow plain whose width varies from one place to another The coastal plains which are characterized by extensive marshland and lava fields are called «Tehama». East of these coastal plains runs a range of high mountains broken by great valleys of which the most important are Wadi Al-himd, Wadi Yanbo and Wadi Fatma.

In Asir, Wadi Atud and Eisha are the most important Wadies. The decline of this range of mountains is nearly vertical towards the west. Consequently the flood waters wash most of the silt on the coast plains and as a result, the land of these plains becomes more fertile.

The highest mountains are in Asir where peaks rise to over 9000 feet. East of this range of mountains lies the Najd plateau with an average height of 4000 to 6000 feet. The elevation drops to 2000 feet at the Al-dhna which faces the Arabian Gulf. The najd plateau extends south-ward to Wadi Al-dawaser, then runs parallel to the Rub Al-khali (the empty quarter).

To the north, the plains of Najd extends for nearly 900 miles past hail until they join the Iraqi and Jordanian borders.

There are number of mountains areas in Najd which run from south-west to north-west into the Nofud. The Nofud are sandy hills, characterised by the fact that it remains dry without vegetation until rain falls, the area is then transformed into fertile pastures suitable for grazing.

A great number of marshes are scattered through out the Najd. These are considered remnants of inland seas whish existed in ancient geological times.

On the eastern side of Al-dahna, the land gradually deelines towards sea level along the Arabian Gulf where the oil fields are situated. The region is termed «Al-Hasa». This is an area underlain by extensive water-tables, some of which appear to be recharged from infrequent local rainfall. Most, however, are not.

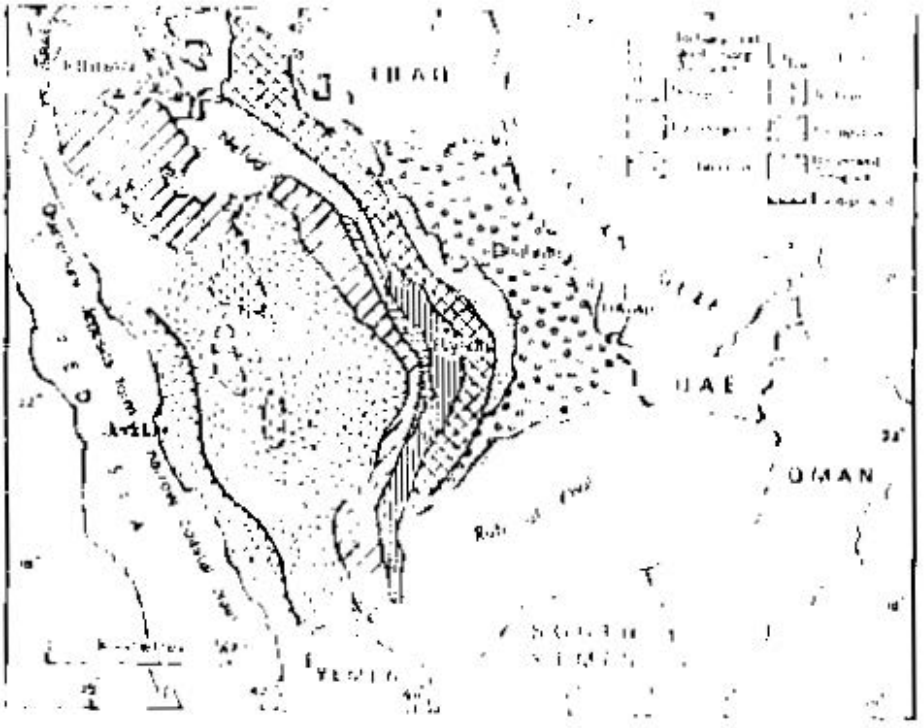

Fig. 1 :Geological map of Saudi Arabia.
Source. Peter Beaumont,
Water development in Saudi Arabia,
The Geographical Journal,
Vol. 143, part 1, March 1977. p. 46.

The coast itself is extremely irregular as sandy plains, marshes and salt flats merge almost imperceptibly with the sea. As a result, the land surface is unstable with water rising in places almost to the surface, while the sea is shallow and full of shoals and reefs for an extended distance offshore.

The south and east of Saudi Arabia are occupied by one of the largest sand deserts in the world (the empty quarter), covering over 500,000 km^2, and measuring over 1200 km by 500 km. The area to which perhaps not always accurately, the name Rub Al-khali (the empty quarter) is given, is far from uniform, but consists of an irregular tilted basin that lies at an altitude of about 1000 m in the west to very little above sea-level in the east and south-east[1].

2 – Climate

Except in Asir, the country has a desert climate. Over the country as a whole, mean precipitation is thought to be about 50 mm per annum. In some parts of the empty quarter rainless conditions may prevail for a number of years, while in contrast parts of the highland areas of the south-west may receive more than 800 mm in a single season as a result of the influence of the moonsoon (table 1).

Precipitation in the northern part of the country is generally the result of cyclonic lifting associated with the eastward passage of depressions from the Mediterranean region, the incidence of these weather systems is normally confined to the winter months and it is at this time that maximum precipitation totals are recorded. The portion of Saudi Arabia south of a line from approximately Madina to Riyadh comes under the influence of the summer south-west monsoon[2]. The northwards penetration of this system is highly variable year to year, making it difficult to assess the effects on precipitation with any accuracy, but in general, summer (monsoon) precipitation increases as a proportion of the total in a southerly direction. For example, at Taif about 40 percent of annual precipitation occures in the six month period April to September compared with only 30 percent at Madina.

---

(1) W.B. Fisher, The Middle East, London, 1976. p. 477.

(2) Peter Beamont, Water and development in Saudi Arabia, The Geographical journal, London, Vol. 143, part 1, 1977.

Table 1
Amounts of Rainfall in Different Places
in Saudi Arabia
(1969 – 1978 in mm)

Year	Riyadh	Jeddah	Dhahran	Medina	Taif	Qassim	Khamis Mushait
1969	172,5	129,2	174,1	82,9	28,9	114,4	342,9
1970	14,8	67,5	4,4	14,3	108,7	113,6	216,4
1971	131,7	106,3	47,2	103,8	260,3	98,8	173,9
1972	229,7	105,0	77,1	39,5	213,0	215,0	97,1
1973	69,3	26,6	13,9	0,7	104,7	117,3	163,7
1974	74,1	24,8	136,2	77,9	74,8	116,5	361,3
1975	177,0	25,0	32,6	20,2	182,9	38,4	263,5
1976	257,7	31,0	235,9	45,6	125,7	176,8	215,8
1977	61,6	57,0	88,7	17,0	108,2	49,6	158,4
1978	16,2	80,0	19,6	27,8	101,0	125,7	216,4

Source: General Meteorological Department, Saudi Arabia

During the summer months temperatures are always high, rising to between 40° C to 50° C in the central and eastern parts of the country. As a result of the intense summer heat, evaporation figures for Saudi Arabia are high, reaching values of 3000 mm. per annum from open water surfaces. At this time of the year, cooler conditions are found only in the highland regions running parallel to the Red Sea Coastline. In contrast, temperatures in winter moderate considerably almost every where and in the interior deserts of the north and in the highlands, freezing conditions can be experienced.

3 – Soil

Much of the soil is fertile when irrigated. Improper irrigation, however, exacerbated the problem of salination, which presents a grave threat to land use, particularly in eastern Arabia. It results primarily from leaching of the soil and from the deposit of salts, lime and potassium on the surface by the percolative effect produced by extreme surface heat. Saline soils,

known as desert marls, permit limited agricultural production with salt resistant crops, such as date palms, when the surface is not crusted in surface saltpans. These marls are most prominent in Hegaz and in eastern Arabia. In extreme cases no vegetation can grow on the crusty saltpans or limestone pans[1].

Sand-covered areas are suitable for agriculture if sufficiency watered. One of the most serious limiting factors in their use is the susceptibility of dunes to shifting according to the wind. This mobility, often reaching 40 feet a year, has made the dunes a grave threat to oasis, particularly to those in Al-hasa. The government has undertaken countermeasures, such as planting over, 6,000,000 tamarisk and eucalyptus trees against the dunes, erecting sand fences and spraying the windward side of the dunes with asphalt to stabilize them.

A heavy sand-gravel soil is found mainly in Najd and also in Al-hasa, not suitable for cultivation. It produces a luxuriant, but ephemeral vegetation following desert rains which is excellent for grazing.

Loam soils, which have good agricultural potential when properly irrigated are found predominantly in the Najd highlands. These soils are clayey and basically not cultivable, but when mixed with sand, they are highly productive.

The best soils are the alluvial soils of the wadi banks. Rich and fertile sandy-loam soils, they are intensively cultivated, mainly for cereals.

4 — Water Resources

A — Surface water

Water in Saudi Arabia is a limiting constraint for agricultural development. The country has no permanent rivers of bodies of water. The wadis contain water only after rains and then for only a short period, but water which seps through the porous surface is trapped above impervious rock layers underground.

---

(1) Norman C. Walpole,
Area Handbook for Saudi Arabia,
New York, 1971, p. 18.

As a country of desert climate, the distinctive trait of the land is of coarse insufficient proecipitation. The average amount of rainfall is never great, though heavy showers may occur occasionally. Hight rainfalls only wet. the soil surface and usually evaporate without having any appreciable effect. The concept of effective rainfall has been proposed, this is the minimum amount of rainfall, occuring on a single occasion that ensures at least some water storage under favourable soil conditions. To be reasonably safe from evaporation, the rain must penetrait to a depth of at least 10-12 cm[1]. The amount needed for this has been estimated at 15 to 20 mm for a single rainfall. The annual effective rainfall consequently amounts to about one-third of the total rainfall.

The distribution of the rainfall and coincidence or otherwise of a tion Unual supply of soil moisture at periods of maximum crop requirement, also have a bearing on yield levels. A period of drought at the time of earing of cereals will have more adverse effect on yields than if it occurs earlier or later in the growing period.

Excess moisture after sowing may reduce germination, and heavy rainfall during ripening may cause lodging and impair production.

In Saudi Arabia, the rainy season is between December and March. Runoff is irregular and most of it occurs in such forms. The distribution of precipitation devides the country into two zones :

A. The South-west region which includes Asir and south Tihama. Rainfall is moderate and falls as the soon summer rains as well as winter rain. Although precipitation is considerable (over 300 mm in Asir), it is uneven in distribution which makes the area suitable mainly for grazing lands[2]. Agricultural development depends on surface water control.

(1) L. Arnon,
Crop Production in Arid Regions,
London 1972, p. 26.

(2) Ministry of Agriculture and Water,
A Guide to Agricultural Investment in Saudi Arabia,
S.A. 1079, p. 34.

B. The other parts of the country where precipitation is low. Agricultural development is possible where underground water resources are available and their utilization is feasible.

Since agricultural development was taken in consideration, the use of water improved. With the capital readily available from oil, Saudi Arabia has initiated a number of further developments, 51 dams have already built over the last ten years[1].

These dams serve several purposes, mainly providing drinking water, irrigating agricultural land, and increasing infiltration so as to recharge ground water aquifers and for flood control.

The most spectacular to date has been the completion of the large dam near Jizan in Asir in 1970 (51 million m^3) to provide irrigation water for some 4000 to 6000 hectars[2]. The Nagran dam is the largest with a capacity of 25 million m^3. Other important dams are Hear, Dariyah, Abha, Rowdat Sudair, Laban, Thadek and Hanifeh (table 2).

B – Ground Water

The water tabl accumulates in porous zones, situaged at a moderate depth below the soil usufave is known as ground water. The upper surface of the saturated zone is called the water-table. Water that is held above the water-table by capillary force is called the capillary fringe (Fig. 2). The thickness of the capillary fringe, and the amount of water held depend on soil texture. The lower limit of the saturated zone is the level at which the underlying rock is practically impermeable to water.

---

(1) Saudi Arabia Monetary Agency. Annual report 1981, p. 66.

(2) Peter Benumont,
The Middle East, Bristol, 1977. p. 320.

Table 2

Main dams in Saudi Arabia

Name	Length in metres	High in metres	Storage capacity Million m.
Jizan	35	51	
Najran	250	6	85
Rear	400	14	3,8
Dariyah	380	9.5	3
Rawdat Sudair	554	14	3
Abha	350	33	2,4
Laban	500	12	2
Thadk	850	7	2
Ranifah	390	9,5	1.3
Turba	380	21	20
Lia	190	45	10
Agar	450	11	7

Source : Ministry of Agriculture and Water of Saudi Arabia.

Fig 2. Ground water zones and belts

Source, L. Arnon,

Crop production in Arid Regions,
London 1972, p. 147.

During wet periods, or following continuous irrigations, the water-table rises, where as during dry peroids, heavy withdrawals will cause the water-table to fall. If there is no impervious layer between the ground-water and the soil surface, the former is known as "phreatic" or "free" ground-water[1].

The ground-water reservoir or aquifer consists of saturated porous rock materials that are sufficiently permeable for the water to move through them by gravity and yield water freely to wells (Fig. 3).

Ground-water that is relatively near the surface can be used by plants. As a large concentration of roots develops in the capillary fringe above the water-table, even a temporary rise in the water-table may cause considerable damage by asphyxiating the roots.

The ground-water reservoirs are the source of water in wells and springs and the flow of streams during rainless periods. Ground-water is the main source of water supply in dry regions. Ground-water reservoirs are in dynamic balance with precipitation, evaporation and drainage to the sea.

Table 3

Main Aqulfers In Saudi Arabia

Aquifer	Surveyed area	Average thickness (meters)	Size
Saq	1	300 600	1500 x 240 km
Wajid	2	950	300 x 250 km
Tabuk	1	150 - 170	900 x 150 km
Minjar	5	500	800 x 600 km
Al-Sayyad	5	600	600 km
Al-Masi	4	500	1450 x 900 km[x]
Um-Sradhuma	4	240	1900 km[x]
Dumam	4	35	n.a
Neojene	4	300	n.a

Source : Ministry of Agricalture and Water.

A guide to agricultural investment in S.A., 1975.

x Extends into kuwait, Iraq, and Bahrain.

[1] L. Arnon, corp production in Arid Regions London 1972, zvol. 1 p. 146.

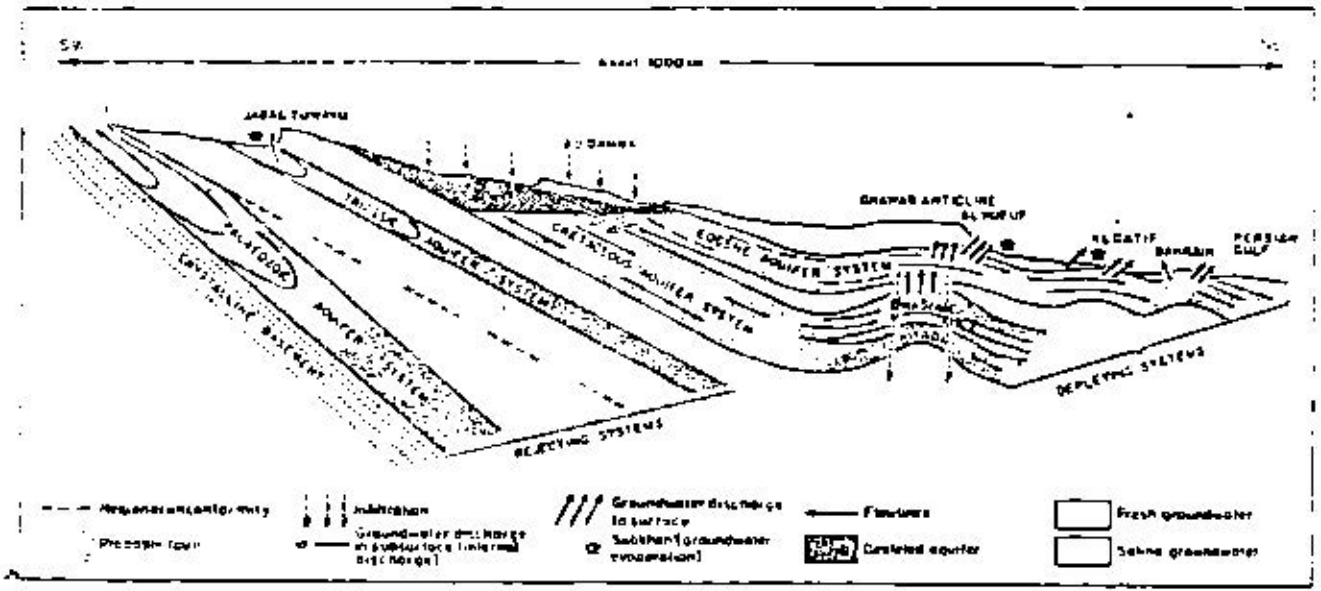

Fig. 3 : Major aquifer Systems in Saudi Arabia.

Source, Peter Beaumont,

Water development in Saudi Arabia.

The Geographical Journal,

Vol. 143, part 1, March 1977, p. 48.

In contrast to surface supplies, the development of ground-water resources in relatively fast and inexpensive, and is therefore a major factor in the economic development of arid regions as in Saudi Arabia.

In Saudi Arabia, ground-water is the main source of water for agriculture and urban uses. Many aquifers have been located, the most important are listed in table 5 in the areas surveyed (Fig. 4).

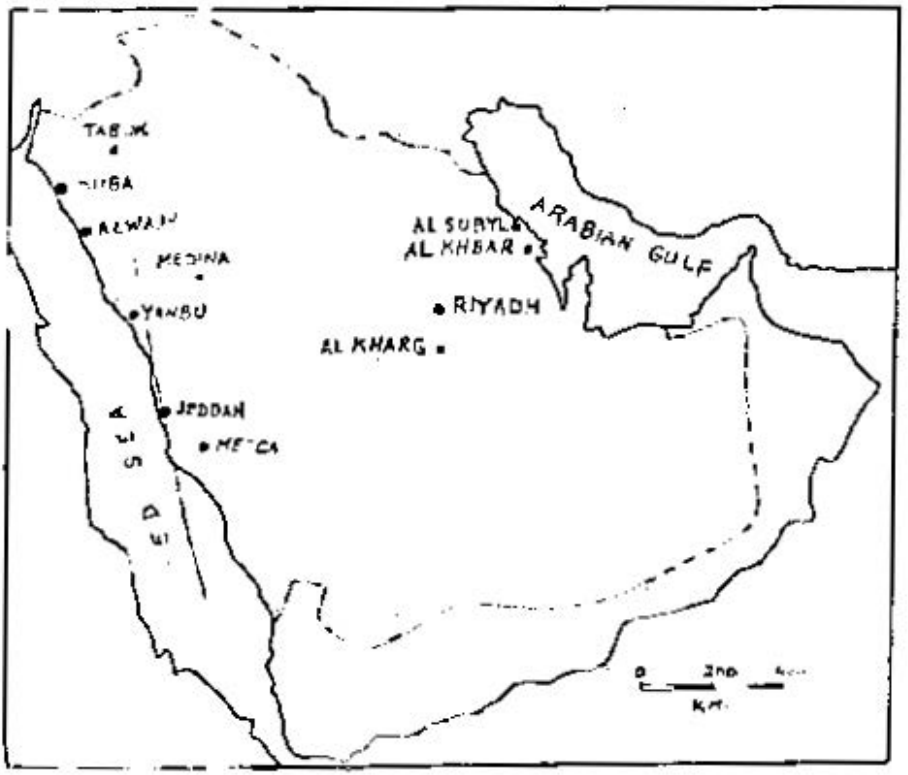

Fig. 4 : Delimitation of Various Areas of Saudi Arabia

The saq aquifer in the north supplies water to Qassim and Tabuk areas, and about 315 million m^3 could be pumped annually without affecting the water level. In Qassim, some wells have a discharge capacity of 1500 gallons/minute. Water quality is excellent and soluble salts range between 450 and 800 parts per million (ppm).

The Tabuk aquifer is also important for agriculture in the Qassim and Tabuk areas. It is estimated that 70 million m^3 can be used annualy without detrimental effects. Water quality is good and soluble to not usually exceed 800 ppm.

Agriculture in Wadi Dawaser area depends on the Wajid aquifer for ground water. Water discharge reaches 800 gallons/minute in some cases, and water quality is good (400 to 800 ppm).

The Minjur aquifer in the central region is recharged with about 70 million m^3 per year. It is used for agriculture in the khari region and for the capital Riyadh. Water quality is medium and reaches 1200 ppm.

The Um-Brrdhuma aquifer is an important source of water for the eastern region. It is utilized for agriculture in Wadi Al-miyah and the Naradh project. Wells dug in this aquifer can discharge up to 3000 gallons/minute.

The Al-Hasa region utilizes water from Neojene aquifer for agricultural purposes and water quality is medium.

In Qatif, Dammam and Al-Khobar, agriculture depends on the Dammam aquifer. Water quality does not exceed 1300 ppm, and discharge of wells does not exceed 100 gallons/minute.

Many wells have been dug in various parts of the country over the years. In certain areas, the pressure on water use has been veryu high, and the extractin has depleted ground water supplies. Consequently, the drilling of new wells must be approved by the Ministry of Agriculture an Water. In other areas, water reserves are huge, and the potential for agricultural development is considerable. The important wells dug in the aquifer areas are given in table 4.

5. Agriculture in Saudi Arabia

A. Evolution of Agriculture

Because of the scarcity of available water resources, vast areas of the country are utilized only by nomads who travel long distances with their Herds in search of the grass which springs up after the erratic rains. Pastoralism, therefore has been traditionally the most important source of agricultural income.

Table 4

Main wells dug in various regions of Saudi Arabia

Location	Aquifer	Depth of well (meters)	Discharge gallons/minute	Water quality ppm soluble salts
Fahid	Saq	1,500	1,000	650
Qassim	Saq	850	500	700
Arar	Aba-Rawath	1,400	400	650
Tabuk	Tabuk	250	250	650
Kamda	Wajid	799	1,618	710
Sulayl	Wajid	1,318	1,200	490
Salboukh	Minjur	1,760	1,000	1,270
Bweib	Minjur	1,983	955	1,536
Nisah	Al-Bayyad	220	950	390
Hafuf	Neojene	100	2,000	1,200
Sharourah	Wajid	1,150	560	800

Sorce : Ministry of Agriculture and Water of Saudi Arabia.

Agricultural development was taken a stage further in 1937 when Ibn Saud's finance minister Sheikh Abdullah Suliman installed a number of pumps, an Iraqi farmer and a palestinian vegetable grower in the oasis of Al-kharj, east of Riyadh. From small beginnings, the project blossomed into a large-scale experimental farm with the assistance of Aramco and sucessive American agricultural missions[1]. About 12 km^2 are being cultivated at Al-kharj and an additional 3 km^2 at neighbouring khafs Daghra, largely with the help of machines and primarily for the Riyadh market.

(1) Peter Beamont,
The Middle East, Pristol 1977, p. 319.

The Al-kharj project was followed in the late 1940's by the establishment of experimental farms in different parts of the country, and an attack was launched on the problems of Saudi Arabia's largest oasis Al-Hasa. Al-Hasa had been suffering from severe depression. Population pressure had become extreme and was increasing, while the cultivated area was continually being diminished by drifting sand and salinity. Date palms, the main crop, were low yielding, partly because of their age and partly because of a high water table. Water though abundant, was inefficiently used.

Attempts to improve the situation began in 1949. Crop diversification was introduced, improved strains were employed and the use of water improved. Pumps allowed the extention of irrigation, while the construction of the Al-dammam to Riyadh railway, and the subsequent completion of modern roads, has solved the marketing problem by allowing export to the capital, on one hand, and to the thriving oil settlements on the other.

The government has, especially since 1962 increased its attention and allocations to agriculture in an effect of increase agricultural production. It has done this through land reclamation, the introduction of knowledge and technique of modern farming practices, to increase numbers of farmers, the distribution of imported seeds at low cost, and the establishment of production and distribution cooperatives and an agricultural credit bank. The result was an increase of agriculture in the national income from 1% in 1976 to 1.7% in year 1980

The success of land reclamation and water development projects would permit not only an increase in the production of farm crops for human consumption, but also the possibility of devoting a larger portion of the irrigated lands to the prodnction of fodder crops for livestock. These fodder crops could then be utilized to supplement the inadequate supplies of natural vegetation upon which most of the livestock in the country depend.

The identification of hydroagricultural resources in the country started as early as 1964. The country was sectioned into eight areas (Fig. 4) plus Jeddah Mecca-Taif region. Primary surveys for the first six covering an area of about 1,3 million km^2 were completed in 1970. the survey of the Arabian shield about 204 km^2 of area eight, is in progress while that of the seventh (Rub Al-khali) empty quarter has not been conducted because of its negligible population.

The six studied areas are the following[1] :

Area 1 (the great Nafud basin) :

A large area suitable for a wide variety of crops. The main regions of this basin are Qassim, Wadi Sirhan, Al-Jowf, Sakakah, Tabuk, Al-ula, Al-kuhayfiyah, and Wadi Al-khuwayer.

Qassim is one of most important agricultural regions of the country, and it is expected to contribute about 30% of the total agricultural production of Saudia Arabia in the near future. It's climate and water resources make it suitable for producing a variety of crops all year round. The main crops are wheat, barley, alfafa, vegetables and fruits, particularly dates, grapes and citrus.

Area 2 and 3 (South – West region) :

This region, plus the Jeddah – Mecca - Taif, extends from Tihama in the west to the borders of Rub-al-khali (the empty quarter) in the east covering Asir, Hijaz platean and Najd plain. It is one of the two regions in Saudi Arabia where rainfall is rather moderate and where rainfed agriculture is common, particularly in the Asir mountains. About 108,000 hectares are cultivated, and an additional 909,000 hectares are arable lands. The major region is Wadi Dawaser which has a good agricultural potential. The government has already contracted a turn-key project of 300 hectarea for complete development and in the meantime is experimenting ith crops most suited for the region.

Area 4 (Eastern Region) :

Large areas in this region are arable, and 20,000 hectares are under cultivation. The main agricultural areas are Al-Hasa and Qatif oasis, Haradh, Wadi Al-Miyah, and Yabrin are also important agricultural regions.

In order to develop Al-Hasa and Qatif, sand dunes and soil salinity have required special solutions. For example, the Al-Hasa irrigation and drainage project was completed in 1971. It is the largest one-block ir-

(1) Hinistry of Agriculture and Water,
Agricultural investment in Saudi Arabia, Riyadh, 1979.

rigated area in the country. The presently irrigated area is about 12,000 hectares and could be increased to 20.000 hectares after land reclamation.

Haradh and Wadi Al-Miyah have good agricultural potential because of the availability of water in Umm-Erradhma aquifer. About 350,000 km^2 in the Umm-Erradhma area are presently under detailed study to identify water potentialities for the development of suitable agricultural areas. The major crops in this region are dates, alfalfa, and vegetables. About 3,2 million date-palm trees are planted in Al-hasa and Qatif oasis.

Area 5 (Riyadh Region) :

This region covers an area of about 108,000 km^2 surrounding Riyadh. The main agricultural region is the Al-kharj plain with about 18,000 hectares of arable land which has suitable water resources. Al-kharj aquifer is estimated to contain about 10,000 million m^3 and the surrounding limestone contains additional water reserves.

The Aflaj plain is the second area in importance with a good potential for agricultural development. Six other regions with about 17,000 hectares of arable land also have a good agricultural potential.

Area 6 (The Red Sea Coast) :

This region extends on the Red Sea coast from the Jordan borders in the north of Yamen in the south and is devided into two sub-regions of different climates part covers an area of 140,000 km^2 with an estimated 3,225 hectares of arable land. Agricultural development in limited because of low water reserves and light precipitation. The southern part covers an area of 54,000 km forms a part of the Asir province, and has a great potential for agriculture, especially in the south and north. Tihama surface water constitutes the major source of irrigation water and amounts to more than 1400 million m^3. Sorghum and millets are the main corps in Jizan region.

Agricultural labour is a main constraint on agricultural development in Saudi Arabia. According to the 1974 population census, 40 percent of the total manpower was employed in agriculture and fisheries (table 5). Because this figure includes beduins who live mainlyh on livestock production and fisheries, the number of agricultural workers may be overestimated. But it was a problem to find census including manpower employed in agriculture only, even in the last ones.

The shortage in skilled labour has been partially alleviated by the hiring of foneigners especially form Egypt, Many private agricultural enterpriseg are onaged by non-Saudi nationals. The government fecogaized the importance of developing the quality of human resoures, so training programs, and agricultural colleges are established to fill the gap of the shortage in quantity and quality of agricultural labour.

Table 5

Manpower by Occupational Groups
(1974/75 in thousands)

Occupation	Saudi	Non-Saudi	Total
Agriculture and fishing	655.2	27.5	682.7
Professionals	135.4	104.4	239.8
Craftsmen and labourers	222.7	122.9	345.6
Clerical / personnel	109.1	11.8	120.9
Commercial	66.2	41.1	107.3
Services	117.8	66.3	184.1
Managerial	18.6	4.2	22.8
Total	1.325	378.2	1.703.2

Source : Central Department of Statistics of Saudi Arabia, 1975.

B – Irrigation :

Irrigation is almost entirely by flooding the fields. The way in which the land is flooded depends on the source of water supply in the various agricultural regions.

On the Tihama coastal plain, cultivation depends almost entirely on monsoon floods in june through September, although winter rains from December to Fabruary permit dry farming to limited extent. Wadis are dammed partially or completely to divert the floodwater to the cultivated basins. The basins, which are surrounded by dikes, are soaked one by one, starting with the upper lands.

Dry farming is practiced to a greater extent on the higher elevation in the Asir mountains, where terrace farming is highly developed. To supplement the menger rainfall the rain falling on uncultivated slopes is collected and

diverted to the walled terraces by channels which are often cemented to prevent seepage. The waters are allowed to deseend from terrace to terrace. It is generally consideredd that between two to four hectares of uncultivated land must be used as a catch basin for every hectare of land under cultivation[1]

In Estern Region, irrigation of the larger fields, which are mainly devoted to dates and rice, it done by diversion of water from artesian springs by gravity through canals to the fields. The fields are irrigated at specified times, and then the farmer allows the surplus water to drain into a secondary canal which leads the water to a lower field. The saline content of the water increases as it passes through each field. When it has become too salty to be usable, the remaining watr is allowed to evaporate, forming a "Sabkha" (salt flat) at the far end of the cultivated area.

To irrigate the smaller fields in Eastern Region devoted mainly to alfafa and vegetables, water is lifted from springs and wells by animal power or mechanized pumps into irrigatin ditches running along the sides of the fields or into a reservoir from which it is diverted at will. If only small amounts are needed, the water from the irrigation ditches is lifted by a simple hand-operated lift.

Wells and pits provide the water for the oasis agriculture throughout the country, particularly in the interior and in the Hejaz, Lifting is done by pumps.

With agriculture so dependent on scarce water resources, it is essential that water be efficiently tapped from its sources and carefully preserved. Much water has been wasted because of a lack of knowledge about water requirements for different crops in different environments. Water facilities are generally aimed at immediate water distribution.

In recent years, the Ministry of Agriculture and Water has been active in the development of a number of irrigation projects. The Al-Hasa Irrigation and Brainage Project is an excellent example. The introduction of large scale farming and the establishment of the Saudi Arabian

(1) Norman G. Walpole,
Area handbook for Saudi Arabia,
London, 1971, p. 217.

Agricultural Bank in 1964 1964 have prompted farmers to adopt modern irrigation system which are mechanized and save jabour. Irrigation systems and equipment were the largest recipients of loans from the agricultural Bank in 1977.

New projects primarily use either the drip or sprinkler irrigation method. The drip system is more widely used for irrigating vegetables and orchards and its use is being encouraged by the government. The center pivot irrigation system was introduced in 1977 with only one such system. At present (1983), are over 30 systems in operation, and each is capable of irrigating up to 50 hectares.

C - Water Rights

Most landowaership is valueless accompanied by the possession of water. Regulations covering the ownership, distribution use of water are therefore of primary importance. Community rights seem to apply only to the unowned water resources such as rain water falling on unowned cultivated land.

Most water rights can be sold, purshased, rented and inherited independently of land. Thus, those who acquire land in excess of that which they can sufficiently irrigate have the possibility of purchasing or renting additional water rights from those who own more water rights than they need for their plot of land. Only in Asir and on the coastal plain of the Red Sea where precipitation is relatively plentiful, are water rights bound to the land and not to the individual.

Water regulations among the settled farmers are highly developed and complex, covering the rotation of use of water which correspond to the water rights. The distribation of water is often supervised and controlled by officials appointed and paid by water owners and users.

Water from wells, pits and springs is considered private water and the rights to it are assigned to individuals. The person or persons who contribate to the construction of the water equipment own the water and have exclusive rights to use or sell it.

Uanally a property owner holds the rights to all the water sources on his land. No permit is necessary for constructing a well on one's own proper-

ty, but a permit from the district Amir is required if the well is to be built on previously uncultivated land. Wells which are dug by nomads belong to the tribe as long as it remains in the area. Once it leaves, the well becomes public property.

The water for artesian springs which are found in Mastern province depend on the original owner's contribution to the construction of spring casings, reservoirs and the distribution mechanism, and on the inheritance or purchase of these rights. They are registered with the village administration, and a "water responsible" supervises the water distribution, which is done on a time basis.

Water rights which are bound to the land as they are in Asir are rights to the floodwaters derived from the wadis which are dammed to divert the water to the cultivated fields by means of canals. Each canal supplies a plot of land which carries the water rights. Upper lands are irrigated before the water is let through to the lower lands before the upper ones have been thoroughly soaked.

Primary water rights are limited to the lands which have traditionally held the rights. Lands which have been brought into cultivation since the original water rights were distributed have second or rights that is they are irrigated only if there is surplus water. Some lands have no rights at all and only occasionally receive surplus water. The traditional regulations are so strong that they effectively prevent landowners from increasing their water rights by the construction of new dams, even if new "wadis" have been formed.

The contributions towards the upkeep of the canal depends on the size of the land held by the individual. However, the farmers working the lands which have only secondary rights pay half as much as those with land with primary rights.

Rainwater belongs to the owner of the land on which it falls. He cannot, however refuse this water for the irrigation of land where crops are in danger. Rainwater falling on lands owned by the state can be used by any person as long as the cultivated land nearest the rainwater usually has priority.

D – Crop Production :

The cropping pattern which will develop with irrigation depends on the agricultural productivity of the land. About 331,000 hectares of land are under cultivation of winter crops in the country (table 6). Of this area 72 percent of the land is not irrigated, While 23 percent is irrigated. In addition, about 72,000 hectares are planted with permanent crops.

Cereal crops constitute the largest group of crops in Saudi Arabia (table 7). Among these, sorghum constitutes the leading crop. It is grown both as a winter and summer crop mainly in the south-west region around Jizan. The area allocated to this crop has increased steadily over the years. Millet is another important crop grown in the same region. It should be noted that estimates for all crops vary considerably from one source to another.

Wheat is another important crop. It is grown mainly in the Asir, Riyadh, Mecca and Qussim region. The area planted with wheat has been increasing steadily and new high-yielding varieties have been introduced into the country. This we can learn from the increase of area cultivated. It was 62,000 hectares in year 1974 increased to 80,000 hectares in 1977 (table 7), and to 85,000 hectares in 1980[1].

Tomattoes among the vegetables rank (table 8) and are grown as winter and summer crops in most regions of the country especially in Riyadh, Mecca and Esatern Region. Other vegetables include dry onions, eggplant, squash and okra. Watermelons constitute another important crop.

The permament crops of the country are mainly dates, grapes, and citrus with the first being the most important. There are about 11 million date palms.

---

(1) F.A.O. Production Yearbook, Vol. 55, 1981.

Table 6

Cultivated areas of winter and Permanent Crops

In the various regions of Saudi Arabia

(1975/76 in hectares)

Region	Winter Irrigated	Temporary Crops[x] Not Irrigated	Total	Permanent Crops
Eastern	1,949		1,949	10,241
Riyadh, Afif,				
Al-Khasira	21,847	123	21,970	19,345
Qassim	17,186		17,186	4,818
Hail	4,885		4,885	5,817
Jouf, Qurayat				
Tabuk	61	151	212	2,360
Medina	1,867	1	1,868	4,301
Mecca	18,780	42,320	61,100	13,246
Asir	15,709	16,582	32,291	7,833
Al-Bahah	1,563	5,202	6,765	560
Jizan	3,337	175,623	178,960	1,383
Nijran	3,949		3,949	1,688
T o 1d J133	240,002	331,135	71,592	

x Includes alfalfa.

Source, Ministry of Agriculture and Water of Saudi Arabia.

Table 7

Estimated Area of main crops in principal Regions in Saudi Arabia (1977 / 78) in Hectares[1]

Region	Winter temporary crops					Summer temporary crops		
	Wheat	Millet	Sorghum	Maize	Barley	Millet	Sorghum	Maize
Eastern	2 09,0	–	–		5,9	–	–	–
Riyadh, Afif, Khasra	150 01,3	20,0	2 79,0	86,3	4 45,7	1 66,1	7 58,6	
Gassim	109 76,4	–	–	–	13 08,3	–	23,97,3	5,0
Hail	11 28,8	–	–	–	88,8	–	–	–
Jouf, Qurayat, Tabouk	2 16,0	–	–		59,2		–	1,1
Medina	14 21,0	20,8	–	–	2 01,1	6,5	1,7	7,5
Mecca	75 31,8	32 28,2	187 58,8	8,0	10 55,2	24 80,6	561 81,5	2 41,8
Asir	166 27,0	11 48,3	67 73,0	41,6	37 80,2	54,2	184 88,4	19,0
Al-Baha	45 69,2	4 08,3	20 95,9	1,9	10 72,3	1 57,4	15 07,5	1 86,2
Jizan	–	191 85,6	1 541 61,4	2 13,5		66 75,1	408 90,9	–
Najran	22 31,8	–	–	–	4,8		1 63,4	–
Total :	599 12,3	240 11,2	1 820 68,1	3 51,3	80 21,5	95 39,9	1 203 99,3	4 60,6

[1] 10 Donums = one hectare = 2,379 Feddan.

Source : 1. Central Department of Statistics, statistical yearbook 1979, (S.A.).

2. Ministry of Agriculture and Water of Saudi Arabia.

3. Personal work (The table is a rework from different tables, and the areas are changed from donums to hectares.

Table 8

Estimates of permanent crops, and some other important crops in S.A.

(Production by ton 1977 / 78)

Region	Permanent Crops Dates	Grapes	Citrus	Sesame (1)	Tomatoes (1)	Potatoes	Onions	Fodder Crops Winter (2)	Summer (2)
Eastern	113,240	..298	.982	..	28,115	16	6,706	.548	19,845
Riyadh, Afif, Khasra	100,709	13,682	3,893	–	70,999	9	11,314	8,828	62,212
Qassim	85,569	9,620	4,975	–	15,961	–	73,348	18,842	45,744
Ha..	31,172	1,788	.123	.	1,815	-	.717	1,893	6,608
Jouf, Quraiyat, Tebuk	3,266	4,027	-	–	2,226	–	1,207	16	2,120
Medina	19,356	6,595	.308	-	3,369	2	,153	12,174	6,328
Mecca	57,516	3,110	..377	.121	28,113	1,120	,300	15,624	7,167
Asir	21,962	8,863	5,406	1,193	5,758	3,353	1,302	10,823	43,407
Al-Baha	,364	5,476	–	–	2,077	51	3	5,663	18,625
Jizan	-	–	,212	15	,212	13	–	94,607	12,151
Najran	5,234	1,420	1,591	.	10,880	61	-	7,049	14,686
Total :	411,388	55,877	28,867	1,329	169,525	4,625	95,032	175,707	226,983

(1) Winter and Summer crops.

(2) Area by donums including Alfalfa.

Source : (1) Ministry of Agriculture and Water of S.A.

(2) Central department of Statistics, Statistical yearbook 1979, S.A.

(3) Personel work (The table is a rework from different tables)

More areas are planted with citurs trees. There were more than one million trees in 1975/76 of which more than 600,000 are in production stage.

In terms of area under field crop cultivation, the central Region comes the first, followed by the southern region, Qassim, Taif and Al-Hasa (Fig. 5)

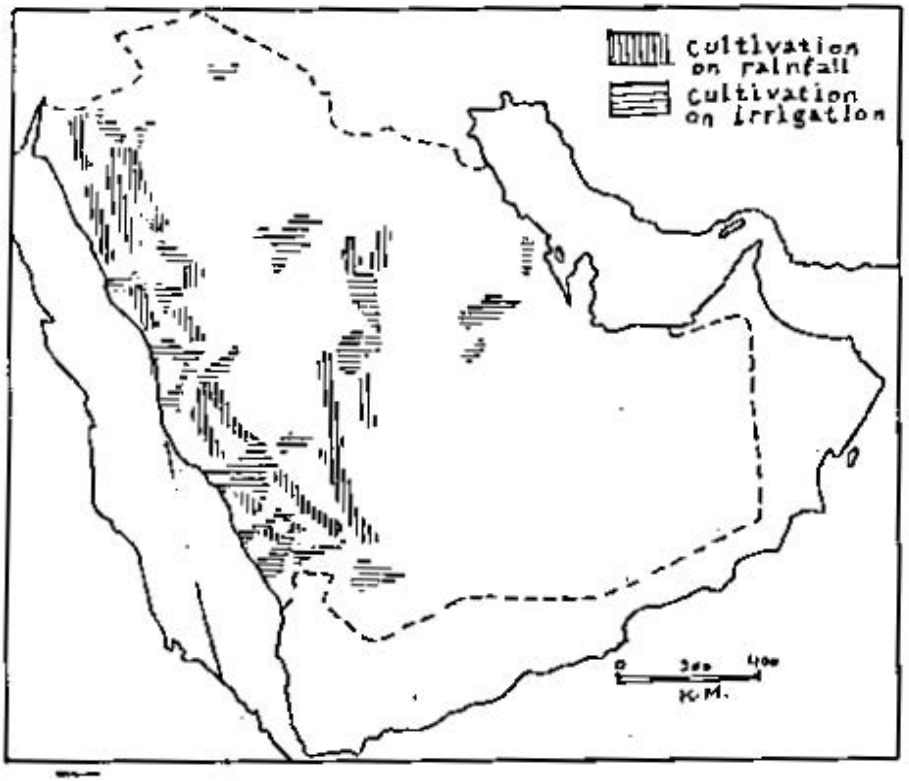

Fig. 5 : Main Agriculture Areas of Saudi Arabia.

We can learn the importance of agriculture from the decrease of imports of wheat, barley and millet (table 9).

Table 9

Quantity of Principal Imports to S.A.
(1976 – 1978 In m.tons)

Item	1976	1978
Wheat	36940	29307
Barley	118991	53389
Maize	196487	304732
Rice	243983	404070
Millet	10299	4082
Wheat flower	336770	380311

Source : Central Department of Statistics, S.A.
Statistical Yearbook, 1970/1979.

E Farm units :

Agricultural holdings in Saudi Arabia have different characteristics in different parts of the country. While the smallest holdings are found in the mountainous regions of Asir, Al-Baha and in the Eastern region (2-5 hectares). In Najd farm units ranged between 6-20 hectares, while in Hejaz farm units ranges between 10-30 hectares. The largest are in Qassim and in Riyadh-Afif. There are farms of as much as 100 hectares and a few even larger.

The Ministry of Agriculture and Water is at present encouraging large-scale farming and business type farm enterprises This should lead to a reduction in high fixed investment costs per unit of land and may lower final production costs.

The size of land distributed depends on whether the beneficiary is an individual or a company, and on other factors such as the total of virgin land to be distributed under the programme relative to the number of applications, the fertility of the land, availability of water, the applicant's qualifications and experience in agriculture. The area distributed to in-

dividuels normally ranges between 5 – 20 hectares. The maximum area per company is 100 hectares.

F – Crop rotation :

Crop rotation is practiced in all agricultural areas. On irrigated highlands of Asir there is usually a triennial rotation of wheat, sorghum and lentils or wheat, barley and lentils. Both sets of rotations are planted early in March and harvested in July.

A second growing season applies when the monsoon rains are utilized, the planting is in late May, the harvesting in October. The land remains fallow in the infrequent cases of insufficient rain. In the Tihama coastal plain there is a triennial rotation of sorghum, millet and sesame. On the irrigated land, the crops are planted in late May and are harvested in October. Under dry-farming conditions, they are planted in November and are harvested in July.

Perennially irrigated land is cultivated every year. In Majd and northern Hijaz a biannual rotation of wheat and barley or barley and occasionally, lentils is practiced. Planting is in late February or early March, harvesting is in July. The land is left fallow the rest of the year. In truck farming areas such as Wadi Fatma, two crops are usually grown each year. In Al-kharj, three crops are grown each year. In the low-lying of Al-Hasa and Qatif in Eastern Region, where the availability of water from artesian wells and springs favors agriculture, crops are grown the year round.

6 Problems of Agriculture in Saudi Arabia

Despite the low precipitation totals prevailing overmuch of the country, Saudi Arabia is fortunate in possessing large volumes of ground water contained in eleven major aquifers. The government over the last decade has initiated a number of large water resources projects. But despite these projects and the remarkable efforts to assure water resources for agriculture, there are some problems efforts to assure water resources for agriculture, there are some problems facing the development of agriculture as :

The increasing urbanization led to an increases in water consumption needed for agriculture. The government has decided upon desalination methods as a solution to the problem. The government established a number of large disalination plants on the Red Sea and Gulf coast

(fig. 6), but still not enough, since there are big towns still depend on ground water as Riyadh, Qassim and Hail.

- The most glaring need in dealing with arid land irrigation as in Saudi Arabia is to apply the scientific knowledge. The Government must get to the farmers and show them what should be done, since farming practices are in general, cues that have been used for centuries.

- Soil evosion by surface water and wind presents a serious problem cultivated land.

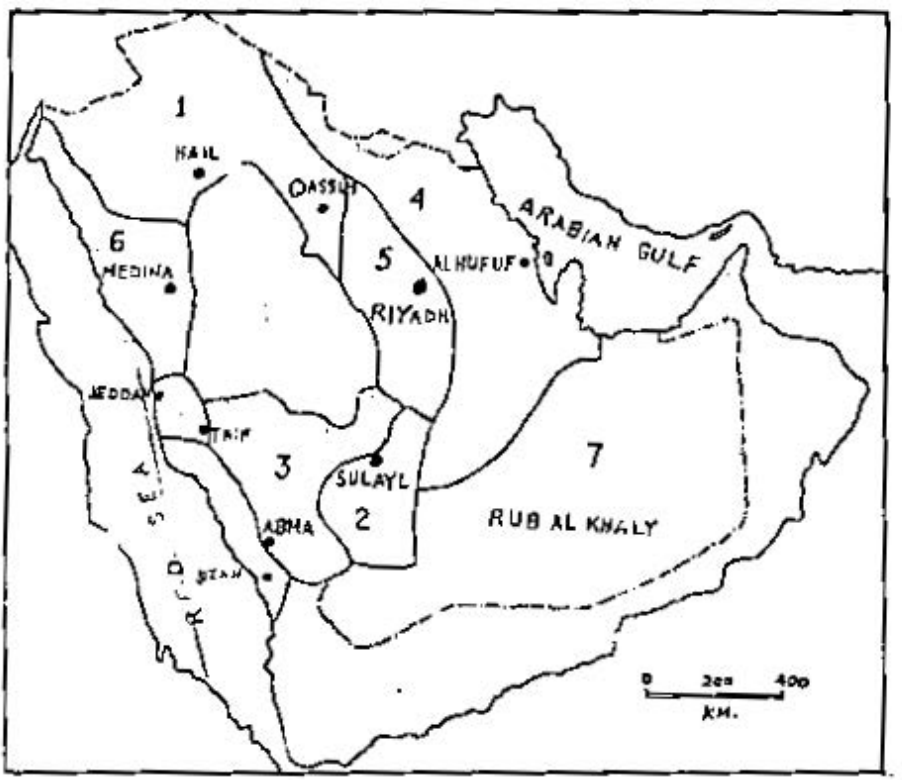

Fig. 6 : Location of Main Disalination Plants in Saudi Arabia.

- Except the alluvial soils in the wadi valleys, the soils are seriously deficient in nitrogen and phosphates. This we can learn from the increased imports of fertilizers which increased from about seven million tons in 1979 to about 13 million tons in 1980.

  The possibility of population must be taken into account, since a great part of labour needed for agriculture (table 5) are foreigners, some are not well experienced, Others are from countries differ in the method of agriculture compared to Saudi Arabia. All these factors have their influence on the production.

- Inadequate training of farmers is one of the main causes of the misuse of water and reduced effeciency, unless the farmer understands the value of water.

  One of the great problems facing agriculture in Saudi Arabia is salinity as in the Eastern Region. Salinity is due to the presence of high-water table caused by the excessive seepags. To improve such situation, the first step should be to provide suitable drainage which allows for the lowering of water table below the critical level of capillary action.

- Design and operation of water supply systems should provide the required amounts of water at the time needed together with messuring devices which maintain uniform flows at the farm level to cope with the water requirements of crops.

- Agriculture in Saudi Arabia depends mainly on the limited ground water resources of varying salinity, and irrigation under such arid conditions leads to increased soil salinity. The overuse of ground water resources results in deterioration in water quality which in turn aggravates the salinity problem, particularly where the water quantity is insufficient for adequate leaching alfalfa, being relatively salt tolerant constitutes one of the main crops in the country.

- The extraction of water from underground aquifers may induce undesirable intrusion of sea water or connate brines into the aquifer which over a period of time can cause the quality of the water in the wells in the intrusion path to deteriarate and become unsuitable for irrigation. The deterioration usually is gradual occuring first in the

wells nearest the source of the brines of remedian action is not taken substantial portions of the aquifer may become unasable or several decades or longer. Reduction in pumping drafts artificial rechage of imported water by speading grounds or injection wells, or the use of water or injection or withdrawal wells, are methods which have been used successgully to half, and in some cases to reverse the intrusion[1].

Saline intrusion into well fields in coastal areas near saline bodies of water should always be expected to occur sooner or later. The reasons for sustained increases in salinity of any wells should be investigated promptly, regardless of well field location, so that remedial action can be taken, if necessary before irreparable damage is done to the aquifers.

The wide scale irrigation programmes in the country bring about some serious dangers in the field of health. The health problems that arise are of course those of water transmissible diseases, such as schistosemiasis, but also those connected with the immigation of new pupulations, the creation new rural communities, and new habitats and housing. All these phenomena cause a potential aggravation to the environment. To acheive this target, action in the field of health should begin as early as the planning phase of an irrigation project, in view of the evolution of the situation, the forecast of the dangers, the discussions ofthe choice of the measures ot be taken. This action has to be continued during the implementation phase during the excution of the project and long after the irrigation system has been built and put into operation, so as to assume the surveillance of the health situation and the maintenance and the improvement of the results that have already been achieved.

- The health service can be efficient only if integrated in the project as part of a whole, financially administratively, and only if sincerely accepted by those responsible for the programme[1].

(1) Fredrick L. Hotes,
Arid land Irrigation in Developing Countries, London 1978, p. 149.

(1) Alexis Countharas,
Arid and Irrigation in Developing Countries,
London 1979, p. 345.

Saudi Arabia has large areas of sandy soils. Such soils have very low water-holding capacity and the effeciency of water use is excesdingly low under the traditional irrigation methods. It is very costly to develop such lands.

Sand dunes represent a great problem in Najd and in Eastern Region. The hedges are important for protection of land from the drifting sand dunes

Conclusion :

Saudi Arabia is going fast in economic development, especially in agriculture to face the problem of food demand. As a consequence, demands on water resources are growing, since water is a major factor limiting the agricultural development in Saudi Arabia.

Despite the low precipitation totals prevailing over much of the country, Saudi Arabia has a huge volumes of groundwater in eleven aquifers. These have been developed in the Eastern region mainly for irrigation purposes.

Saudi Arabia, to have advantages of the existance of water rsources, it has established the dams, wells, loans to the farmers, facilitate the means of transportation, training, import fertilizers, the new technology began to replace the old that have been used for centuries, and a reorganization of the entire production sector began to occur.

Saudi Arabia began to make use of its coastal waters by means of desalination techniques to face the problem of towns situated in areas where groundwater resources cannot be easily tapped, also to keep on groundwater for agricultural use.

Though Saudi Arabia has succeeded to have good results, there are some problems facing the agricultural development as : 1) the problem of salinity in irrigated areas which exists in the soil if water is applied excessively, or in the absence of drainage 2) the sandy soil areas which have a very low water-holding capacity. 3) inadequate training of farmers and the shortage of Saudian agricultural labour, 4) soil erosion by surface water and wind, 5) the drifting sand dunes as in the Eastern region and Najd, 6) the soils except in the wadi vallays are seriously deficient in nitrogen and

phosphates, 7) the misuse of water resources, since the improved water use and soil management practices are needed.

The above problems must be in mind in the agricultural policy, to obtain the benifits of any efforts done in this field, and to have the advantages of the water resources existance in an arid area as in Saudi Arabia.

REFERENCES

1. Alexis Coumbaras,
   Arid land irrigation in Developing Countries,
   London 1978.

2. A.P.A. Vink,
   Land Use in advancing Agriculture,
   Berlin 1975

3. Central Department of Statistics of Saudi Arabia,
Riyadh 1974

4. Central Department of Statistics, Statistical Yearbook of Saudi Arabia,
   Riyadh 1979.

5. Chamber of Commerce,
   Bourida, Qassim, unpublished reports.

6. Charles R.Goldman and others,
   Environment Quality and Water Development,
   San Francisco 1973.

7. Fredrick L. Motes,
   Arid Land Irrigation in Developing Countries,
   London 1978.

8. Reinrich Walter,
   Vegetation of the Earth,
   New York 1977.

9. John W. Goodwin,
   Agricultural Economics,
   Reston, Virginia 1977.

10. L. Arnon,
    Crop production in Arid Regions.
    London 1972.

11. L. Douglas James and Robert R. Lee,
    Economics of Water Resources,
    New Delhi 1971.

12. Ministry of Agricultural and Water,
    A grade to Agricultural Investment in Saudi Arabia,
    Riyadh 1979.

13. K. Holy,
Arid Land Irrigation in Developing Countries,
London 1979.

14. Marten J. Chrispeels and David Sadava,
Plants, Food, and people,
San Francisco 1977

15. Norman C. Walpole,
Area Handbook for Saudi Arabia,
New York 1971

16. Peter Beaumont and others,
The Middle East,
Bristol 1977.

17. Peter Beaumont,
Water Development in Saudi Arabia,
The Geographical Journal,
Vol. 145, part 1, March 1977

18. Ramon Knauerhase,
The Saudi Arabia Economy,
New York 1977

19. Saudi Arabia Monetary Agency,
Annual report 1981.

20. W. N. Fisher,
The Middle East,
London 1970

AL - HARRA'AT AND LIKE PHENOMENA IN SAUDI ARABIA AND YEMEN TERRITORIES

M.R. MOHAMMAD
Department of Geology, Faculty of Science,
Alexandria University, Moharram-Beh, Alexandria,
Egypt.

ABSTRACT

This paper deals with the planimetric shapes and areas of the occurrences forming Al-Harra'at and like phenomena, together with their distribution and orientation. The arabic name «Harra», «Harrah», or «Harrat», plural «Al-Harra'at» is refered to the nearly flat area covered by black to dark grey volcanic eruptions mostly of late Tertiary to Quaternary periods. They occupy a total area of about 101. 127.8 km^2 throughout the territories of Saudi Arabia and Yemen, concentrated mainly near the Red Sea coast. The axes of occurrences predominate by length and number in directions parallel to the axis of the Red Sea and in direction inclined by acute angels, up to about 40°, to the east and west of it.

The occurrences range, in planimetric area, from few to more than 20,000 km^2, accordingly they are classified into six size categories; huge occurrences of 10,000 km^2 and more), big (less than 10,000 to 5,000 km^2), medium (less than 5,000 to 1,000 km^2), small (less than 1,000 to 100 km^2), minor (less than 100 to 10 km^2), and the fine category (less than 10 km^2). Occurrences are also differentiated according to their planimetric shapes into three main types, longitudinal; in which the length is more than 3.5 times the breadth, rectangular; length between 1.5 and 3.5 times breadth, and equidimentional. Other two shapes, stellar and fan shaped, are also distinguished. Most of the occurrences belong to the rectangular type.

Two extensive areas of intensive regional Tertiary-Quaternary volcanic activity are outlined throughout Arabian Peninsula; one covering more than 66,000 km^2 in the provinces of Al-Madinah, Makkah, and Ha'il (Saudi Arabia), and the second spreading over more than 45,000 km^2 in northern Saudi Arabia and neighbouring countries.

Few occurrences are found within the extreme southwest of Saudi Arabia. Many occurrences are scattered through Northern Yemen and the western part of Southern Yemen. Along the Gulf of Aden coast, occurrences are concentrated within four areas from Bab El-Mandab until Jibal Assud to the east.

The sizes of occurrences in Yemen territory as a whole do not exceed the medium size while those in Saudi Arabia reach up to the huge size.

INTRODUCTION

Volcanic activity in the Arabian Peninsula had increased through the Tertiary and Quaternary periods (Beydoun 1966, Brown 1970, and Coleman et al . 1970-75) covering vast areas especially in western parts of the peninsula near the Red Sea . Historic eruptions has also been reported in south western Syria, in western Saudi Arabia, in Yemen, and in Palestine . Tertiary and Quaternary eruptions constitute mostly Al-Harra'at and like phenomena in Saudi Arabia and Yemen (northern and southern) . About sixteen names of Al-Harra'at are written in the regional maps of the studied territories (Figs. 1 & 2), but too much local names are mentioned in the historical and geographical arabic books and dictionaries (Al-Andalusy 1947, Al-Hamawy 1956, Al-Balady 1978, Al-Qasir 1981 .. etc) in which more than eighty local names are mentioned just with their arbitrary locations . The same Harra may have more than one name and/or several names for each part of it in such publication.

Alkaline basaltic rocks, especially alkali olivine basalt, are the main constituents of Al-Harra'at and like phenomena (Coleman et al. 1970-75, Abed 1977, Al-Sayari and Zotle 1978), they are almost fresh to weakly altered dark fine grained volcanic rocks. The original rugged surfaces of eruptions are maintained in some exposures (Abo-Al-Haggag 1982).

This paper deals with general distribution, orientation, area, and shape of Al-Harra'at and like phenomens. The "like phenomena" comprise such occurrences that are similar to Al-Harra'at, as shown in the regional geologic maps, but are either nameless or with other names than "Harrah" The term "Al-Harra'at" will boused here as including such occurrences. Hundred and thirty nine occurrences are traced from the regional maps of the peninsula, mainly that of 1 : 2,000,000 (Brown and others 1963). They are numbered serially as shown in figures 1 & 2 and table 1. The leitz A.S.M. "Image Analysis System" is used for measuring the areas of occurrences.

DISTRIBUTION AND ORIENTATION

Al-Harra'at occur mostly in the western sector of the studied regions near the Red Sea coast (Figs. 1 & 2). Most of the bigger occurrences exist in

the basement complex of the Arabian shield especially of Saudi Arabia, of which about 79,000 km^2 are covered by Al-Harra'at.

This area represents about 83% from the sum area of Al-Harra'at in Saudi Arabia and Yemen. The rest 17% is scattered mainly through the northwestern and southeastern parts of the studied territories, where they overlay Eocene and Miocene sedimentary rocks (Brown and others 1963). Smaller occurrences are almost scattered around or between the bigger ones as in Saudi Arabia (Fig. 1), occasionally they are concentrated in separated areas like that of jibal Assud that contain 22 occurrences and Jabal As-Sawda that contain 5 occurrences, both areas occur in Yemen territory (Fig. 2).

The central parts of the Arabian shield comprise vast areas of Al-Harra'at, (about 70% from the sum), forming occurrences more or less close together. They may have been originally bigger or even twice their present areas and most probably connected together. This indicates an intensive Tertiary-Quaternary volcanic activity in this sector which includes the regions of Al-Madinah, Makkah, and parts of Ha'il (Fig. 6). Arab historians reported also a volcanic historic eruption in the extreme northern part of Rahat Harra at the eastern part of Al-Madinah (P.I.1). This eruption took place during 1250 A.D. (Abed 1977). Another area of intensive Tertiary-Quaternary volcanic eruptions is that occupied by Al-Harrah; a huge occurrence covering the extreme northern part of Saudi Arabia (Fig. 6) and extending through Jordan (Abed 1982) and Syria (Al-Egl 1974) with a total area of more than 45,000 km^2. This Harra is shown in few regional maps (Sir Julian Huxley 1978) as extending also into western Iraq.

Most of Al-Harra'at are in the plan view of longitudinal and rectangular types (Fig. 7-a & -b) with their long axes parallel to subparallel to the axis of the Red Sea. The lengths and directions of eighteen principal axes (the longest axis of each occurrence (Figs. 1 & 2), are measured and plotted in azimuthal frequency diagrams (Fig. 3-a & -c). Average length of such axes is about 105 km. The linear trends developed by the arrangement of the volcanic peaks, plotted on the topographic and geologic maps of the peninsula inside Al-Harra'at, are considered as structural axes or lineaments (Figs. 1 & 2). Sixteen of such axes with average length of about 95 km are identified measured and plotted by the same way (Fig. 3-b & -c). Considering, as detected from the azimuthal diagrams of figure 3, that

* Compiled from the geologic maps of the Peninsula.
Axes and numbers are added by the writer

Fig. 2

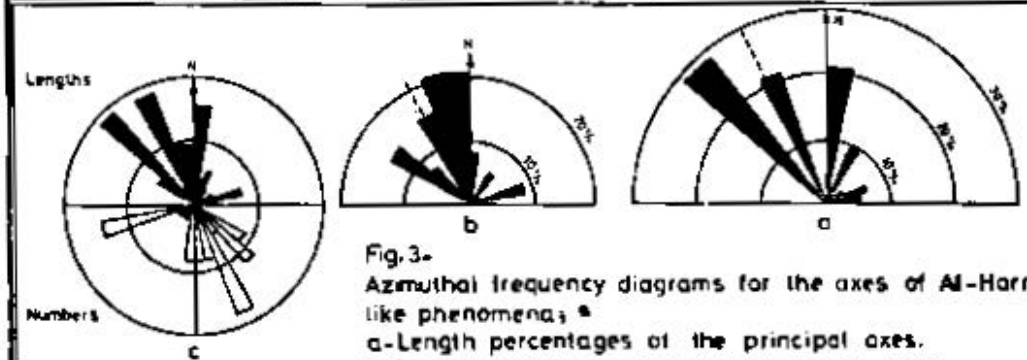

Fig. 3-
Azimuthal frequency diagrams for the axes of Al-Harrāt and like phenomena:
a-Length percentages of the principal axes.
b-Length percentages of the structural axes.
c-Length and number percentages of both principal and structural axes.

peaks of more than 10% may indicate local and/or regional significance, it is observed that :

a) Peaks of about 15% to 18% of length and number are developed parallel or nearly parallel to the axis of the Red Sea.

b) Peaks of about 15% to more than 20% are developed in directions (N-N 10°E) & (N-N 20°W) which are inclined to the axis of the Red Sea by acute angles up to 40°, or little more, to the east.

c) Peaks inclined to the west of the Red Sea axis, by acute angle up to about 32°, are developed in directions (N 40° - 50° W) with length percent of about 18% to 28% and in (N 50° - 60° W) with about 15% length percent.

d) A transverse number percent peak, approximately normal to the axis of the Red Sea, is developed in NEE direction (N 70° - 80°E) as shown in figure 3-c with smaller length percent peak, thus reflecting a relatively higher number of small elongated occurrences.

e. The two peaks: (N-N10°E) and (N 40° - 50°W) forming conjugate directions enclosing acute angle of maximum 60° around the axis of the Red Sea (Fig. 3-c), are characterized by larger length percent and smaller number percent, reflecting the few bigger occurrences in the studied territories.

These predominant directions emphasize the interdependence between Al-Harra'at volcanoes, which are mostly fissure erruptions, and the tectonic of the Red Sea. The axes of Al-Harra'at are almost parallel to inclined by acute angle (up to about 40°) to the east and west of the Red Sea axis which is trending approximately N 28° W. The structural axes are almost of much harmony with the Red Sea axis more than the principal axes.

AREA AND SHAPE

The areas of the hundred and thirty nine occurrences shown in figures 1 & 2 are measured, recorded in table 1, and plotted also in the columnar diagrams of figure 4. According to these areas, Al-Harra'at are classified into six size categories as follows :

1. Huge category, includes occurrences of 10,000 km^2 or more in area. It contains four occurrences in Saudi Arabia, their total area equals nearly 67% from the sum area of occurrences in the studied territories.

2. Big category, includes areas less than 10,000 km^2 to 5000 km^2, it contains two occurrences in Saudi Arabia, with total area of about 13% from the sum in the studied territories.
3. Medium category, includes areas less than 5000 km^2 to 1000 km^2.
4. Small category, of areas less than 1000 km^2 to 100 km^2.
5. Minor category, of areas less than 100 km^2 to 10 km^2.
6. Fine category, includes all the occurrences less than 10 km^2.

Total areas and number of occurrences of each category with their percentages are summerized in table 2 and plotted in the columnar frequency diagram of figure 5.

a) Area of Al-Harra'at in Saudi Arabia is much bigger than, about 15 times, that in Yemen. The huge and big categories appear only in Saudi Arabia, both together constitute about 80% by area from the sum in Saudi Arabia and Yemen territories.

b) The number of occurrences in each category is roughly inversely proportional to its area; few occurrences constitute the higher categories (huge, big, and medium), while much occurrences constitute the smaller categories (small, minor, and fine).

c) The minor category comprise the highest number percent of occurrences. Minor and fine together constitute about 73% from the sum number in Saudi Arabia and Yemen.

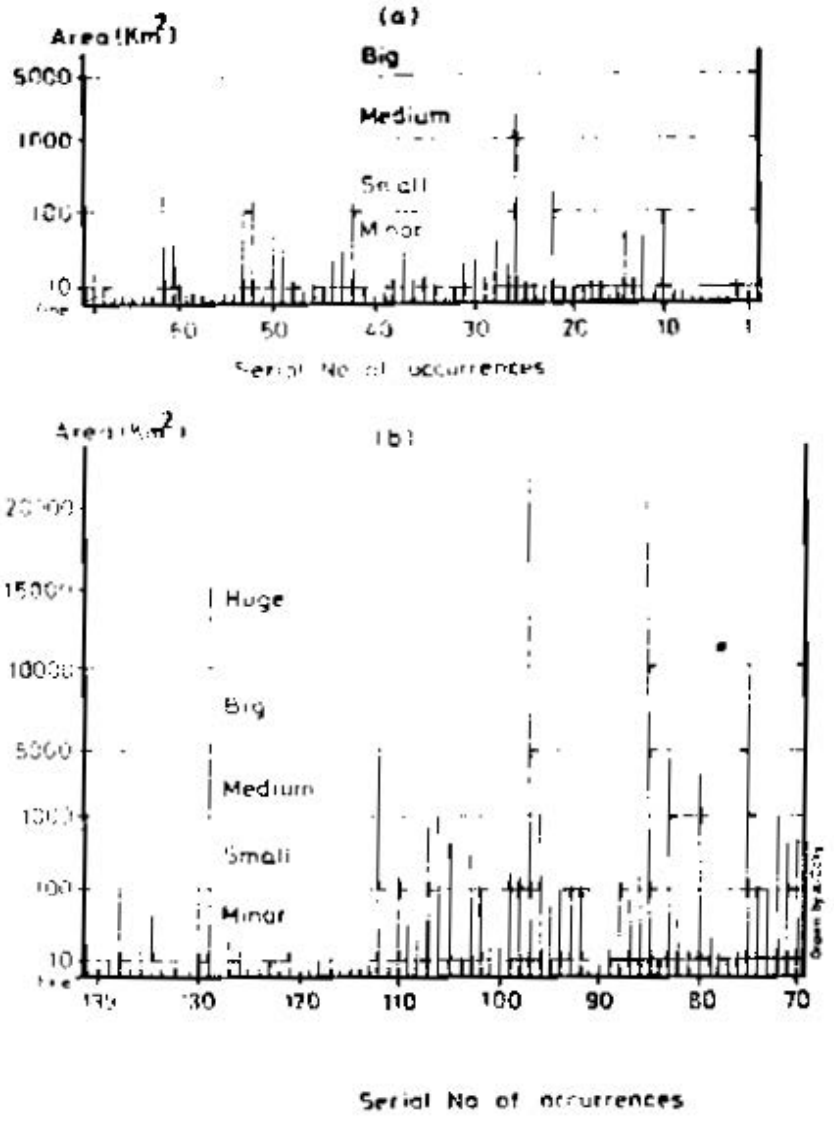

Fig. 4-
Columnar diagrams showing the plan-metric areas of occurrences in Yemen (a) and in Saudi Arabia (b)-horizontal lines separate the proposed size categories: huge, big, medium, small, minor, and fine (each with different vertical scale)

Table 1

The areas of Al-Harra'at measured by "Leitz A.S.M." :

A. In Yemen territory

Serial number	Area km^2	Ser. no.	Area km^2	Ser. no.	Area km^2	Ser. no.	Area km^2	Ser. no.	Area km^2
1	7.64	15	80.80	29	71.60	43	230.8057		3.10
2	13.4	16	11.68	30	27.00	44	51.6058		4.50
3	2.55	17	3.60	31	47.44	45	45.6059		6.70
4	3.12	18	18.84	32	38.20	46	11.4060		19.50
5	2.03	19	14.96	33	8.56	47	12.5061		67.60
6	3.12	20	9.68	34	2.70	48	6.2062		321.20
7	2.65	21	9.04	35	10.44	49	20.0063		4.68
8	3.40	22	10.92	36	24.80	50	58.0064		3.25
9	5.92	23	357.60	37	16.20	51	84.0065		5.00
10	8.10	24	11.04	38	55.80	52	5.5066		6.40
11	113.20	25	10.52	39	22.60	53	338.8067		3.80
12	9.20	26	14.00	40	6.88	54	106 8068		10.69
13	73.20	27	2664.00	41	4.80	55	6.3069		850.40
14	22.76	28	40.00	42	9.36	56	7.10		

B. In Saudi Arabian territory :

Ser. no.	Area km^2	Ser. no.	Area km^2	Ser. no.	Area km^2	Ser. no.	Area Ser. km^2 no.	Area km^2
70	688.00	84	13.24	98	280.00	112	7152.00126	29.00
71	476.40	85	20240.80	99	311.20	113	9.00127	37.70
72	1152.40	86	267.60	100	27.44	114	5.20128	4.00
73	125.60	87	90.80	101	30.88	115	6.60129	15227.60
74	120.80	88	176.8	102	121.20	116	4.20130	194.68
75	10832.50	89	26.36	103	552.40	117	36.00131	5.76
76	26.80	90	9.04	104	14.64	118	10.12132	14.80
77	15.60	91	3.74	105	652.40	119	5.28133	12.92
78	20.12	92	121.20	106	1165.84	120	5.60134	74.00
79	44.00	93	125.60	107	853.20	121	25.00135	25.88
80	3544.40	94	106.00	108	41.60	122	5.3136	10.76
81	26.20	95	79.20	109	64.80	123	7.6137	118.80
82	64.40	96	1056.40	110	269.60	124	8.72138	15.60
83	6264.00	97	21662.20	111	44.80	125	7.64139	113.60

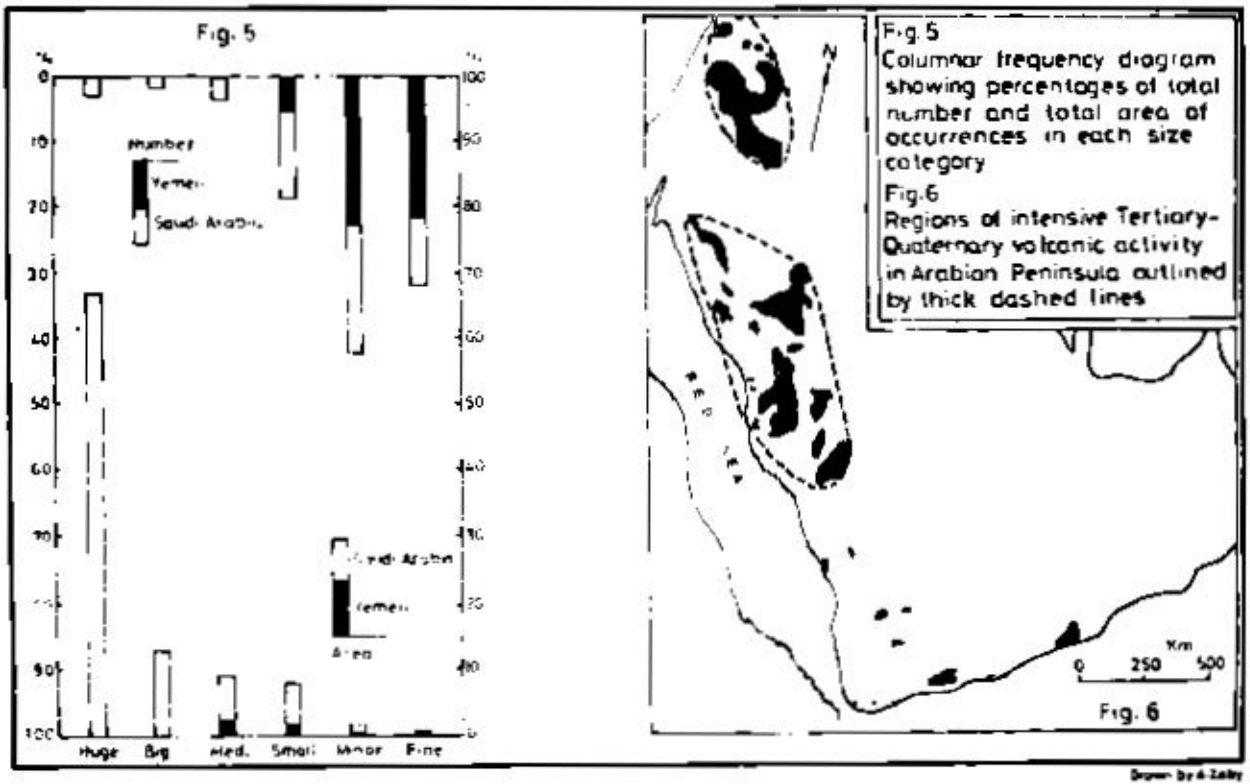

Fig. 5
Columnar frequency diagram showing percentages of total number and total area of occurrences in each size category

Fig. 6
Regions of intensive Tertiary-Quaternary volcanic activity in Arabian Peninsula outlined by thick dashed lines

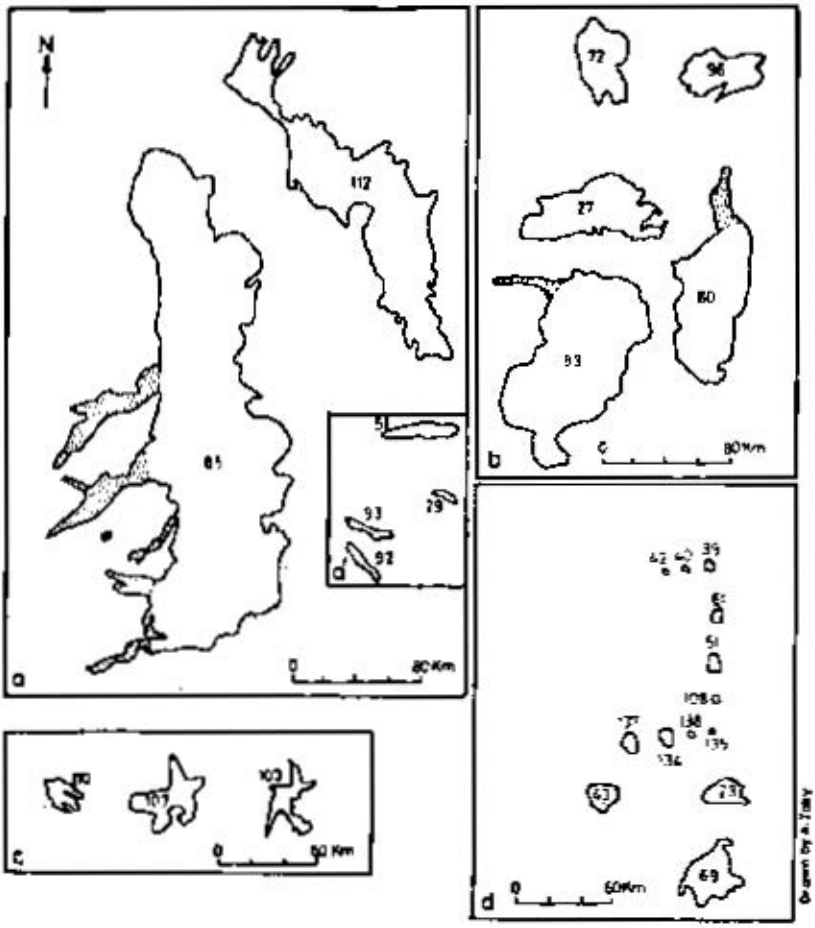

Fig. 7 -

Planimetric shapes of Al-Harraat and like phenomena; a & a'; longitudinal, b, rectangular, c, stellar and fan shape, and d; rounded to polygonal equidimentional. Side branches (stippled parts), especially of the large occurrences, are not considered. Each occurrence has its serial No as shown in Figs 1 & 2 and in Tab. 1.

Table 2

Classification of Al-Harra'at according to their planimetric areas shown in table 1 and fig. 4.

Category	Country	No. of Occurrences		Area of Categories	
		No.	Percent	Area (km^2)	Percent
Huge	Saudia	4	2.9 %	67963.10	67.2 %
	Yemen		-	-	-
Big	Saudia	2	1.4 %	13416.00	13.26 %
	Yemen		-		
Medium	Saudia	4	2.9 %	6919.04	6.84 %
	Yemen	1	0.7 %	2664.00	2.63 %
Small	Saudia	19	13.7 %	5675.08	5.61 %
	Yemen	7	5.0 %	2318.80	2.31 %
Minor	Saudia	27	19.4 %	922.66	0.91 %
	Yemen	31	22.3 %	997.09	0.98 %
Fine	Saudia	14	10.1 %	87.68	0.10 %
	Yemen	30	21.6 %	164.36	0.16 %
Total	Saudia	70	50.4 %	94983.56	93.92 %
	Yemen	69	49.6 %	6144.25	6.08 %
Sum		139	100.0 %	101127.81	100.00 %

Al-Harra'at may also be classified according to their planimetric shapes into three principal types; longitudinal, rectangular, and equidimentional. The parameter for such types is considered to be L/B ratio, in which L represents the maximum length and B represents the approximate mean breadth of the occurrences. Transverse volcanic conspicuous branches, occasionally observed as extending from the big and huge occurrences, are disregarded when measuring B. It is proposed that the ratio L/B for the longitudinal type of occurrences should be more than 3.4, for the rectangular type; less than 1.5. The two variables; area and L. B are put in a

cross-tabulated contingency table (Table 3). The table is self-explanatory indicating that a. Most of the occurrences belong to the rectangular type. b. Smaller occurrences (tiny, minor and small categories) tend to be of equidimentional and rectangular types, this is indicated by the large number of them in such types. c. Bigger occurrences (big and huge categories) tend to be of the rectangular and longitudinal types of shape.

Table 3

Cross-tabulated contingency table for area by L/B showing number of occurrences and their frequencies in the six categories of area.

L/B / Area		Equidimensional less than 1.5	Rectangular 1.5-3.5	Longitudinal more than 3.5	Total
Tiny	No.	16	28	0	44
	perc.	36.4	31.3	0.0	31.7
Minor	No.	22	31	5	58
	perc.	50.5	36.9	45.5	41.7
Small	No.	5	17	4	26
	perc.	11.4	20.2	36.3	18.7
Medium	No.	1	4	0	5
	perc.	2.3	4.8	0.0	3.6
Big	No.	0	1	1	2
	perc.	0.0	3.6	9.1	2.9
Huge	No.	0	3	1	4
	perc.	0.0	3.6	9.1	2.9
Total	No.	44	84	11	139
	perc.	100.0	100.1	100.0	100.0

Other shapes of Al-Harrat that may also be identified include the "fan shaped" which distinguishes the small occurrence in northwestern Saudi Arabia, and the Stellar or star shaped" which distinguishes, occassionally, a few of the small and medium size occurrences (Fig. 7-e).

ACKNOWLEDGEMENTS

I wish to thank the Department of Geography, Faculty of Arts, King Saud University, Ar-riyad, for providing the regional maps and giving facilities for measuring areas by the Leitz "A.S.M." instrument of the Department. I thank also Mr. A. Zaky in Faculty of Science, Alexandria University for the final drawing of maps and diagrams.

REFERENCES

Abed, A.A. 1982 (in arabic) Geology of Jordan, Maktabat Al-Nahda, Al-Eslamiya, Amman, p. 225.

Abed, Abdulkader M. 1977, 'Al-Medina harra (basalts), petrology and geochemistry'. Bull. Fac. Sci., King Abdulaziz Univ., Jeddah, 1. 119-128.

Abo-Al-Haggag, Yousef. 1982. (in arabic). 'Geographical Observations in Western Arabian Peninsula'. Department of Geography, Kuwait Univ. Pap. 48. p. 36.

Al-Andalusy, Abeid 1947. (in arabic). Dictionary of Vaguenesses, First part, Writing-Translating-publishing Committee press, Cairo, Egypt p. 447.

Al Baladv, Atiq Ibn-Gheith 1978. (in arabic) Dictionary of Al-Higaz features, Dar Makkah for printing and publishing, Makkah, Saudi Arabia. p. 279.

Al-Eql, F. & Abd-Al-Rahman, A.H. 1974. (in arabic). Geology of Syria, Dar Al-Fikr, Beirut, p. 266.

Al-Gasir, Hamad, 1981. (in arabic). In North West of the peninsula, Dar Al-Yamama, Al-Riyad, Saudi Arabia. p. 675

Al-Hamawy, yakout, 1956. (in Arabic). Dictionary of Countries, Dar Sadir for prin. And publ., Beirut, Lebanon. p. 3195.

Al-Sayari, S.S. & Zotl, J.G. 1978. Quaternary period in Saudi Arabia, Springer Verlag, Werlag, Wein New York, p. 334.

Beydoun, Z.R. 1866. 'Geology of the Arabian peninsula, Eastern Aden protectorate and parts of Dhufar'. U.S. Geol. Surv. prof. pap. 560-11, p. 49.

Brown, G.F. 1960, 'Geomorphology of Western and Central Saudi Arabia'. 21 Int. Geol. Cong (Copenhagen) proc. Sec. 9, 150-159.

Brown G.F. 1970. 'Eastern margins of the Red Sea and the Coastal structures in Saudi Arabia' phil. Trans. Roy. Soc Lond. A. 267, 75-87.

---- 1971. 'Tectonic Map of the Arabian Peninsula'. U.S. Geol. Surv., Saudi Arabia project Report 134.

——————— & Coleman, R.G. 1972. 'The tectonic Framework of the Arabian peninsula' 24th Int. Geol. Cong. (Canada) proc., Sec. 3. 300-305.

——— ——— & Others 1963. 'Geologic Map of the Arabian peninsula' compiled by the U.S. Geol. Surv. and the Arab. Americ. Oil Company: U.S. Geol. Surv. Misc. Geol. Inv. Map I 270A (1 2,000,000).

Coleman, R.G., Fleck, R.J., Hedge, C.E. & Ghent, E.D. 1970-75. 'The Volcanic Rocks of Southwest Saudi Arabia and the Opening of the Red Sea'. Red Sea Research 1970-75, Bull. 22.

Greenes, F 1966. 'Geology of the Arabian Peninsula (Yemen)'. U.S. Geol. Surv., Prof. pap. 560B, p. 23.

Sir Julian Huxley, F R.S. 1978. The Earth and Man, World Atlas, Rand Menally and Company. New York p. 440.